البابا شنوده الثالث

حياة التواضع والوداعة

اهداءات ٢٠٠٢
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
الاسكندرية

البابا شنوده الثالث



Life of Humility and Meekness

By H.H. Pope Shenouda III

1st Print
June 2001
Cairo

الطبعة الأولى
يونيو ٢٠٠١
القاهرة

الكتاب : حياة التواضع والوداعة .

المؤلف : قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

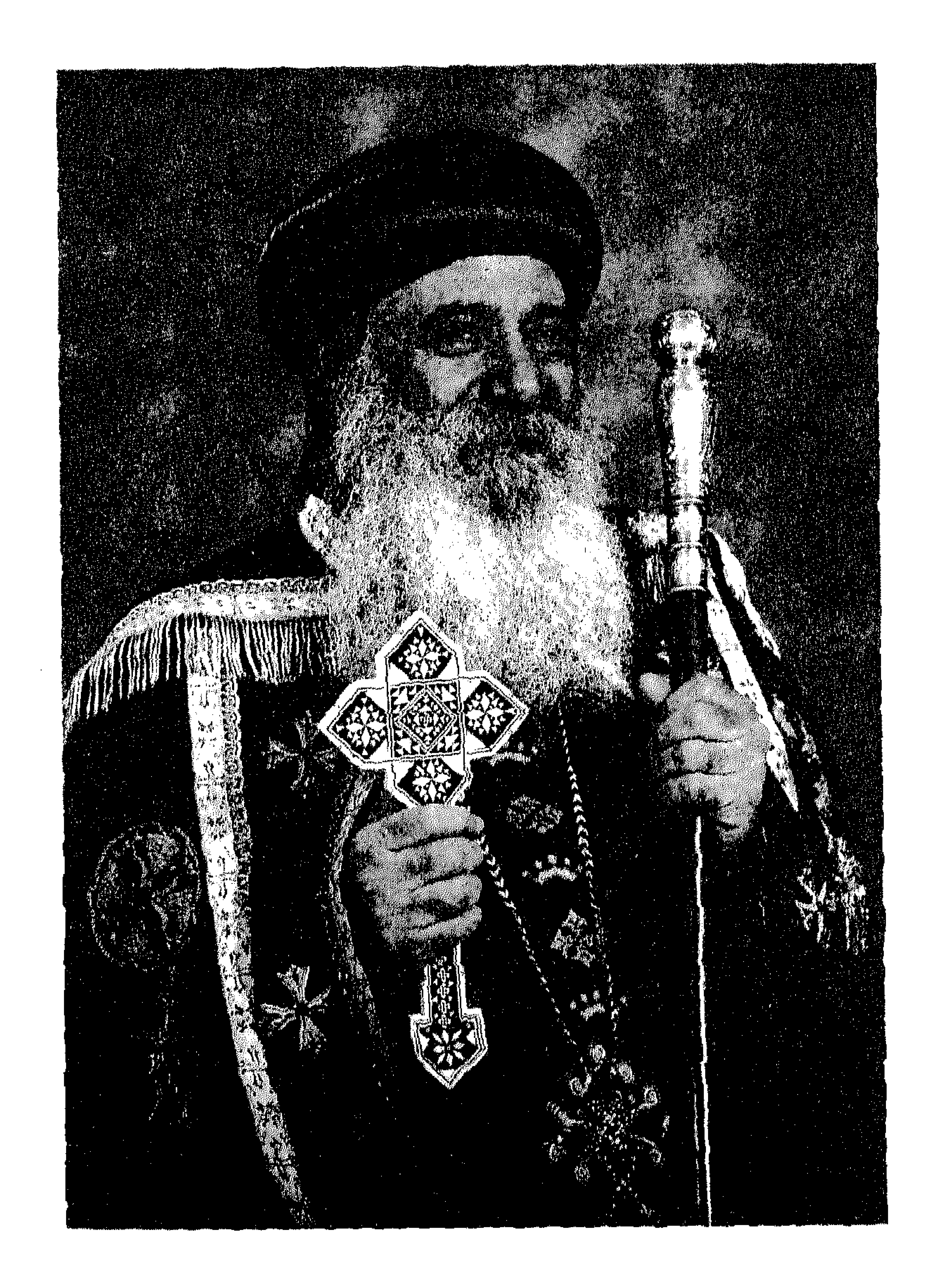
الناشر : الكلية الإكليريكية بالعباسية – القاهرة .

الطبعة : الأولى يونيو ٢٠٠١م

المطبعة : الأنبا رويس الأوفست بالكاتدرائية – العباسية – القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠١/٧٤١٧

I.S.B.N. 977 - 5345 - 60 - X



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

قصة هذا الكتاب

فكرت فى هذا الكتاب فى أواخر الخمسينات ، منذ أكثر من أربعين عاماً، قبل أن أنزل إلى عمل الأسقفية . وقرأت له كل ما استطعت قراءته من كتب الآباء، وترجمت الكثير منها، وأعددت كارتات عديدة لكافة نقاط الموضوع. ثم أعلنت عنه فى الستينات بعد أن صرت أسقفاً.

الفكرة بدأت فى حياتى الرهبانية، والتفكير فى النشر كان فى حياتى الرعوية.

وواجهتنى مشكلة أساسية، وهو أن التواضع والوداعة فى المفهوم الرهبانى أصعب من احتمال العلمانيين الذين سيُنشر الكتاب بينهم...

فكيف أوفق بين المثالية فى عمقها، وبين الإمكانية العملية للناس فى التنفيذ؟!

ومع ذلك فحياة التواضع والوداعة مُطالب بها الكل. الراهب الذى مات عن العالم وعن كل ما فيه من كرامة، وكذلك الذى يعيش فى العالم، ويجاهد أن يكون له مركز، وطموح، وتدرج فى الترقى.. وفى نفس الوقت يود أن يمارس هذه الفضيلة التى اتصف بها السيد المسيح نفسه، وأوصانا أن نتعلمها منه (مت١١: ٢٩). ودعا إليها الجموع فى أول عظته على الجبل (مت٥: ٣، ٥).

وظللت أتصفح أوراقى العديدة الخاصة بالموضوع، والتى ملأت حقيبة بأكملها. وأخذت أصوغ الفكر بحيث يكون مقبولاً وممكناً، مع الاحتفاظ بمثاليته. و تخليصه بقدر الإمكان من الدرجات التى لا تقوى عليها سوى الرهبنة.

وحان الوقت أن أنشر عن حياة التواضع والوداعة فى ٣٤ مقالاً فى جريدة وطنى (من منتصف عام ٢٠٠٠م).

إننا لا نستطيع أن نحجب المثالية عن الناس. وإنما نعرضها بأسلوب ممكن التنفيذ.

وليأخذ كل إنسان منها حسب طاقته. حسب قامته الروحية، ودرجة نموه، وحسب مقدار ما يعطيه الله من نعمة ومن قدرة على شركة الروح القدس (٢كو١٣: ١٤).

إنهما كتابان كنت مشتاقاً إلى إصدارهما، مهما كان اشتياق البعض إلى عكسهما: كتاب مخافة الله، وكتاب التواضع والوداعة.

كتاب (المخافة) بينما يشتاق الناس أن أحدثهم عن محبة الله أكثر من مخافته. وقد تكلمت كثيراً عن المحبة، ونشرت فيها كتاباً باعتبارها قمة الفضائل. ولكن كان لابد أن أنشر أيضاً عن مخافة الله، لأنها نقطة البدء في الحياة الروحية، كما يقول الكتاب "بدء الحكمة مخافة الله" (أم٩: ١٠).

وقد كان. وصدر كتاب مخافة الله، وتقبله الناس، وأعيد طبعه...

وهأنذا أصدر لكم كتاب التواضع والوداعة اللازمين للحياة الروحية. وبدونهما لا تثبت أية فضيلة، بل تصير طعاماً للمجد البطل.

وقد وضعته لكم في سبعة أبواب تحدثت فيها عن أهمية التواضع، وبعض أقوال الآباء فيه. وعن تواضع الله ووداعته. وعن خطورة الكبرياء التي هي أول خطية عرفها العالم، وبها سقط الشيطان والإنسان. وعن البر الذاتي، والعظمة، ومحبة المديح والكرامة.

كل ذلك مع تداريب كثيرة عن اقتناء التواضع والوداعة، وتفاصيل صفات كل منهما، وكيفية أقتنائهما.

واترك الكتاب بين يديك، فيه العديد من التفاصيل.

وليساعدك الرب على اقتناء هاتين الفضيلتين، بنعمته وروحه القدوس.

أبريل ٢٠٠١ **البابا شنوده الثالث**

الباب الأول :

حياة الاتضاع

- ما هو الاتضاع ؟
- مركزه بين الفضائل .
- تطويب الاتضاع .
- أمثلة عليه .
- اتضاع الله .
- حث على الاتضاع

أود أن أبدأ معكم اليوم سلسلة عن موضوع هام هو التواضع والوداعة: ما هو التواضع وما معناه؟ وماذا قال الآباء في مدحه وتطويبه؟ بل ماذا قال الكتاب المقدس؟ وما مركز التواضع بين الفضائل؟ وما علاقته بالمواهب العليا؟ وما علاقته بالنعمة والتجارب؟ وكيف يكون الإنسان متضعاً؟..

هذا كله وغيره، هو ما نود أن نحدثك عنه بمشيئة الله فى هذا الكتاب، لكى تدرك ما هى هذه الفضيلة الكبرى، وما تحويه داخلها من فضائل متعددة..

الاتضاع بين الفضائل :

الإتضاع هو الأساس الذى تبنى عليه جميع الفضائل .

وهو السور الذى يحمى جميع الفضائل وجميع المواهب .

ومن هنا يمكن أن نعتبره الفضيلة الأولى فى الحياة الروحية. الأولى من حيث ترتيب البناء الروحى، الذى تجلس فى قمته المحبة من نحو الله والناس . هو إذن نقطة البدء. ورب المجد فى العظة على الجبل، بدأ التطويبات بقوله "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات" (مت٥: ٣). ثم طوّب الودعاء (مت٥: ٥).

✠ ✠ ✠

إن كل فضيلة خالية من الاتضاع ، عرضة أن يختطفها شيطان المجد الباطل، ويبددها الزهو والفخر والإعجاب بالنفس .

لذلك إذا منحتك النعمة أن تسلك حسناً فى إحدى الفضائل، اطلب من الرب أن يمنحك اتضاعاً حتى تنسى أنك سالك فى فضيلة، أو حتى تدرك أنها لا شئ إذا قورنت بفضائل القديسين... كذلك إن منحك الله موهبة من المواهب السامية، ابتهل إليه أن يعطيك معها إتضاع قلب، أو أن يأخذها منك، لئلا تقع بسببها فى الكبرياء وتهلك...

وحسناً ، يعمل الله ، إذ يعطى مواهبه للمتواضعين ..

لأنه يعرف أنها لا تؤذيهم. وقد اختار للتجسد الإلهى فتاة متواضعة تنسحق أمام ذلك المجد العظيم.. وهكذا نظر إلى إتضاع أمته" (لو ١: ٤٨)، هذه التى تستمر فى إتضاعها مهما كانت جميع الأجيال تطوبها (لو ١: ٤٨). ويقول الكتاب إن الله يكشف أسراره للمتضعين، وأنه يعطيهم نعمة (يع٤: ٦) (١بط٥: ٥) (أم٣: ٣٤). هؤلاء الذين كلما زادهم اله مجداً، زادوا هم اتضاعاً وانسحاق نفس قدامه.

✠ ✠ ✠

والاتضاع ليس فقط فضلة قائمة بذاتها، إنما هو أيضاً متداخل فى باقى الفضائل.

إنه كالخيط الذى يدخل فى كل حبات المسبحة.. بحيث لا يكون قيام لأية حبة منها، ما م يدخل هذا الخيط فيها.. فكل فضيلة لا إتضاع فيها، لا تعتبر فضيلة، ولا يقبلها الله. ذلك قلنا إن الإتضاع أساس لكل الفضائل. كما قلنا أيضاً إنه سور لها يحميها من المجد لباطل .

تطويب التواضع :

إن السيد المسيح الذى تتكامل فيه جميع الفضائل، حينما أراد أن يوجه تلاميذه القديسين لى الاقتداء به، قال لهم:

"تعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب" (مت١١: ٢٩).

قال هذا على الرغم من أن كل فضيلة يمكننا أن نتعلمها منه.. كان يمكن أن يقول: علموا منى الحكمة، المحبة، الحنو، الهدوء، الخدمة، التعليم، قوة الشخصية.. فلماذا إذن كّز على التواضع والوداعة؟.. أليس من أجل الأهمية القصوى لهاتين الفضيلتين؟

وهكذا نرى التواضع بارزاً فى أقوال الآباء وفى حياتهم ...

قال ماراسحق "أريد أن أتكلم عن التواضع ولكننى خائف، كمن يريد أن يتكلم عن لله.. ذلك لأن التواضع هو الحلة التى لبسها اللاهوت لما ظهر بيننا.. ولهذا فإن الشياطين

حينما ترى شخصاً متواضعاً، تخاف. لأنها ترى فيه صورة خالقه الذى قهرها...

حقاً، ما أعجب هذا الكلام عن التواضع !

✠ ✠ ✠

التواضع يستطيع أن يقهر الشياطين :

وهذا واضح جداً فى قصة أبا مقار الكبير، الذى ظهر له الشيطان وقال له: "ويلاه منك يا مقاره. أى شئ أنت تفعله، ونحن لا نفعله؟! أنت تصوم، ونحن لا نأكل. أنت تسهر، ونحن لا ننام. أنت تسكن البرارى والقفار، ونحن كذلك. ولكن بشئ واحد تغلبنا". فسأله القديس عن هذا الشئ، فأجاب: "بتواضعك وحده تغلبنا". وهذا واضح طبعاً. لأن الشيطان لا يستطيع أن يكون متواضعاً. فهو باستمرار متكبر وعنيد. لذلك يقدر المتواضع أن يقهره. فهو يملك التواضع الذى لم يقدر أن يملكه الشيطان.

✠ ✠ ✠

وتظهر قيمة التواضع فى حياة القديس الأنبا أنطونيوس:

أبصر هذا القديس العظيم فخاخ الشيطان مبسوطة على الأرض كلها. فألقى نفسه أمام الله صارخاً: "يارب، من يفلت منها؟". فأتاه صوت من السماء يقول "المتضعون يفلتون منها". وهنا لعل البعض يسأل: "ولماذا المتضع بالذات هو الذى يفلت من فخاخ الشياطين؟". ونجيبه:

المتضع إذ يشعر بضعفه ، يعتمد على قوة الله .

فتسنده قوة الله ، وتحميه من فخاخ الشياطين .

وذلك على عكس (الحكيم) المعتمد على حكمته. وعكس (القوى) المعتمد على قوته، و(البار) الواثق ببره.. أما المتواضع المتأكد تماماً والمعترف، إنه لا قوة له ولا حكمة ولا برّ، فإن الله يسند ضعفه ويحارب عنه. وهذا هو أخشى ما يخشاه الشيطان..

✠ ✠ ✠

ولذلك فإن إخراج الشياطين يحتاج قبل كل شئ إلى إتضاع. وإن كان الرب قد قال "هذا الجنس لا يخرج بشئ إلا بالصلاة والصوم" (مت١٧: ٢١)... فذلك لأن الصلاة والصوم يظهر فيهما الإتضاع بكل وضوح. فالذى يصلى، يعترف ضمناً أنه ليست له قوة ذاتية، لذلك يطلب القوة من فوق بالصلاة. وإذا خرج الشيطان لا يفتخر بإخراجه. لأن ذلك لم يتم بقوته، إنما بقوة الله التى تدخلت بالصلاة. وكذلك فإن الصوم الحقيقى هو الذى

ينسحق فيه الإنسان ويتذلل أمام الله بالاتضاع، ويشعر بضعفه ...

✠ ✠ ✠

والشياطين كانت بالاتضاع ، تهرب أمام القديس أنطونيوس .

القديس أنطونيوس أبو الرهبنة كلها، عندما كان الشياطين يحاربونه بعنف، كان يرد عليهم باتضاع قائلاً: "أيها الأقوياء، ماذا تريدون منى أنا الضعيف؟ أنا عاجز عن مقاتلة أصغركم". وكان يصلى إلى الله ويقول "إنقذنى يارب من هؤلاء الذين يظنون أننى شئ، وأنا تراب ورماد". فعندما كان الشياطين يسمعون هذه الصلاة الممتلئة إتضاعاً، كانوا ينقشعون كالدخان. حقاً لقد أتقن القديسون الإتضاع بمثل هذه الصورة العجيبة...

ولم يتضعوا فقط أمام الله والناس، بل حتى أمام الشياطين . وهزموهم باتضاعهم .

كما رأينا فى سيرة القديس الأنبا أنطونيوس، وفى سيرة القديس مقاريوس الكبير، وكما نرى فى سير باقى القديسين .

✠ ✠ ✠

ولعل عظمة الاتضاع تظهر جلية.عندما نتأمل بشاعة الرذيلة المضادة له، أعنى الكبرياء والعظمة:

الكبرياء أحدرت من السماء ملاكاً بهياً، وحولته إلى شيطان .

حقاً ، إن أول خطية عرفها العالم هى الكبرياء، التى سقط بها الشيطان. وقصة سقوطه سجلها اشعياء النبى، فى قول الوحى الإلهى لهذا الملاك الساقط: "وأنت قلت فى قلبك أصعد إلى السموات. أرفع كرسىّ فوق كواكب الله.. أصير مثل العلىّ. لكنك إنحدرت إلى الهاوية، إلى أسفل الجب" (إش١٤: ١٣، ١٤).

✠ ✠ ✠

وبنفس سقطة الكبرياء، أغوى أبوينا الأولين .

كما قال فى قلبه "أصير مثل العلى"، هكذا قال لأبوينا الأولين "تصيران مثل الله، عارفين الخير والشر" (تك٣: ٥). من هنا يبدو أن الكبرياء لا تكتفى مطلقاً، بل تريد أن تعلو باستمرار، مهما كانت درجتها عالية... حتى إن كان الواحد ملاكاً فى درجة الكاروب، مملوءاً حكمة وكامل الجمال (حز٢٨: ١٤، ١٢)، أو كان صورة الله فى شبهه (تك١: ٢٦، ٢٧). يريد أيضاً أن يعلو ويرتفع. ولكنه فى هذه الكبرياء يهبط إلى أسفل، حسبما قال الرب .

"كل من يرفع نفسه يتضع . ومن يضع نفسه يرتفع" (لو ١٤: ١١) .

✠ ✠ ✠

الملاك لما أراد أن يرتفع، انحدر إلى الهاوية إلى أسافل الجب، وفقد مكانته كملاك، وصار شيطاناً.. والإنسان - وهو صورة الله - لما أراد أن يرتفع ، فقد صورته الإلهية، وطُرد من الجنة، وعاني ما عاني.. ولعل أصعب شئ يتعرض له المتكبر، أن الله نفسه يقف ضده. لذلك ما أخطر قول الكتاب :

"يقاوم الله المستكبرين" (يع ٤: ٦).

فى نفس الوقت الذى أشفق فيه الله على الخطاة والعشارين، وقادهم إلى التوبة، يقول الرسول إن الله يقاوم المستكبرين... وهؤلاء الذين يقاومهم الله، ما مصيرهم؟! فهل تريد أن تعرض نفسك إلى مقاومة الله نفسه لك؟!.. يعزينا النصف الثانى من نفس الآية، حيث يقول : "وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة" .

✠ ✠ ✠

ليتنا نخاف من قول الوحى الإلهى فى سفر اشعياء .

"إن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع... وعلى كل أرز لبنان العالى، وعلى كل بلوط باشان... وعلى كل الجبال العالية - وعلى كل التلال المرتفعة.. فيخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الناس. ويسمو الرب وحده فى ذلك اليوم" (إش٢: ١٢- ١٧).

ما هو الاتضاع ؟

بعض أقوال الآباء عنه ...

ما هو التواضع ؟

ليس التواضع أن تنزل من علوك، أو تتنازل إلى مستوى غيرك .

ليس التواضع أن تشعر أنك على الرغم من عظمتك، فإنك تتصاغر أو تخفى هذه العظمة. فشعورك أنك كبير أو عظيم، فيه شئ من الكبرياء . وشعورك أنك فى علو تنزل منه، ليس من التواضع فى شئ. وشعورك بأنك تخفى عظمتك، فيه إحساس بالعظمة، إحساس بعظمة تخفيها عن الناس. ولكنها واضحة أمام عينيك...

إن الله هو وحده العالى، وهو وحده الذى يتنازل من علوه. هو الخالق. أما الباقون فهم تراب ورماد ...

إنما التواضع بالحقيقة – كما قال الآباء ، فهو معرفة الإنسان لنفسه .

فتعرف من أنت؟ إنك من تراب الأرض. بل التراب أقدم منك. كان قبل أن تكون. خلقه الله أولاً، ثم خلقك من تراب.

✠ ✠ ✠

أتذكر أننى ناجيت هذا التراب ذات مرة، فى أبيات قلت فيها :

يا تراب الأرض يا جدى وجدّ الناس طرا
أنت أصلى أنت يا أقدم من آدم عمرا
ومصيرى أنت فى القبرِ إذا وُسدت قبرا

بل أنك يا أخى - إذا فكرت فى الأمر باتضاع . تجد أن هذا التراب لم يغضب الله، كما أغضبته أنت بخطاياك .

✠ ✠ ✠

إعرف أنك لست فقط تراباً. بل أنت أيضاً خاطئ وضعيف .

على أن تكون هذه المعرفة يقينية، بشعور حقيقى غير زائف داخل نفسك.. حتى وأنت فى عمق قوتك، تدرك أن هذه القوة ليست منك. بل هى منحة سماوية لك من الله الذى يسند ضعفك. ولو تخلت عنك نعمته لحظة واحدة، لكنت تسقط كما سبق لك أن سقطت.

✠ ✠ ✠

نقول ذلك ، لأن كثيرين لهم مظهرية الإتضاع ، بينما قلوبهم فى الداخل ليست متضعة ...

كثيرون يتحدثون بألفاظ متضعة.. وهذه الألفاظ ربما تزيدهم علواً فى نظر الناس. وهم يعرفون ذلك وربما يريدونه! وقد يقول الشخص منهم إنه خاطئ وضعيف. ولكن إن قال له أحد إنه خاطئ وضعيف، يثور ويغضب. ولا يحسبه من أحبائه، بل يتغير قلبه من نحوه..!

إن التواضع الحقيقى ، هو تواضع من داخل النفس أولاً ...

باقتناع قلب . لا عن تظاهر أو رياء . وليس لأن هذا هو الثوب الذى ترتديه لتبدو أمام الناس باراً. إنما لأنك تدرك تماماً عن نفسك ببراهين وأدلة عملية أنك خاطئ وضعيف بحسب خبرات حياتك من قبل.

✠ ✠ ✠

ولا يقتصر الأمر على معرفتك لنفسك أنك هكذا، إنما أيضاً:

تعامل نفسك حسب ما تعرفه عنها من خطأ ونقص وضعف :

تعرف عن نفسك أنك خاطئ، وتعامل نفسك كخاطئ . وإن عاملك الناس كخاطئ، تقبل ذلك، ولا تغضب ولا تتذمر، ولا ترد بالمثل، شاعراً أنك تستحق ذلك. وإن لم يعاملوك بحسب خطاياك بسبب أنهم لا يعرفونها، فعليك أن تتسحق من الداخل، وتشكر الله بقلبك على معاملة أنت لا تستحقها منهم، ولا منه لأنه سترك ولم يكشفك لهم...

✠ ✠ ✠

إن كان الأمر هكذا ، فالمتواضع لا يجرؤ مطلقاً على أن يمدح نفسه .

إنه لا يرى فقط أنه خاطئ وضعيف ، بل أنه أكثر الناس خطأ وضعفاً ، على الأقل

بالنسبة إلى الإمكانيات التى اتيحت له ولم يستغلها. لذلك فهو لا يرى مطلقاً أنه أفضل من أحد، وإن بدا أنه الأفضل فى نقطة معينة، فهو الأضعف فى نقاط أخرى كثيرة يعرفها عن نفسه. ولهذا فهو لا يدين أحداً.

✠ ✠ ✠

بل إنه باستمرار يتخذ المتكأ الأخير، حسب وصية الرب (لو١٤: ١٠).

وليس المقصود هو المتكأ الأخير من جهة المكان، إنما من جهة المكانة. وكما قال الشيخ الروحانى : "فى أى موضع حللت فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم. وقيل "كن آخر المتكلمين، ولا تقطع كلمة من يتكلم لكى تتحدث أنت" .. "وحاول أن تتعلم، لا أن تعلّم غيرك وتظهر معارفك".

✠ ✠ ✠

والإنسان المتضع يجب أن يعمل الفضيلة فى الخفاء .

وذلك حسبما أمر الرب (مت٦). ولذلك لا يوافق الاتضاع مطلقاً، أن يتحدث أحد عما يقوم به من أعمال فاضلة، أو ما يحدث له من رفعة.

إن بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة، وسمع كلمات لا يُنطق بها، لم يقل إن ذلك قد حدث له، إنما قال "أعرف إنساناً فى المسيح يسوع.. أفى الجسد لست أعلم، أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم.. أُختطف هذا إلى السماء الثالثة.. أُختطف إلى الفردوس. وسمع كلمات لا يُنطق بها" (٢كو١٢: ٢- ٤).

إن الفضيلة فى المتضع ، مثل كنز مخفى فى حقل .

وما أكثر القصص التى يحكيها لنا تاريخ القديسين عن أولئك المتواضعين الذين أخفوا فضائلهم، وأخفوا معرفتهم، بل أخفوا ذواتهم أيضاً. وعاشوا مجهولين من الناس، ويكفى أنهم كانوا معروفين عند الله. وكان ينطبق عليهم قول الرب فى سفر النشيد "أختى العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم" (نش٤: ١٢)... كالقديسة العذراء مريم: كانت كنزاً للرؤى والاستعلانات. ومع ذلك ظلت صامتة "تحفظ كل تلك الأمور، متأملة بها فى قلبها" (لو٢: ٥١).

تطويب الآباء والقديسين للتواضع

بعض أقوال الآباء :

★لما سئل **القديس مقاريوس** "أى الفضائل أعظم؟" أجاب "كما أن التكبر أسقط ملاكاً من علوه وأسقط الإنسان الأول، كذلك الإتضاع يرفع صاحبه من الأعماق". أليس هو المقيم المسكين من التراب ليجلس رؤساء شعبه" (مز١١٣) "أنزل الأعزاء عن الكراسى، ورفع المتضعين" (لو١: ٥٢).

✠ ✠ ✠

★قال **القديس أغسطينوس** : المتواضعون كالصخرة، تنزل إلى أسفل، ولكنها ثابتة وراسخة.. أما المتكبرون فإنهم كالدخان يعلو إلى فوق ويتسع. وفيما هو يعلو ويتسع، يضمحل ويتبدد ...

✠ ✠ ✠

★وقد قدّم القديسون مثالاً آخر عن التواضع والكبرياء، فقالوا :

إن غصن الشجرة المحمل بالثمار، يكون منحنياً من ثقل ما يحمل. أما الغصن الفارغ فيكون مرتفعاً!

وهناك تشبيه آخر وهو الأساس والبناء : فالأساس يعمل فى إختفاء، وهو غير ظاهر، تحت الأرض لا يراه أحد. ولكنه يحمل البناء كله فى إنكار ذات.. وفى نفس الوقت يقدّم البناء فى الكرامة. فيمدح الناس البناء لأنه ظاهر أمامهم. ويندر أن يفكر أحد فى مدح الأساس المخفى .

✠ ✠ ✠

★قال **الأنبا موسى** : تواضع القلب يتقدم الفضائل كلها. كما أن الكبرياء أساس الشرور كلها.

✠ ✠ ✠

★وقال **مار اسحق** : الذى يعرف خطاياه، خير له من نفعه الخليقة كلها بمنظره. والذى يتنهد كل يوم على نفسه بسبب خطاياه، خير من أن يقيم الموتى.. والذى استحق أن يبصر خطاياه، خير له من أن يبصر ملائكة .

✠ ✠ ✠

★وقال **أحد القديسين** : تشبه بالعشار لئلا تُدان مع الفريسى.

وقال قديس آخر : إنى أفضل أن أكون مهزوماً باتضاع، على أن أكون منتصراً بافتخار.

★وفى إحدى المرات قال أخ للقديس تيموثاوس "إننى أرى فكرى مع الله دائماً". فأجابه: الأفضل من ذلك أن ترى نفسك تحت كل الخليقة .

✠ ✠ ✠

★قال **شيخ** : الإتضاع خلّص كثيرين بلا تعب. وتعب الإنسان بدون إتضاع يذهب باطلاً. لأن كثيرين تعبوا فاستكبروا وهلكوا .

★وقال آخر : إن نزل الاتضاع إلى الجحيم، فإنه يصعد حتى إلى السماء. وإن صعدت العظمة إلى السماء، فإنها تنزل إلى الجحيم .

✠ ✠ ✠

★وقال **أنبا بيمن** : "كما أن الأرض لا تسقط لأنها كائنة إلى أسفل، هكذا من يضع نفسه لا يسقط" .

✠ ✠ ✠

★قال **مار أوغريس** : إن الشياطين تخاف من المتواضع لأنهم يعرفون أنه قد صار مسكناً للرب". وقال أيضاً "كما أن كثرة الأثمار تضع أغصان الأشجار، كذلك كثرة الفضائل تضع قلب الإنسان".

★سئل **شيخ** : "كيف أنه يوجد أناس يقولون إننا نرى ملائكة؟" فأجاب : طوباه الذى يرى خطاياه كل حين .

✠ ✠ ✠

★قال **سمعان العمودى** "الإتضاع هو مسكن الروح وموضع راحته. والمتواضع لا يسقط أبداً. إذ كيف يسقط، وضميره وفكره تحت جميع الناس؟!.. سقوط عظيم هو

الكبرياء. وعلو عظيم هو الإتضاع. فلنعود نفوسنا من الآن أن نتمسك بالإتضاع ونجعله لنا عادة، حتى إن كان قلبنا لا يشاء .

✠ ✠ ✠

★قال **القديس دروثيئوس** : فى الواقع لا يوجد أقوى من التواضع، لأنه لا شئ يمكن أن يقهره .

✠ ✠ ✠

★قال **ماراسحق** : الشجرة الكثيرة الأثمار، تنحنى أغصانها من كثرة أثمارها، ولا تتحرك مع كل ريح. والشجرة العادمة الثمر تتشامخ أغصانها، ومع كل ريح تتحرك.

★وقال أيضاً : مقبول عند الله سقوط باتضاع وندامة، أكثر من القيام بافتخار .

✠ ✠ ✠

★قال **أحد الآباء** : لما اشتهى الإنسان الأول مجد الألوهية - حسب قول الشيطان - تصيران مثل الله (تك٣: ٥)، حينئذ فقد الإنسان مجد البشرية كما خُلقت على صورة الله (تك١: ٢٧).

✠ ✠ ✠

★فى إحدى المرات قال **القديس يوحنا القصير** للأخوة "من الذى باع يوسف الصديق؟ فقالوا له "أخوته". فقال "ليس أخوته الذين باعوه، لأن تواضعه هو الذى باعه. لأنه كان قادراً أن يقول للذى إشتراه إنه أخوهم، ولكنه سكت، وباتضاعه بيع، وصار مدبراً لمملكة مصر" .

✠ ✠ ✠

★قال **القديس برصنوفيوس** : إن هذه الفضائل الثلاث الآتية جليلة جداً. ومن يقتنيها يستطيع أن يسكن فى وسط الناس وفى البرارى وحيثما أراد. وهى : أن يلوم الإنسان نفسه، ويقطع هواه، ويصير تحت كل الخليقة.

★وقال أيضاً : إن المتضع كائن فى أسفل. والذى هو فى أسفل، لا يسقط. أما المتعالى فهو الذى يسقط بسرعة.

✠ ✠ ✠

★وقال **ماراسحق**: من سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة، سعت إليه .

★وقال أيضاً: كلما يحقّر المتواضع نفسه ويرذل ذاته، كلما تتوافر كرامته عند سائر الخليقة .

★وقال أيضاً : المتواضع لا يبغضه أحد، ولا يحزنه بكلمة، ولا يزدرى به. لأن سيده جعله محبوباً عند الكل. كل أحد يحبه. وكل موضع يوجد فيه، فمثل ملاك الله ينظرون إليه، ويفرزون له الكرامة.

يتكلم الحكيم أو المتفلسف ويسكتونه. ويعطون فرصة للمتواضع أن يتكلم. وآذان الجميع منصتة إلى منطق فمه، يفتشون على معنى فهمه. وكلامه حلو فى مسامع الحكماء أشهى من الشهد لذوق آكله .

إن كان الإتضاع يعلى شأن الأمى والذى لا علم له، فالقوم الأجلاء الأماثل، كم كرامة تظن الإتضاع يسببها لهم!

✠ ✠ ✠

★سئل **القديس يوحنا الأسيوطى** "من هو الإنسان الكامل فى المعرفة؟" فأجاب: هو الذى يحسب جميع الناس أفضل منه .

★وقال أيضاً "إن عاملنا أنفسنا كخطاة ، لا ندان كخطاة" .

✠ ✠ ✠

★وقال **أحد الآباء** : إن قال أحد لرفيقه "اغفر لى" وهو متضع فى قلبه، فإن الشياطين تحترق.

✠ ✠ ✠

★وقال القديس **أوغسطينوس**: على قدر ضخامة البناء الذى يُشيد، ينبغى أن يكون عمق الأساس الذى يُحفر إلى أسفل. وكلما يرتفع البناء، هكذا ينبغى أن ينخفض الأساس. فإذا كانت القمة عالية جداً، وهى رؤية الله وملكوته وسمائه، يجب إذن أن نعمّق الأساس، ننزل إلى تحت بالإتضاع.. وهكذا نرى البناء أولاً تحت، قبل أن يكون فوق. والقمة لا ترتفع إلا بعد الإتضاع.

★وقال أيضاً : إن الاتضاع هو الفضيلة المعتبرة بوجه خاص فى مدينة الله، إذ كانت بوجه خاص من مميزات المسيح ملكها. وهو أوصى بها سكانها أثناء غربتهم الحالية على الأرض. وبنفس الوضع تكون الكبرياء التى هى الرذيلة المضادة لهذه الفضيلة، وهى المسيطرة بوجه خاص على الشيطان مقاوم المسيح، هى المميزة لمدينة الشيطان .

✠ ✠ ✠

★وقال القديس **بلاديوس** عن إيمان أحد كهنة الأوثان :

"وذهب وصار راهباً. ومن بداية حياته تمسك جداً بالإتضاع. وكان يقول: إن التواضع

يستطيع أن يبطل كل قوة المعاند. كما سمعت من الشياطين الذين كانوا يقولون: كلما نثير الرهبان يتحولون إلى التواضع، ويعتذرون بعضهم لبعض. وهكذا يبطلون كل قوتنا".

✠ ✠ ✠

★وقال **الشيخ الروحانى** : ذخرة المتضع داخله، أى الرب .

وقال أيضاً : من لا يحبك أيها المتضع الطيب، إلا المفتخر والمتقمقم الذى أنت غريب عن عمله؟! تأملوا أولئك الجبابرة آباءنا: كيف طرقوا لنا الطريق، إذ لبسوا التواضع الذى هو رداء المسيح. وبه رفضوا الشيطان وربطوه بقيود الظلمة.

✠ ✠ ✠

★أنبا **تادرا** الذى كان بقيود صلاته يربط الشياطين خارج قلايته، كان يجعل نفسه آخر جميع الناس. ومن الخدمة الكريمة كان يهرب .

★حقاً إن مسكن الله هو نفس المتواضع، كما قال **القديس مارأوغريس**: "يطأطئ المتواضع راسه بروح منسحقة، ويصير مسكناً للثالوث القدوس".

★وقال القديس **سمعان العمودى** : الاتضاع هو مسكن الروح وموضع راحته.

★وقال **مارافرام** : نجاح عظيم وشرف مجيد هو الاتضاع، وليست فيه سقطة .

✠ ✠ ✠

★وقال **مار اسحق** : الإتضاع يتقدم النعمة. والعظمة تتقدم التأديب.

أما عبارته الأولى ، فتوافق قول القديس يعقوب الرسول "يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع٤: ٦). ذلك لأن المتواضعين إذا عملت فيهم النعمة ونجحوا، لا ترتفع قلوبهم بسبب نجاحهم، بل يقول كل منهم مع القديس بولس الرسول "ولكن لا أنا، بل نعمة الله التى معى" (١كو١٥: ١٠). ويذكرون باستمرار قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو١٥: ٥). بعكس ذلك المتكبر : فإنه كلما عملت فيه النعمة عملاً، ينسبه إلى نفسه فيزداد كبرياءً!

✠ ✠ ✠

أما قول مار اسحق "إن العظمة تتقدم التأديب، فلعله أعتمد فيها على ما قيل فى سفر الأمثال:

"قبل الكسر الكبرياء . وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم١٦: ١٨).

ذلك لأن المتكبر حينما ينتفخ قلبه، تتخلى عنه النعمة فيسقط، حتى يشعر بضعفه فيتضع، ولا يعود ينسب كل نجاح إلى قدرته وكفاءته وذكائه.. ناسياً عمل الله فيه! وأيضاً

يسقط هذا المتكبر، لأن الله يقاوم المستكبرين كما قال الرسول (يع٤: ٦). ولأن المستكبرين لا يضعون الله أمامهم، ولا يعطون مجداً لله، كما فعل هيرودس الملك "فضربه ملاك الرب وصار يأكله الدود ومات" (أع١٢: ٢٣). هكذا تكون نهاية المتكبرين.

✠ ✠ ✠

وللقديس أوغسطينوس تأملات فى بعض المزامير الخاصة بالإتضاع :

★مثل "قريب هو الرب من المنكسرى القلوب، ويخلص المنسحقى الروح" (مز٣٤: ١٨). وأيضاً "الرب عالٍ ويعاين المتواضعين" (مز٣٨: ٦)، وكذلك "من مثل الرب إلهنا الساكن فى الأعالى والناظر إلى المتواضعات فى السماء وعلى الأرض. المقيم المسكين من التراب، والرافع البائس من المزبلة ليجلسه مع رؤساء شعبه" (مز١١٣: ٥- ٨).

✠ ✠ ✠

★فيقول القديس **أوغسطينوس**: سرّ عظيم يا أخوتى: الله هو فوق الكل. ترفع نفسك فلا تلمسه. تضع ذاتك فينزل إليك..

إن الله يسكن فى الأعالى فى السماء. هل تريد أن يقترب إليك؟ إتضع.

لأنه على قدر ما ترتفع نفسك، على قدر ما يرتفع هو عنك. أنت تعلم أن الله عالٍ. فإن جعلت ذاتك عالياً مثله، فسيبعد عنك...

الله عالٍ ، ويعاين الأشياء المتواضعة فى السماء وعلى الأرض. فهل هذه الأشياء المتواضعة التى يعاينها، هى ذات مسكنه العالى، لأنه هكذا يرفع المتواضعين. لذلك فهو يسكن فى أولئك الذين يرفعهم إلى الأعالى، ويجعلهم سموات لنفسه.. إنه الرب العالى الساكن فى قديسيه.

فإن كان الرب إلهنا يعاين يعاين متواضعات أخرى فى السماء غير التى يعاينها على الأرض، فإنى أفترض أنه يعاين فى السموات المتواضعين الذين دعاهم والذين يسكن فيهم. بينما على الأرض يعاين الذين يدعوهم لكى يسكن فيهم.

✠ ✠ ✠

قال القديس دوروثيئوس :

الذى يبنى بيتاً ، لابد أن يضع ملاطاً (مونة) على كل حجر. لأنه إن وضع حجراً على حجر بدون ملاط، فإن الحجارة تسقط والبيت ينهار. فإن كانت الحجارة فى بناء النفس هى الفضائل، فإن الملاط يكون هو التواضع. حيث أنه يؤخذ من الأرض، وهو تحت قدمى كل

أحد.. وكل فضيلة تمارس بدون تواضع، ليست هي فضيلة" .

★وصدق القديس دوروثيئوس . لأن **الآباء** قد قالوا: كل فضيلة يعملها الإنسان بدون إتضاع، تكون طعاماً لشيطان المجد الباطل.

✠ ✠ ✠

★وفي ذلك قال **ماراسحق** أيضاً : كما أن الملح يصلح لجميع المآكل، هكذا هو الإتضاع لكل الفضائل. لأن بدونه باطل هو كل عمل وكل فضيلة .

★قال القديس باسيليوس الكبير :

التواضع هو الكنز الذي يحفظ جميع الفضائل ...

✠ ✠ ✠

★وقال القديس مارأوغريس :

"التواضع هو عطية من الثالوث القدوس. هو طريق الملائكة، ونار على الشياطين.. وهو غنى لا يُسرق".

★ويتفق مار **اسحق** مع مار أوغريس في أن الإتضاع عطية من الله. فيقول "التواضع هو موهبة عظيمة. هل يمكن أن يكون إنسان هكذا "مرذولاً في عيني نفسه"؟! هل يستطيع الطبع أن يغيّر ذاته هكذا؟! لأجل هذا لا تشك أن التواضع قوة سرّية، حيث لا يتحايل إنسان أن يكون هكذا، بغير تغصب من كل قلبه.

✠ ✠ ✠

★وقال القديس أوغسطينوس :

.. فلنتمسك بالإتضاع. إن لم يكن لنا حتى الآن، فلنتعلمه. وإن كان لنا، فلا نفقده.. ولنقبل في هذا العالم وصية الاتضاع، لكي نستحق في العالم الآخر أن نقبل الرفعة التي وُعد بها المتضعين.

✠ ✠ ✠

★قال مارأوغريس :

الإتضاع سياج يحفظ الصاعد.. وهكذا إذا ارتفعت إلى علو الفضائل، فأنت تحتاج إلى تحفظ كثير. لأن الذي على الأرض إن سقط، فإنه يقوم سريعاً. وأما الذي يسقط من العلو، فإنه يعذب إلى الموت .

✠ ✠ ✠

★قال مارافرام السرياني :

فليؤدبك رسم الذى يكنس بيته: إذا يطـأطئ إلـى الأرض وينظفـه. فكـم بـالأكثر يحتـاج الإنسان أن يطأطئ باهتمام كثير ويتضع من أجل تنظيف النفس، ولا يترك فيها الأشياء التى يمقتها الله .

★وقـال أيضـاً : فـى النفس المتواضعـة يسكن الآب والابـن والـروح القـدس.. وفـى الكبرياء يسكن القائل "لأصعدن إلى السماء وأجلس فى الجبل الشامخ، وأرتقى فوق الغيوم، وأصير مثل العلى" (أش١٤) .

✠ ✠ ✠

★وقال ماراسحق :

★الـذى يتكلـم علـى المتواضـع بـالازدراء والاستهزاء، لا يحسبونه مـن الأحيـاء، بـل كإنسان قد أطلق لسانه على الله .

★وقال أيضاً : حتى الشياطين – مع جميع شـرورها وافتخـار قلوبهـا – إذا دنـت مـن المتواضع، صارت مثل التراب، وبطُل شرها جميعه وكل حيلها وأعمالها.

★وقال أيضاً : من ذا الذى لا يستحى من رؤية المتواضع؟!

★قبل أن يظهر مجد التواضع، كان منظره المملوء قدساً محتقراً من كل أحد. أما وقد ظهرت عظمة الإتضاع فى العالم كله، فإن كل أحد يوقر ويكرم هذا الشبه .

حث على الاتضاع

★في إحدى المرات سأل أحد الأخوة القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة قائلاً: "قل لنا عن منظر من المناظر التى تراها لنستفيد منه"

فأجابه القديس : إن من كان مثلى خاطئاً لا يُعطى مناظر. ولكن إن شئت أن ترى منظراً بهياً يفيدك بالحق، فإني أدلك عليه وهو: إذا رأيت إنساناً متواضعاً بقلبه طاهراً، فهذا أعظم من سائر المناظر. لأنك بواسطته تشاهد الله الذى لا يُرى. فعن أفضل من هذا المنظر لا تسأل (يقصد أنه يرى فى هذا الإنسان صورة الله المتواضع).

✠ ✠ ✠

★قال القديس أوغسطينوس :

أنت تريد أن تحصل على كل شئ. اطلب ذلك عن طريق الإتضاع:

لما قالت المرأة الكنعانية "نعم يارب، ولكن الكلاب تأكل من الفتات الساقط من مائدة أسيادها" سمعت قوله "يا إمرأة عظيم هو إيمانك" (مت١٥: ٢٧- ٢٨).

وأيضاً لما قال قائد المائة "لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتى" قال الرب "الحق لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً عظيماً مثل هذا" (لو٧: ٦- ٩).

فلنتمسك بالاتضاع: إن لم يكن لنا حتى الآن، فلنتعلمه . وإن كان لنا فلا نفقده .

✠ ✠ ✠

★قال أنبا ابراكسيوس :

إن شجرة الإتضاع التى ترتفع إلى العلاء هى التواضع .

وقال أيضاً : تشبه بالعشار ، فلا تدان مع الفريسى .

★وقال الأنبا أنطونيوس :

أحب الاتضاع ، فهو يغطى جميع الخطايا .

✠ ✠ ✠

★وقال الأنبا برصنوفيوس :

اقتنِ الاتضاع ، فإنه يكسر جميع فخاخ العدو .

✠ ✠ ✠

★وقال الأنبا اشعياء :

أحب الاتضاع ، فهو يحفظك من الخطية .

✠ ✠ ✠

★وقال الأنبا باخوميوس :

اسلك طريق الاتضاع ، لأن الله لا يرد المتواضع خائباً. لكنه يُسقط المتكبر، وتكون سقطته شنيعة .

احذر من تكبر القلب، لأنه أشنع الرذائل كلها .

★وقال أيضاً : كن متواضعاً لتكون فرحاً. لأن الفرح يتمشى مع الإتضاع. كن متضعاً ليحرسك الرب ويقويك. فإنه يقول إنه ينظر إلى المتواضعين. كن وديعاً، لكى يملأك الرب حكمة ومعرفة وفهماً. لأنه مكتوب أنه يهدى الودعاء بالحكم، ويعلم المتواضعين طرقه.

✠ ✠ ✠

★وقال أنبا يوحنا القصير :

يجب قبل كل شئ أن نقوم بالتواضع. لأن هذه هى الوصية الأولى التى قال ربنا عنها "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات" (مت٥: ٣).

✠ ✠ ✠

★وقال الشيخ الروحانى :

تسربل يا أخى بالتواضع فى كل وقت، لأنه يُلبس نفسك المسيح معطيه .

✠ ✠ ✠

★وقال ماراسحق :

حِب الاتضاع فى كل تدابيرك ، لتخلص من الفخاخ التى لا تُدرك، الموجودة فى كل حين خارج السبل التى يسلك فيها المتضعون .

★وقال أيضاً : لا تلتمس أن تُكرم وأنت مملوء من الداخل جراحات. ابغض الكرامة فتكرم. ولا تحبها لئلا تُهان .

من عدا وراء الكرامة هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة قصدته، وأنذرت كافة الناس باتضاعه .

★وقال أيضاً : تواضع فى علوك ، ولا تتعاظم فى حقارتك .. ضع ذاتك، وصغّر قدرك عند جميع الناس. فتعلو على الرؤساء فى هذا العالم.

كن أمياً فى حكمتك . ولا تتظاهر بالحكمة وأنت أمى .

★وقال كذلك: أيها الإنسان الشقى: إن أردت أن تجد الحياة، تمسك بالإيمان والتواضع، لكى تجد بهما رحمة ومعونة وصوتاً من الله فى قلبك.. وإن أردت أن تقتنى هذين.. تمسك من مبدأ أمرك بالبساطة. واسلك قدام الله بسذاجة وليس بمعرفة .

✠ ✠ ✠

★وقال الشيخ الروحانى :

يقول النبى : الويل للحكيم فى عينى نفسه.. فكن مثل عبد عند مواليه، وليس مثل أخ عند أخوته..

كن الأول فى الأعمال التى يترفع عن عملها غيرك. وكن آخر من يرتب الأمور ويدبرها.

البس التواضع فى كل حين، وهو يجعلك مسكناً لله .

★وقال أيضاً: كما ينبغى للشاب الصوم والنسك، هكذا ينبغى للشيوخ الاتضاع والتنازل. لأجل أنه دائماً يلصق بهم الظن والمجد الباطل. وإلى جهاد النفس يحتاجون، أكثر من جهاد الجسد.

★وقال أيضاً : الكنز المخفى فى الأرض لا ينقص، ولا يُخاف عليه من السارقين. وكنز المعرفة داخل القلب، ما تسلبه أفكار المجد الباطل .

✠ ✠ ✠

وقال مارافرآم :

كما أن الجسد يحتاج إلى ثوب، سواء كان الجو دافئاً أو بارداً.. كذلك النفس على الدوام تحتاج إلى رداء الإتضاع .

قنية نفيسة هى تواضع العقل.. اختر أن تمشى عارياً حافياً، من أن تتعرى منه. فإن الذين يحبون التواضع، يسترهم الرب .

★وقال أيضاً : إذا شاهدت نفسك مكللاً بالفضائل وعالياً فيها، فحينئذ تحتاج بالأكثر

إلى تواضع العقل، لكى تضع أساساً سليماً لعملك، ويثبت البناء مصاناً غير متزعزع .

★لا تعظّم شأن نفسك، لأنه ربما توافيك محنة فتوبخ الظانين فيك حسناً. حب التواضع فإنه سور لا يُنقب قدام وجه العدو، وصخرة مصادمة تكسر حيل الشيطان .

✠ ✠ ✠

★قال القديس مقاريوس الكبير :

الصوم بدون صلاة واتضاع ، يشبه نسراً مكسور الجناحين .

✠ ✠ ✠

★وقال ماراسحق :

إذا سلكت فى عمل الفضيلة حسناً، ولم تحسّ مذاقة معونتها، فلا تعجب من ذلك. لأنه إن لم يتضع الإنسان، لن يأخذ مكافأة عمله. المكافأة ليست تُعطى للعمل، بل بالإتضاع. والذى فقد الاتضاع، فقد ضيّع تعبه وعمله .

وقال أيضاً : إن عبرت على جميع منازل الفضيلة، فإنك لن تصادف راحة من تعبك، ولا انعتاقاً من حيل أعدائك، إلى أن تصل إلى منزل الإتضاع .

✠ ✠ ✠

★قال القديس الأنبا أنطونيوس :

"إن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله. وإن ذكرنا خطايانا، لا يذكرها لنا الله" .

لذلك احذر من أن تنسى خطاياك، لئلا تنتفخ وتظن فى نفسك الظنون، أو تصير باراً فى عينى نفسك.

وإن حوربت بالبر الذاتى والكرامة، فقل لنفسك : أنا لا استحق شيئاً بسبب خطاياى.. وإن كان الله من فرط محبته ورحمته قد ستر خطاياى على الناس، لكننى أعرفها جيداً ولا أنساها، لئلا أتكبر باطلاً .

✠ ✠ ✠

★قال القديس أيسوذورس :

إن شرف التواضع عظيم، وسقوط المتعاظم فظيع جداً. وأنا أشير عليكم أن تلزموا التواضع، فلن تسقطوا أبداً.

✠ ✠ ✠

★وقال القديس أوغسطينوس :

اتضع فى إلهك المتضع ، لكيما ترتفع فى إلهك الممجد .

إحذر من التواضع الزائف

ليس التواضع مجرد كلمة ، إنما هو حياة لها قواعدها الروحية، ولها ارتباط بعدد كبير من الفضائل تكون سبباً للإتضاع أو يكون الاتضاع سبباً لها.. وعلينا أن نتأمل كل هذا، ونعرف الوسائل التى توصلنا إلى التواضع ونمارسها .

وأولاً نعرف التواضع الحقيقى ، ونبعد عن التواضع الزائف :

فكثيرون يستخدمون ألفاظ التواضع، وهم بعيدون كل البعد عن روح الإتضاع. وقد يقولون إنهم خطاة ضعفاء، ولا يحتملون إطلاقاً أن يقال لهم مثل هذا. وقد ينحنون برؤوسهم أمام غيرهم. وقلوبهم لا تنحنى أبداً ولا أفكارهم.

✠ ✠ ✠

عجبت ذات مرة حينما قرأت إفتتاحية إحدى المجلات القبطية. وكان الكاتب يتحدث عن تواضع السيد المسيح أثناء عماده، وكيف أنه إنحنى أمام المعمدان الذى هو أقل منه بما لا يقال. وذلك لكى يكمل كل برّ.

وإذا بالكاتب يختم مقاله بعبارة "اعطنا يارب نحن أيضا أن ننحنى أمام من هم أقل منا، لكى نكمل كل برّ"! مادام هو فى أعماقه يعتقد أنهم أقل منه، فهل يُحسب إنحناؤه اتضاعا!! بينما القلب مرتفع عليهم من الداخل ينظر إليهم فى استصغار ..؟!

✠ ✠ ✠

وهناك قصة رواها يوحنا كاسيان عن القديس سرابيون الكبير :

وكيف أن أحد الرهبان الجائلين قد زاره. فلما دعاه القديس إلى أن يبدأ الصلاة أو

التأمل فى الكتاب، قال إنه غير مستحق. ولما دعاه إلى الجلوس على الحصير بدلاً من جلوسه على التراب، قال أيضاً إنه غير مستحق. ثم نصحه القديس أن يثبت فى قلايته، ولا يجول هنا وهناك، حينئذ لم يحتمل، وأحمرّ وجهه مثل السبع. فقال له القديس سرابيون.

"ليس التواضع يا ابنى، أن تلوم نفسك ملامة باطلة..! إنما التواضع هو فى احتمالك الملامة التى تأتيك من الآخرين" .

ولعل حكمة القديس تظهر فى أن البعض قد يصف نفسه بأوصاف متضعة، هو لا يعتقدها فى نفسه. أو أنه يصف نفسه بالخطية والضعف، لكى يقول الناس عنه إنه متواضع، فيكسب بذلك مدح الآخرين!! ولو قيلت عنه هذه الصفات لغضب. ولو عرف أن الناس سيصدقون ما يقول عن نفسه من عيب، ما كان يقول ذلك مطلقاً.

أما أنت فليكن لك التواضع الحقيقى باقتناع داخلى صادق أنك كذلك: فيك ما تصف به نفسك من نقص .

✠ ✠ ✠

قال **ماراسحق** محذراً من اتخاذ ألفاظ الاتضاع وسيلة للكبرياء:

"إن حقّرت نفسك لكى تكرم، الرب يفضحك.." .

"وإن أنت امتهنت ذاتك لأجل الحق، فإن الرب يتقدم إلى براياه فيمدحونك، ويفتحون قدامك باب مجده الذى يتكلم به منذ الأزل، ويمجدونك كالبارى لأنك بالحقيقة تكون على صورته ومثاله" .

تواضع الله

أكلمكم اليوم عن أعظم مثل للتواضع، أو هو المثل الحقيقي للتواضع. وأعني به تواضع الله تبارك اسمه. وكيف ذلك؟

إن الله هو الوحيد الذى يمكن أن يتواضع بحق .

لأنه هو الوحيد العالى جداً، الذى يتنازل من علوه ...

أما الإنسان الذى هو تراب ورماد (تك١٨: ٢٧)، والذى كان عدماً قبل أن يكون تراباً. الإنسان الذى كله خطية وإثم، ما هو معنى التواضع بالنسبة إليه؟ ليس هو فى علو لكى ينزل منه، وليس فى كمال حتى يخفيه.. إنما التواضع بالنسبة إليه، هو أن يعرف أصله ويعرف ضعفه، ويعرف خطيته. وكما قال أحد الآباء :

تواضع الإنسان هو أن يعرف نفسه ...

أما الله فهو الكامل فى عظمته، الكامل فى قداسته وفى قدرته، غير المحدود فى كماله.. فهو الوحيد الذى تليق به صفة التواضع . فكيف إذن ظهر تواضع الله، على قدر ما نفهم تواضعه؟ ونقصد تواضع الله بصفة عامة، وتواضع كل أقنوم على حده :

✠ ✠ ✠

★كان الله متواضعاً فى خلقه للكائنات . فلم يشأ أن ينفرد وحده بصفة الوجود، فمنح الوجود لغيره..

كان وحده منذ الأزل .. ولم يرد – فى تواضعه – أن يظل وحده. فأشرك معه فى الوجود ما لم يكن ...

كثير من الناس – إن وُجد أحد منهم فى عظمة أو فى منصب – يجمع كل السلطة فى يده، ولا يُشرك معه أحداً فى عمل أو تصرف..! أما الله، فلم يفعل هكذا، ولم يشأ أن ينفرد. ومنح العدم وجوداً. ومنح البعض منه حياةً، بل أيضاً منحه قوة وسلطة!!

✠ ✠ ✠

★ومنح البعض من مخلوقاته طبيعة سامية جداً .

مثال ذلك الملائكة "المقتدرون قوة" كما وصفهم المرتل فى المزمور (مز١٠٣: ٢٠). بل أن واحداً منهم – سطانائيل – الذى صار شيطاناً فيما بعد، قال عنه الرب فى سفر حزقيال النبى "أنت خاتم الكمال. ملآن حكمة، وكامل الجمال.. أنت الكاروب المنبسط المظلل.. أنت كامل فى طرقك، من يوم خُلقت حتى وُجد فيك إثم" (حز٢٨: ١٢– ١٥).

✠ ✠ ✠

★ومن تواضع الله أن الكائنات التى تمردت عليه ، لا يزال يبقيها حتى الآن، ويسمح أن يكون لها سلطان وقدرة !!

خذوا مثالاً ذلك الشيطان: تمرد على الله، وأراد أن يصير مثل العلىّ (أش١٤: ١٤). واسقط معه عدداً كبيراً من القوات السمائية، قيل إنهم ملائكته (رؤ١٢: ٧). وكان بإمكان الله أن يفنيه. ولكن من تواضع الله أنه لم يقضِ على هذا العدو المقاوم، بل استبقاه. وترك له سلطاناً، كما قيل عن الأشرار "هذه ساعتكم وسلطان الظلام" (لو٢٢: ٥٣). والأكثر من هذا إنه صارت له قوة أن يصنع آيات وعجائب، كما قيل عن ضد المسيح فى أيام الارتداد الأخير إن "مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين" (٢تس٢: ٩، ١٠).

وكلما أتأمل كيف أن فى العالم أناساً يشتمون الله، ويجدفون عليه ليل نهار، وأناساً ينكرون وجود الله، ولا يعترفون به، وأناساً يعصون الله ويحرضون على عصيانه.. ومع ذلك يحتمل الله كل هذا السبّ والتجديف والعصيان، دون أن يفنى مقاوميه.. أدرك فى أعماقى مقدار التواضع العجيب الذى يتصف به الله ...

✠ ✠ ✠

★ومن تواضع الله ، أنه يبعد عن مظاهر العظمة التى تجلب المديح وتبهر الناس. مثال ذلك ندرة استخدامه للمعجزات!

بإمكان الله أن يبهر الناس كل يوم وكل ساعة وكل لحظة بالمعجزات والآيات

والعجائب، وبالرؤى والاستعلانات والظهورات المقدسة.. فيجعلهم يلهجون بمجده، ويسجدون أمام قدرته، وعلى الأقل يعترفون بوجوده. ولكنه مع ذلك لم يفعل! ويقتصر اجتراح المعجزات على الضرورات النادرة..! إنه يريد أن يجذب الناس إليه بالحب والاقتناع، وليس بالعجائب والمعجزات والعظمة...

☩ ☩ ☩

★الله أيضاً فى تواضعه ، يسمح لأقل الناس أن يخاطبه !

عجيب أن يجد "التراب والرماد" فرصته ليتحدث مع الله، الله الذى تقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة والشاروبيم والسارافيم، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السمائية، بكل توقير وخشية...

قد يجد الإنسان صعوبة فى كثير من الأحيان، أن يتحدث مع تراب مثله، إن كان ذلك التراب له منصب عالٍ أو مركز كبير! أما الله فيمكنك أن تكلمه وأن تتفاهم معه. بل من الجائز أن تكلمه، وقد كسرت وصاياه منذ دقائق أو لحظات!

☩ ☩ ☩

وفى تواضع الله ، سمح أن يتحدث حتى مع أشر الخطاة !

تنازل وتكلم مع قايين ، أول قاتل على وجه الأرض. ولما قال له قايين "إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض.. فيكون كل من وجدنى يقتلنى"، أجابه فى عدل وعطف "كل من قتل قايين، فسبعة أضعاف ينتقم منه" (تك٤: ١٤، ١٥).

☩ ☩ ☩

وتنازل الله ، فأرسل ملاكاً يتكلم مع بلعام .. وذلك الإنسان المضل الذى أعثر الشعب وألقى معثرة أمامه وجعله يخطئ (رؤ٢: ١٤)... سمح الله بتواضعه أن ينطق الروح القدس على فمه بنبوءات تُعد من أشهر النبوءات عن التجسد (عد٢٤: ١٧).. حتى أن هذا المضل قال عن نفسه "وحى بلعام بن بعور، وحى الرجل المفتوح العينين، وحى الذى يسمع أقوال الله، الذى يرى رؤى الله، مطروحاً وهو مكشوف العينين" (عد٢٤: ٣، ٤) وقال إنه "يعرف معرفة العلى" (عد٢٤: ١٦)!

☩ ☩ ☩

والله فى تواضعه ، يأخذ موقف من يستشير أنبيائه :

فعندما رأى أن "صراخ سادوم وعمورة قد كثر، وخطيئتهم قد عظمت جداً" (تك١٨: ٢٠)، وأراد أن يهلكهم، قال "هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله؟!" (تك١٨: ١٧). ومن

هو ابراهيم هذا الذى تريد يارب أن تخبره قبل أن تُجرى مشيئتك؟ أليس هو حفنة من تراب ورماد؟ كلا، يقول الرب، بل "ابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية، وتتبارك به جميع أمم الأرض" (تك١٨: ١٨).

ويعرض الرب على ابراهيم، ويعطيه الفرصة والحرية أن يجادله، وأن يقول له "عسىأن يكون خمسون باراً فى المدينة.. حاشا لك أن تفعل هذا الأمر، أن تبيد البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم! حاشا لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟!" (تك١٨: ٢٤-٢٥). وتستمر المناقشة، ويقبل الرب الحوار، بل يقبل بتواضعه الجرأة فى الحوار!

✠ ✠ ✠

ويتكرر الأمر مع موسى النبى عندما أراد الرب أن يفنى ذلك الشعب، الذى صنع عجلاً من ذهب وعبده (خر٣٢).

كان الرب قد قرر إفناء ذلك الشعب الخائن. ولكنه نادى موسى أولاً. وقال له "قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذى أوصيتهم به. صنعوا عجلاً مسبوكاً وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.. فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم.." (خر٣٢: ٧-١٠).

عجيب هو تواضع الرب فى قوله لعبده موسى "أتركنى.." .

من هو هذا موسى يارب الذى تطلب إليه أن يتركك لتنفذ مشيئتك؟! على أن موسى هذا لم يتركه ليغضب ويُفنى. بل قال له "والآن إن غفرت خطيتهم. وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت" (خر٣٢: ٣٢)!! وسمع الرب لموسى، ولم يفنهم.

يذكرنى هذا الموقف بقصة الرب مع يعقوب وهو يصارعه: إذ قال الرب ليعقوب "اطلقنى، فإنه قد طلع الفجر" فقال يعقوب "لا أطلقك حتى تباركنى" (تك٣٢: ٢٦).

✠ ✠ ✠

ونلاحظ فى تواضع الرب مع ابراهيم وموسى نقطة هامة وهى :

★إن الله سمح لهما فى حوارهما معه بألفاظ تبدو شديدة .

ابراهيم يقول للرب "حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر.. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟!" (تك١٨). وموسى يقول للرب "ارجع يارب عن حمو غضبك واندم على الشر" "لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث، ليقتلهم فى الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض!" (خر٣٢: ١٢).

★إن الرب فى تواضعه يسمح لنا أن نناقشه ، بل يطلب منا ذلك بقوله : "هلم نتحاجج، يقول الرب" (أش١: ١٨).

هناك أناس لا يقبلون أن يناقشهم أحد فيما يصدرونه من أوامر ومن قرارات. يعتبرون ذلك كبرياء ممن يناقشهم، وتجاوزاً لحدوده. وإقلالاً من كرامتهم وهيبتهم. أما الله فإنه فى تواضعه يقبل الحوار والنقاش:

✠ ✠ ✠

أيوب الصديق يقول للرب "لا تستذنبنى. فهمنى لماذا تخاصمنى؟ أحسن عندك أن تظلم، أن ترذل عمل يديك؟!" (أى١٠: ٢، ٣).

وأرميا النبى يقول له "أبرّ أنت يارب من أن أخاصمك،. ولكنى أكلمك من جهة أحكامك: لماذا تنجح طريق الأشرار؟ اطمأن كل الغادرين غدراً!" (أر١٢: ١).

وداود النبى يعاتبه قائلاً "لماذا يارب تقف بعيداً؟ لماذا تختفى فى أزمنة الضيق؟!" (مز١٠: ١).

والرب يسمع كل هذا، بتواضعه وسعة صدر، ولا يغضب .

✠ ✠ ✠

★ومن تواضع الرب إنه يرفع شأن أولاده. وقد يعطيهم ألقابه.

يقول لعبده موسى "أنظر. قد جعلتك إلهاً لفرعون (أى سيداً له). وهرون أخوك يكون نبيك" (خر٧: ١). ولما اعتذر موسى عن ارساليته، بحجة أنه ثقيل الفم واللسان، منحه هرون أخاه، وقال له "تكلّمه وتضع الكلمات فى فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه.. هو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً (أى توحى إليه) [خر٤: ١٥-١٧].

✠ ✠ ✠

وعندما أراد الله أن يكون لموسى سبعون شيخاً يساعدونه، قال له: "إجمع إلىّ سبعين رجلاً من شيوخ اسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه.. فأنزل أنا وأتكلم معك.. وآخذ من الروح الذى عليك، وأضع عليهم" (عد١١: ١٦، ١٧).. وفعل الله هكذا (عد١١: ٢٥). كان يمكنه أن يمنحهم الروح مباشرة. ولكنه أخذ من الروح الذى على موسى ووضع على السبعين. فلما حلّ عليهم الروح تنبأوا (عد١١: ٢٥) . من تواضع الله، أراد أن يشعر أولئك الشيوخ أنهم من أتباع موسى، قد أخذوا من الروح الذى عليه...

وبنفس الوضع رفع الرب من شأن يوسف الصديق، وجعله أباً لفرعون، وسيداً لكل بيته" (تك٤٥: ٨).

✠ ✠ ✠

★والشريعة التى هى شريعة الله، تسمى شريعة موسى .

وهكذا فإن داود الملك قال قبل وفاته لابنه سليمان، "احفظ شعائر الرب إلهك.. كما هو مكتوب فى شريعة موسى، لكى تفلح فى كل ما تفعل.." (١مل٢: ٣). وسميت أيضاً "شريعة موسى" فى سفر نحميا (نح٨: ١). وفى سفر دانيال النبى (دا٩: ١١). إنها شريعة الله. ولكن من تواضعه سميت شريعة موسى .

✠ ✠ ✠

وأسفار الأنبياء أيضاً سميت باسمائهم ، مع أنها كتب الله .

ولكن الله – من تواضعه – سمح أن تُطلق عليها أسماؤهم. فيقال سفر صموئيل النبى، وسفر اشعياء، وارميا، وحزقيال، ودانيال، وملاخى .

وربنا يسوع المسيح يقول للكتبة والفريسيين "إن موسى – من أجل قساوة قلوبكم – أذن لكم بالطلاق" (مت١٩: ٨)... مع أن الإذن صدر من الله.. ولكن لا مانع أن يُنسب إلى موسى، تواضعاً من الله، ورغبة منه فى أن يرفع من شأن أولاده ...

✠ ✠ ✠

وبعد ، يعوزنا فى الحديث عن تواضع الله، أن نتحدث عن تواضع أقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس.

تواضع الابن ، وتواضع الروح القدس

تواضع الابـن :

١ – أول شئ نذكره فى تواضعه هو تجسده :

وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول عن السيد المسيح إنه "لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً فى شبه الناس. وإذ وُجد فى الهيئة كإنسان، وضع نفسه.." (فى٢: ٦– ٨)... أى أنه أخلى نفسه من كل مظاهر العظمة والكرامة اللائقة بلاهوته، متخذاً صورة العبد. أى تواضع يمكن أن يُوجد أكثر من هذا؟!

وفى هذا التواضع حكمة التدبير الإلهى: فمادامت الخطية الأولى التى دخلت إلى العالم كانت هى الكبرياء، سواء بالنسبة إلى الشيطان أو الإنسان، لذلك كان يليق بالمخلص أن يقهرها بالاتضاع ...

وهكذا كان تجسده هو أعظم عمل فى الإتضاع. وبه أخزى الرب تلك الكبرياء التى أغوى بها الشيطان أبوينا الأولين، بأن يصيرا مثل الله (تك٣: ٥). ورداً على أن يصير الإنسان مثل الله، صار الله فى الهيئة كإنسان بتواضعه .

✠ ✠ ✠

٢ – ومن اتضاع الرب أيضاً أنه وُلد فى مزود بقر .

فى مكان حقير، ومن أم فقيرة، خُطبت إلى نجار فقير. ومن قرية كانت "الصغرى فى يهوذا" هى بيت لحم (مت٢: ٥، ٦). ولم يخجل من أن يُدعى ناصرياً، بينما يُقال فى

استعجاب "أمن الناصرة يمكن أن يكون شئ صالح؟!" (يو ١: ٣٦).

✠ ✠ ✠

٣ - وفي تواضعه عاش بعيداً عن المظاهر والألقاب :

رضى أن يهرب من سيف هيرودس إلى مصر، بينما كان يمكنه أن يبيد هيرودس. وعاش ثلاثين سنة بعيداً عن الأضواء .

ومع أنه أقنوم الحكمة والمعرفة، "المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" (كو ٢: ٣)، رضى أن يُقال عنه "وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس" (لو ٢: ٥٢).

وطوال فترة كرازته عاش "وليس له أين يسند رأسه" (لو ٩: ٥٨). بلا أية وظيفة رسمية فى المجتمع، يتبعه تلاميذ بسطاء، غالبيتهم من الصيادين والجهلة. ولما ذهب إلى أورشليم، ذهب إليها راكباً على أتان وجحش ابن اتان" (مت ٢١: ٥).

✠ ✠ ✠

٤ - وعاش أيضاً خاضعاً للناموس ، ودعا إلى حفظه .

أليس هو القائل "لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم إلى أنْ تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (مت٥: ١٧، ١٨) .

وفى خضوعه للناموس أختتن فى اليوم الثامن (لو ٢: ٢١). وفى يوم الأربعين لولادته "صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب، كما هو مكتوب فى ناموس الرب" "ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب، زوج يمام أو فرخى حمام" (لو ٢: ٢٢، ٢٣).

وحسب الناموس لم يبدأ خدمته الرعوية إلا فى الثلاثين من عمره .

حسب السن الناضجة المفروضة فى أى إنسان. مع أنه قيل عنه وهو فى الثانية عشرة من عمره، وجدوه فى الهيكل "جالساً فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم. وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه ومن أجوبته" (لو ٢: ٤٦، ٤٧).

✠ ✠ ✠

٥ - ومن تواضعه أنه تقدم ليعتمد من يوحنا المعمدان .

كانت تلك معمودية التوبة. وما كان هو محتاجاً إليها وهو القدوس (لو ١: ٣٥) الذى فى تجسده شابهنا فى كل شئ ما عدا الخطية. وقد قبل المعمودية من أحد خدامه، أعنى يوحنا الذى حاول أن يعتذر عن ذلك قائلاً له "أنا المحتاج أن اعتمد منك، وأنت تأتى إلىّ! فأجابه

فى اتضاع "اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر" (مت٣: ١٤، ١٥). يقصد برّ الناموس، وقد خضع له تواضعاً ...

✠ ✠ ✠

٦ - ومن تواضعه سمح للشيطان أن يجربه !

وليست تجربة واحدة بل ثلاث مرات على الجبل. وبلغ من عمق اتضاعه وإخلائه لذاته، أن الشيطان "أخذه إلى جبل عالٍ جداً، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له "أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى" (مت٤: ٨، ٩). يالجرأة الشرير ووقاحته فى استغلاله لتواضع الرب. لذلك بعد أن ردّ الرب عليه بما هو مكتوب، أنتهره قائلاً "اذهب يا شيطان". فذهب. ولكن القديس لوقا يقول فى ذلك "ولما أكمل أبليس كل تجربة، فارقه إلى حين" (لو٤: ١٣). أى رجع بعدها!

✠ ✠ ✠

٧ - وفى اتضاع الابن الوحيد ، اللوجوس عاش فى حياة الطاعة :

قال عنه القديس بولس الرسول إنه "وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب" (فى٢: ٨). وهو قال عن نفسه لتلاميذه "لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم.. طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى، وأتمم عمله" (يو٤: ٢٢، ٢٤). وقال لليهود "الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً، إلا ما ينظر الآب يعمله.." (يو٥: ١٩). وقال للآب "لتكن لا مشيئتى بل مشيئتك". وقال "ليس كما اريد أنا، بل كما تريد أنت" (مت٢٦: ٣٩).

✠ ✠ ✠

وطاعته لم تكن للآب السماوى فقط، بل أيضاً لأمه مريم.

قيل فى طفولته ، بالنسبة إلى علاقته بمريم العذراء ويوسف النجار: "وكان خاضعاً لهما" (لو٢: ٥٤). أنه درس لنا، هذا الذى كانت الملائكة خاضعة له" (مر١: ١٣) (ابط٣: ٢٢).

✠ ✠ ✠

٨ - ومن تواضعه : أنه كان يجلس مع العشارين والخطاة :

هؤلاء الذين كان الكتبة والفريسيون يحتقرونهم ويترفعون عن مخالطتهم. ولكن الرب اختار واحداً من هؤلاء (متى) ليكون له تلميذاً. وبهذه المناسبة اتكأ فى وليمة أعدها أولئك العشارون، حتى أنتقده الفريسيون (مت٩: ٩- ١١). فأجاب الرب فى اتضاعه "أنى أريد

رحمة لا ذبيحة. لأنى لم آتِ لادعو ابراراً بل خطاة إلى التوبة" (مت٩: ١٣).

وهكذا أيضاً دعا زكا العشار ودخل إلى بيته .

ومن تواضعه أنه إتكأ فى بيوت أعدائه من الفريسيين، كزيارته لبيت سمعان الفريسى وسماحه للمرأة الخاطئة أن تلمسه وتمسح قدميه بشعرها، مما أثار شك ذلك الفريسى(لو٧).

✠ ✠ ✠

٩ - ومن تواضع الرب أنه كان يسلك ببساطة مع الكل .

كان يسلك ببساطة مع الأطفال، ومع النساء، ومع عامة الشعب: يكلمهم ببساطة، بلا تعالٍ ولا ترفع، كواحد من البشر .

وكان يدعو نفسه ابن الإنسان، أو ابن البشر، فى كثير من المناسبات. وقد قيل عنه فى وداعته إنه كان "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد فى الشوراع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ" (مت١٢: ١٩، ٢٠).

✠ ✠ ✠

١٠ - ومن تواضعه أنه رفض عمل المعجزات للمظهرية والفرجة .

مثل رفضه تحويل الحجارة إلى خبز، ورفضه أن يلقى نفسه من جناح الهيكل، فتحمله الملائكة على أجنحتها (مت٤).

ولما طلب منه اليهود أن يروا آية منه كموضوع للفرجة Showy، قال لهم "جيل شرير وفاسق، يطلب آية ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبى. لأنه كما كان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض.." (مت١٢: ٣٩). موجهاً أنظارهم إلى موته، لا إلى معجزاته .

✠ ✠ ✠

١١ - ومن تواضعه أنه مجّد تلاميذه :

فقال للآب عنهم "المجد الذى أعطيتنى، قد أعطيتهم" (يو١٧: ٢٢). بل قال لهم أكثر من هذا "الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بى، فالأعمال التى أنا أعملها، يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها.." (يو١٤: ١٢). وقال عنه القديس بولس الرسول "الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم.. فهؤلاء مجدهم أيضاً" (رو٨: ٢٩، ٣٠).

أعطاهم أيضاً أن تبنى كنائسه ومذابحه بأسمائهم، وأن ترسم لهم الأيقونات وتوقد أمام أيقوناتهم الشموع، وتُرتل لهم المدائح والذكصولوجيات ...

✠ ✠ ✠

١٢ - ومن تواضعه أن نعمته تعمل فى الناس باختفاء .

عملهم هم هو الذى يظهر . أما نعمة الرب العاملة فيهم، فلا يراها أحد. وقد كشف لنا هذا الأمر القديس بولس الرسول حينما قال: "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا. ونعمته المعطاة لى لم تكن باطلة، بل أنا تعبت أكثر من جميعهم. ولكن لا أنا، بل نعمة الله التى معى" (١كو١٥: ١٠).

✠ ✠ ✠

١٣ - ومن تواضعه أنه احتمل ظلم الأشرار، وقبلّ الإهانات فى صمت .

شُتم ولطم، وأهين، وجلد، وأُتهم ظلماً. وقبلّ كل ذلك دون أن يدافع عن نفسه.. ودون أن يرد عليهم شرهم. وقد قيل عنه "ظُلم. أما هو فتذلل ولم يفتح فاه، كشاه تساق إلى الذبح" (أش٥٣: ٧). وصُلب بين لصين "وأحصى مع أثمة" (أش٥٣: ١٢).

✠ ✠ ✠

١٤ - وفى اتضاعه حمل خطايا العالم :

"هذا الذى لم يعرف خطية، جُعل خطية لأجلنا" (٢كو٥: ٢١). حَمل خطايا العالم كله. "كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه، والرب وُضع عليه إثم جميعنا. ونحن حسبناه مصاباً ومضروباً من الله" (أش٥٣: ٤، ٦). وهكذا صُلب كفاعل إثم وهو البار. ورضى أن يكون أمام الآب ذبيحة خطية.

✠ ✠ ✠

١٥ - ومن تواضعه أنه جعل صلبه واضحاً أمام الناس كلهم. بينما قيامته الممجدة لم يظهرها إلا لأفراد قلائل!

وكان يمكن أن تكون تلك القيامة واضحة للكل، بطريقة مبهرة ترد إليه اعتباره أمام اليهود. ولكنه فى اتضاعه لم يفعل ذلك. وترك لتلاميذه أن يبشروا بقيامته وسط شكوك أثارها اليهود ...

✠ ✠ ✠

١٦ - لهذا كله ، دعانا أن نتعلم منه الإتضاع :

وقال "تعلموا منى ، فإنى وديع ومتواضع القلب" (مت١١: ٢٩). فجعل أهم ما نتعلمه منه هو الإتضاع. وفى عظته على الجبل، أعطى الطوبى الأولى للمسكنة بالروح. ثم أعطى الطوبى للودعاء (مت٥).

تواضع الـروح القدس :

١٧ - من تواضـع الـروح القدس أنـه يعمـل كـل شـئ فـى بنـاء الكنيسـة فـى سـرية واختفاء. فتسمى أعماله هذه بالأسرار الكنسية.

يلد الإنسان الجديد فى المعمودية، ويمنحه المغفرة والبنـوة دون أن يظهـر. وكذلـك فـى سر الميرون يسكن فى المؤمن دون أن يظهر. وبالمثل يغفر الخطايـا مـن فـم الكـاهن دون أن يظهر. وهكذا فى باقى أسرار الكنيسة.

✠ ✠ ✠

١٨ - ومن تواضع الروح القدس إنه يتكلـم مـن أفـواه الرسل، وينطق فـى الأنبيـاء دون أن يظهر أيضاً .

كما قال السيد المسيح لتلاميذه "..لأن لستم أنتم المتكلمين، بل روح أبيكم هو الذى يتكلم فيكم" (مت١٠: ٢٠). ولكن الظاهر طبعاً أمام الناس أن الرسل يتكلمون. أما عمـل الـروح فهو فى الخفاء.

كذلك قيل عن النبوءات "لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان، بـل تكلـم أنـاس اللـه القديسـون مسوقين من الـروح القـدس" (٢بط١: ٢١). ولكـن عمـل الـروح القـدس لا يـراه أحـد. بـل يسمعون النبوة من إنسان .

✠ ✠ ✠

١٩ - بنفس الاتضاع القوة التى يمنحها الروح القدس للخدّام .

كما قال السيد المسيح لتلاميذه القديسين "لكنكـم سـتنالون قـوة متـى حـلّ الـروح القـدس عليكم. وحينئذ تكونون لى شـهوداً.." (أع١: ٨). والنـاس كـانوا يـرون قـوة شـهادة الرسـل ويمدحونهم ويتأثرون بهم . أما عمل الروح القدس فيهم، فكان فى اختفاء، لا يرونه.

✠ ✠ ✠

٢٠ - وفى اتضاع أيضاً كان الروح القدس يمنح المواهب .

والناس يرون أصحاب المواهب، ويعجبون بهم ويمتدحونهم . بينما من جهة هذه المواهب كلها يقول الكتاب "لكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه، قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء" (١كو١٢: ١١). ولكن الظاهر هو أصحاب المواهب. أما الروح فعمله فى اختفاء...

✠ ✠ ✠

٢١ - هكذا كان الروح القدس يعمل فى الكنيسة، والذى يظهر كان هو عمل الكنيسة. أما الروح فكان يعمل العمل كله فى سرية واختفاء .

اقرأ التاريخ كله، وما يحمله من تمجيد لأبطال الإيمان وللكارزين، وآباء الرهبنة، ومعلمى البيعة، بل لقديسى التوبة أيضاً. نرى أن التاريخ يمجدهم ويرفع شأنهم. بينما يرجع الفضل كله إلى عمل الروح فيهم - ذلك الذى عمله الروح تواضعاً فى اختفاء...

✠ ✠ ✠

٢٢ - ومن تواضع الروح أنه يرضى أن يسكن فى أجسادنا البشرية .

كما يقول الرسول "أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل الروح القدس الذى فيكم.." (١كو٦: ١٩) وأيضاً "أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم" (١كو٣: ١٦).

من نحن التراب والرماد؟ وما هى أجسادنا؟ حتى يسكن فيها روح الله؟! أليس هذا تواضعاً منه؟!

✠ ✠ ✠

٢٣ - ومن تواضع الروح القدس أنه يحتملنا :

يحتملنا ونحن نحزن الروح (أف٤: ٣٠)، ونطفئ الروح (١تس٥: ١٩)، ونقاوم الروح (أع٧: ٥١) بل نرفض الشركة مع الروح بخطايانا!

فليرحمنا الله ، وليجدد روحه فينا .

الباب الثاني :

وسائل الارتضاع وعلاماته

واحد وأربعون
علامة ووسيلة

وسائل الإتضاع وعلاماته

نود أن نذكر الآن منهجاً واسعاً ومختصراً عن تداريب للإتضاع، على أن نرجع بشئ من التفاصيل لهذه النقاط التى سنذكرها:

١ - إن كانت الكبرياء هى فى الاعتداد بالذات وتعظيمها، يكون التواضع فى إنكار الذات.

وتداريب إنكار الذات كثيرة جداً ليس مجالها الآن. وقد وضع السيد الرب إنكار الذات فى مقدمة شروط التلمذة له. فقال "إن أراد أحد أن يأتي ورائى، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى" (مت١٦: ٢٤). ولاشك أنه بإنكار الذات يصل الإنسان إلى التواضع. لأن الذى ينكر ذاته، لا يمكن أن يبحث لها عن مجد أو عظمة..

✠ ✠ ✠

٢ - وأيضاً : المتواضع المنكر لذاته، لا يدافع عن نفسه :

إنه - فى الأمور التى تمسه وحده - لا يبرر نفسه فى شئ. ويقبل ما يُقال عنه فى صمت. مثلما فعل السيد المسيح له المجد، الذى لم يدافع عن نفسه أمام بيلاطس ولا أمام هيرودس. وكذلك فعل يوسف الصديق الذى لم يدافع عن نفسه (تك٣٩). والقصص كثيرة نتركها إلى موضوع خاص. والمتواضع لا يستثنى قاعدة عدم الدفاع عن النفس، إلا من أجل الغير...

✠ ✠ ✠

٣ – بل المتواضع يلوم نفسه باستمرار :

سواء بينه وبين نفسه، أو أمام الناس، باقتناع وصدق .

حدث مرة أن البابا ثاوفيلس، زار جبل نتريا الذى كان يسكنه جماعات من المتوحدين. وسأل أبا الجبل عن الفضائل التى اتقنوها.. فأجابه "صدقنى يا أبى لا يوجد أفضل من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه فى كل شئ" . حقاً إن لوم النفس هو فضيلة المتضعين.

✠ ✠ ✠

٤ – ولوم النفس يوصل إلى انسحاق النفس :

أى إلى انسحاق القلب من الداخل، إلى انسحاق الروح لشعوره فى أعماقه بما فى ذاته من نقائص قد تخفى على الناس ولكنها ليست خافية عليه. وهذا الانسحاق الداخلى يبعده كل ألوان العظمة من الخارج، وفى نفس الوقت يقربه إلى الله كما يقول المزمور "قريب هو الرب من المنكسرى القلوب، ويخلص المنسحقين بالروح" (مز ٣٤: ١٨). وأيضاً "الذبيحة لله هى روح منكسرة. القلب المنكسر والمتواضع، لا يرذله الله" (مز ٥١: ١٧).

✠ ✠ ✠

٥ – ومن مظاهر الانسحاق ، الشعور بعدم الاستحقاق :

كما قال الابن الضال وهو راجع إلى أبيه "لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً" (لو١٥: ٢١). وكما قال قائد المائة للسيد الرب "يا سيد، لستُ مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتى" (مت٨: ٨). وكما قال القديس يوحنا المعمدان عن السيد المسيح: لست مستحقاً أن أحل سيور حذائه" (يو ١: ٢٧).

وهكذا فإن المتواضع يشعر أنه غير مستحق لكل احسانات الله إليه، ولا هو بمستحق لما يناله من الناس من الكرامة. لأنه عارف بنفسه..!

✠ ✠ ✠

٦ – وفى شعوره بعدم الاستحقاق ، يحيا حياة الشكر الدائم:

يشكر على كل شئ، لأنه متيقن فى داخله أنه لا يستحق شيئاً.. لذلك كل ما يناله من الله هو بركة، مهما كان قليلاً. لأنه يعرف عن نفسه أنه لا يستحق هذا القليل أيضاً.

كذلك هو يشكر على كل لون من معاملة الناس له. فإن عاملوه بإكرام، يشكرهم لأنهم

عاملوه بما لا يستحقه. وإن ظلموه أو أهانوه، يشكر على انه ينال جزاء خطاياه على الأرض!

❊ ❊ ❊

٧ - والمتواضع الحقيقى الذى يشعر بخطيئته، يقبل كل ما يأتى عليه .

ويقول فى نفسه "لو أن الله عاملنى حسب خطاياى، ما كنت أستحق أن أعيش". ويرى أن كل الإهانات والمتاعب التى تصيبه، هى أقل من استحقاقه بكثير، ويقبلها بشكر...

مثال ذلك داود النبى والملك: لما شتمه شمعى بن جيرا بشتائم مؤلمة، رفض أن يعاقبه أتباعه، وقال: "الله قال لهذا الإنسان اشتم داود" (٢صم١٦: ١٠). واعتبر ما حدث له نتيجة طبيعية لما سبق من خطاياه...

❊ ❊ ❊

٨ - الإنسان المتواضع - فى انسحاقه - يجعل خطيئته أمامه فى كل حين .

إنها تذله من الداخل، وتعصر عينيه بالدموع، وتزيد من إنسحاقه، وتذكّره بضعفه. لا ينسى خطاياه مهما غُفرت ومهما محاها له الله! مثلما بكى داود على خطاياه بعد غفرانها، وقال فى المزمور الخمسين "خطيتى أمامى فى كل حين" .. ومثلما ذكر بولس الرسول خطاياه. وقال "لست مستحقاً أن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (١كو١٥: ٩).

❊ ❊ ❊

٩ - المتواضع - مهما بلغ من رفعة - يشعر باستمرار أنه ناقص ومقصّر، وأنه لم يصل بعدإلى ما ينبغى عليه فعل!

القديس بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة (٢كو١٢: ٢)، والذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠). كان يقول "لست أحسب أننى أدركت أو نلت شيئاً" "ولكنى أسعى لعلى أدرك.." (فى٣: ١٢)، هذا الذى خشى الله عليه من كثرة الاستعلانات (٢كو١٢: ٧).

والقديس أرسانيوس العظيم، الذى كان يقضى الليل كله فى الصلاة، والذى كان رجل وحدة وصمت أكثر من الجميع، والذى تساقطت رموش عينيه من كثرة البكاء، والذى كان القديسيون يطلبون بركته، وقد أتاه البابا ثاوفيلس يطلب كلمة منفعة.. أرسانيوس هذا: ما كان يشعر أنه بدأ الطريق الرهبانى بعد! بل كان يصلى "هبنى يارب أن أبدأ"!

❊ ❊ ❊

١٠ - الإنسان المتواضع لا يتحدث عن نفسه حديثاً يجلب المديح .

نفسه هذه التى يلومها باستمرار ويعرف نقائصها، من غير المعقول أن يتحدث عن مواقف عظيمة لها تجلب المديح! إن الفريسى لم يتبرر أمام الله، لما وقف فى الهيكل يتحدث عن فضائله أمام الله فى صلاته! (لو١٨: ١٢).

لذلك فإننى أتعجب من إنسان حديث العهد بالتوبة، يدعوه البعض أن يقف على منبر كنيسة أو جمعية، ليحكى اختباراته للناس حتى ينتفعوا بها روحياً..! فيقف ويحكى كلاماً يُمدح عليه!

✠ ✠ ✠

١١ - إن كان الحديث عن النفس يفسح مجالاً للقدوة، فالإنسان المتواضع لا يجعل نفسه قدوة لغيره.

إنه يقول لنفسه "من أنا حتى أكون قدوة لغيرى؟! أنا الذى وقعت فى كذا وكذا من السقطات!". وإن كانت القدوة فى التوبة والرجوع إلى الله، فأنا لم أتب بعد. ومازلت فى الموازين إلى فوق. وفى كل يوم أسقط ...

✠ ✠ ✠

١٢ - المتواضع يشعر بتفاهة الكبرياء وخطورتها وتفاهة المجد الباطل .

فما قيمة المديح الذى يأتيه من الناس؟! ما بطلانه وما فائدته! بل كم هى أضراره الكثيرة التى تخرب النفس!.. باطلة كل أمجاد الدنيا وتافهة! "الكل باطل وقبض الريح" (جا١: ١٤). ليس شئ من هذه الأمجاد ثابتاً، ولا دائماً، ولا نافعاً. ولا شئ منها يصحب الإنسان فى أبديته، أو يشفع فيه أمام الله...

إن النفس الصغيرة هى التى تفرح بإعجاب الناس ومديحهم .

وكلما كبرت النفس ورجعت إلى صورتها الإلهية، لا يبهرها مطلقاً أى شئ من أمجاد العالم ومن مديح الناس... وبخاصة إذا كان ما يقوله الناس عكس ما يعرفه الإنسان عن نفسه، وعكس ما يشعر به فى داخله.

✠ ✠ ✠

١٣ - لذلك فالإنسان المتواضع يهرب من محبة المديح والكرامة .

لا يشتهى ذلك ولا يسعى إليه. وإن أتاه المديح ، لا يجعله ينحدر من أذنيه إلى قلبه. لا

يفرح به فى داخله، بل يدرك تماماً أنه غير مستحق له.. ولذلك لا يصدقه، أو على الأقل لا يتأثر به مهما كان صحيحاً...

وربما يتخذ هذا المديح مجالاً لتبكيت نفسه. ويقول فى ذاته: لعلنى قد صرت مرائياً إلى هذا الحد، الذى أظهر فيه للناس بغير حقيقتى!

✠ ✠ ✠

١٤ – من صفات المتواضع أنه ينسب كل أعماله الطيبة إلى نعمة الله .

إنه يرجع الفضل إلى الله فى كل خير يفعله. يقول مع القديس بولس الرسول "لا أنا، بل نعمة الله العاملة معى" (١كو١٥: ١٠) ويتذكر قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو١٥: ٥). وهكذا يحول حديث المديح إلى الله ونعمته وعمله. وإن حورب من الداخل بأنه قد فعل شيئاً، يقول لنفسه "بنعمة الله أنا ما أنا" (١كو١٥: ١٠).

✠ ✠ ✠

١٥ – والمتواضع بقدر إمكانه يخفى بره عن الناس :

يدرّب نفسه على عمل الفضيلة فى الخفاء على قدر ما يستطيع. ويهتم بالفضائل الداخلية أكثر من الفضائل الظاهرة. ويجعل أمامه قول الرب عن الذين يريدون أن يظهروا أعمالهم الحسنة للناس "الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم" (مت٦: ٥).

✠ ✠ ✠

١٦ – بل يحاول أن يخفى بره حتى عن نفسه :

حسب قول الرب "لا تجعل شمالك تعرف ما تفعله يمينك" (مت٦: ٣).

فمثلاً يعطى دون أن يحصى ما يعطيه.. ويحاول أن ينسى كل ما فعله من خير، حتى لا يكون ظاهراً أمامه. وحتى لا يكون فى فكره ولا فى ذاكرته. ولا تحاربه به نفسه. ولا يعتبر ذلك الخير من أعمال قدرته هو. بل الله قد فعل ذلك الخير بواسطته. وكان يمكن أن يعمله بواسطة غيره، وبطريقة أفضل.. ويتذكر نقائصه فى عمل هذا الخير، ويلوم نفسه عليها.

✠ ✠ ✠

١٧ – والمتضع يمتدح غيره لا نفسه :

فى كل عمل ناجح يقوم به، يذكر الجانب الذى ساهم به غيره فى إنجاح العمل، وأهمية ما فعله الآخرون ممتدحاً ما قاموا به، ناسياً نفسه.

وفوق الكل يذكر يد الله فى نجاح العمل. وهكذا يختفى لكى يظهر الله، ولكى يظهر غيره من الناس.

وفى كل ما يعمل، يحب الخير فى ذاته، لا فى أجره، ولا فى تقدير الناس له.

✠ ✠ ✠

١٨ – على المتضع أن يهرب من العظمة وكل مظاهرها وكل مصادرها .

يهرب من محبة الرئاسة والقيادة، ومن محبة السيطرة والنفوذ، ومحبة العظمة والتعالى على الآخرين، ومحبة التقدم على غيره. فكلها أسباب تؤدى إلى الهلاك. وقد نهانا الرب عنها حينما قال لتلاميذه القديسين:

"أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلطون عليهم.. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً.. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً.. كما أن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل ليخدِم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت٢٠: ٢٥- ٢٨).

✠ ✠ ✠

١٩ – فإن وُضع إنسان فى مركز كبير، فليسلك فيه ببساطة وإتضاع، ولا يتعالى على غيره.

ما أجمل أن ينسى مركزه، ويتعامل مع الناس فى محبة. بحيث لا يرتفع قلبه، ولا يتعامل مع غيره فى تعالٍ أو فى كبرياء، كأنهم أدنى منه أو أقل. ولا يزدرى بأحد. ولا يستخدم سلطته لإخضاع غيره.

لا يتعامل معهم مثلما كان هامان يتطلب أحتراماً معيناً من مردخاى (إس٣: ٥، ٦).. بل يتعامل مع الناس مثل داود، الذى كان وهو قائد جيش شاول الملك، يختلط مع الشعب فى مودة "وكان جميع اسرائيل ويهوذا يحبون داود، لأنه كان يخرج ويدخل أمامهم (١صم١٨: ١٦).

المتواضع يتعامل مع مرؤوسيه كزميل وصديق ويشعرهم بمحبة .

إن السيد المسيح كان يدعو تلاميذه أخوة. وقد قال لهم "لا أعود أسميكم عبيداً.. لكنى قد سميتكم أحباء" (يو١٥: ١٥). وقيل عنه إنه شابه أخوته فى كل شئ (عب٢: ١٧).

✠ ✠ ✠

٢٠ - المتواضع يحتمل الكرامة، فلا يرتفع قلبه بسببها .

ومهما نال من كرامة، لا ينسى أنه إنسان، وأنه تراب ورماد. بل على العكس يتواضع بالأكثر، لكي يقيم توازناً بين داخله وخارجه. وإن وصل إلى مركز رفيع أو نال جاهاً أو مالاً أو سلطاناً، فليذكر قول القديس أنطونيوس الكبير: "إن احتمال الكرامة أصعب من احتمال الإهانة". أما الذى يرتفع قلبه، فإنه يذكرنا بقول الشاعر :

لما صديقى صار من أهل الغنى .:. أيقنت أنى قد فقدت صديقى

✠ ✠ ✠

٢١ - المتواضع يحاول باستمرار أن يتخذ "المتكأ الأخير" .

وذلك حسب وصية الرب (لو١٤: ٧-١٠). وما أجمل قول الشيخ الروحانى فى ذلك "فى كل موضع حللت فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم". ليس فقط أن لا تتعالى عليهم، بل أن تكون أصغرهم وخادمهم. وهو فى ذلك يقدّم كل إنسان على نفسه، حسب قول الرسول "مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة" (رو١٢: ١٠).

وكما أنحنى السيد الرب وغسل أرجل تلاميذه (يو١٣)، يكون هو أيضاً مستعداً أن ينحنى ويخدم الكل، مهما كانوا أصغر منه.

وهكذا نرى الكهنة والمعلمين فى كنيستنا يدعون أنفسهم خداماً .

وهنا نذكر الصلاة التى صلى بها القديس أوغسطينوس من أجل شعبه قائلاً "أطلب إليك يارب من أجل سادتى، عبيدك". فقال عنهم "سادتى" مع أنهم أولاده ورعيته ..

على أننا نريد أن يكون تعبير "خادم" ليس مجرد لفظ أو لقب، إنما يستعمله صاحبه بكامل دلالته ومعناه.

✠ ✠ ✠

٢٢ - الإنسان المتواضع يضع أمامه فضائل القديسين وعلوها، فتصغر أمامه كل أعماله الفاضلة :

فإن حورب بفضيلة أتقنها، يتذكر المستوى العالى الذى وصل إليه القديسون فى هذه الفضيلة بالذات، ويقارن نفسه بهم، فيرى أنه لا شئ، وتصغر نفسه فى عينيه فى كل ما فعله من بر. أما الخطورة فهى أن يقارن الشخص نفسه بالمبتدئين أو بالساقطين والخطاة، فيرى أنه أفضل منهم. كما فعل ذلك الفريسى الذى وقف فى الهيكل يصلى وقال "أشكرك

يارب أنى لست مثل سائر الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار" (لو١٨: ١١).

✠ ✠ ✠

٢٣ – بل المتواضع يضع أمامه الكمال المطلوب منه، فيرى أنه لم يصل بعد إلى شئ .

يتذكر قول السيد الرب "كونوا أنتم أيضاً كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" (مت٥: ٤٨). ويرى أن المسافة طويلة بينه وبين هذا الكمال المطلوب، فيتضع قلبه ويشعر أنه لا يزال فى الموازين إلى فوق (مز٦٢: ٩). ويردد نفس العبارات التى وُصف بها بيلشاصر الملك "وُزنت بالموازين، فوُجدت ناقصاً" (دا ٥: ٢٧). وهكذا يتضع قلبه إن تذكر المطلوب منه .

فإن كانت المحبة هى أول ثمرة من ثمار الروح الكثيرة (غل٥: ٢٢، ٢٣). وللمحبة برنامج طويل ذكره بولس الرسول فى (١كو١٣) وللآن لم يدرك بعد أعماق هذه المحبة، ولم يستكمل مستلزماتها، فماذا يقول إذن عن باقى ثمار الروح التى ليس لها منها شئ؟!

بل يذكر أيضاً قول الرب "متى فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطالون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا" (لو١٧: ١٠). ويقول: حقاً، إننى لم أصل بعد إلى درجة هؤلاء العبيد البطالين!

✠ ✠ ✠

٢٤ – الإنسان المتواضع، يتواضع أيضاً من جهة المعرفة والفهم :

يضع أمامه قول الكتاب "لا تكن حكيماً فى عينى نفسك" "وعلى فهمك لا تعتمد" (أم٣: ٧، ٥). ويبعد عن المعرفة التى تنفخ (١كو٨: ١). وليذكر قول ماراسحق إن "الذى يفتخر بالمعرفة، يسقط فى البدعة والهرطقة" . وقد سقط فيها أريوس ونسطور وأوطاخى. وكانوا من المعتدين بمعرفتهم ومراكزهم، وواثقين فى أنفسهم بعمق علمهم!

✠ ✠ ✠

٢٥ – المتواضع لا يكون عنيداً ، متشبثاً برأيه .

لأنه توجد عجرفة فكرية عند البعض. عظمة فى الاعتداد بالرأى والتشبث به، مهما كان شاذاً أو خاطئاً. وعدم قبول معارضة له، أو حتى مناقشته! بحيث يثور هذا الشخص

إذا نُسب إلى فكره أى خطأ، ويحتد ويتكلم بخشونة وربما بإهانة. كما لو كانت لفكره عصمة ترفعه فوق المناقشة أو التحليل.

أما المتواضع، فإنه سهل فى التفاهم ، يقبل الرأى الآخر مهما كان معارضاً له، ويقبل الحوار والنقاش بطيبة قلب .

✠ ✠ ✠

٢٦ - الإنسان المتواضع يحب التلمذة، ويقبل التعليم والتوبيخ .

إنه لا يرى مطلقاً أنه قد وصل إلى درجة من المعرفة لا تقبل الزيادة. بل باستمرار يريد أن يعرف ويتعلم ويستزيد. ويعيش طيلة عمره يتتلمذ على الكتب، وعلى الناس، على الآباء والمرشدين، وعلى الطبيعة، وعلى الأحداث.. ولا يظن أنه وصل فى المعرفة إلى المستوى الذى يعطى فيه باستمرار دون أن يأخذ ...

وفى اتضاعه يتقبل كل رأى باتضاع، إن كان سليماً. ويشكر عليه، ويعترف أنه قد استفاد. وإن كان الرأى خاطئاً، لا يجرح صاحبه، بل يناقشه فى هدوء واتضاع.

✠ ✠ ✠

٢٧ - والإنسان المتواضع يكون دائماً بعيداً عن الغضب وثورة الأعصاب.

وكما قال القديس دوروثيئوس فى ذلك "إن المتواضع لا يغضب من أحد، ولا يُغضب أحداً".

فهو لا يغضب من أحد، لأنه باستمرار يأتى بالملامة على نفسه فى كل شئ. وهو لا يُغضب أحداً، لأنه يطلب بركة كل أحد، ولأنه يعتقد فى أعماقه أن كل أحد أفضل منه.

ولذلك نرى أن الإتضاع يرتبط دائماً بالهدوء والوداعة.

حقاً إنه ليس كل هادئ متواضعاً. ولكن كل متواضع لابد أن يكون هادئاً، وأن يكون وديعاً طيب القلب.

✠ ✠ ✠

٢٨ - والمتواضع بطبعه سهل التعامل مع غيره بسيطاً فى تعامله :

إنه لا يفترض باستمرار أنه على حق، وأن من يعارضه على باطل. ولا مانع لديه من أن يتنازل عن رأيه إن ثبت له أنه خطأ. بل أيضاً يشكر من وجهه إلى أن ذلك خطأ، ويفعل ذلك بحب حقيقى.

وفى النقاش لا يقاطع غيره، ولا يسكته لكى يتكلم هو. ولا يسخر من الآراء المعارضة له. ولا يحاول أن يتهكم على غيره. بل قد يثبت له خطأ فكره فى لطف دون أن يجرح مشاعره أو أن يسئ إليه. فهكذا كان يفعل القديس ديديموس الضرير مدير الكلية الإكليريكية فى حبرية البابا أثناسيوس. فاستطاع فى حواره مع الفلاسفة الوثنيين أن يكسب الكثيرين منهم إلى المسيحية. وكانوا جميعهم يحبونه.

✠ ✠ ✠

٢٩ - أيضاً المتواضع لا يرتفع قلبه مهما نما فى الروح وفى الفضيلة.

ومهما نال أيضاً من مواهب روحية. بل يعتقد باستمرار أن كل الحياة الروحية التى صارت له، هى من عمل النعمة فيه، من عمل الروح القدس معه، عن غير استحقاق منه. وأنه بدون الله لا يقدر أن يعمل شيئاً (يو١٥: ٥). فعليه أن يشكر لا أن يفتخر.

والمتواضع يعرف أنه إذا افتخر بشئ، ستتخلى النعمة عنه، لكى يشعر بضعفه، ويتضع أمام الله. ويذكر باستمرار قول الكتاب:

"قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم١٦: ١٨).

وهكذا يذكر أنه "تحت الآلام" مثل غيره (يع٥: ١٧). وأنه ليس أكبر من السقوط، وليس معصوماً منه. فإن الخطية "طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء"(أم٧: ٢٦).

✠ ✠ ✠

٣٠ - لذلك فهو أمام جميع الخطايا لا يفقد احتراسه، ولا يقلل صلواته .

لا يقول عن بعض الخطايا إنها من النوع الذى يحارب المبتدئين، وليس النامين فى الروح مثله!! وأنه أكبر من مستوى مثل تلك الحروب، أو أنه قد داس الشيطان تحت قدميه!!

بل هو - فى كل محاربات الشيطان - يطلب معونة من الله، مصلياً بقوة، مهما بدت الحرب بسيطة. ذلك لأنه لا يعتمد مطلقاً على قوته الخاصة ولا على انتصاراته السابقة.

✠ ✠ ✠

٣١ - والإنسان المتواضع لا مانع لديه من أن يستشير .

فالذى يستشير، إنما يشعر أن هناك عند غيره ما ينقصه من معرفة. ولا يظن مطلقاً أنه غير محتاج إلى رأى أو حلول من غيره كما يفعل المتكبرون. بل هو يستشير ويعمل

بالمشورة الصالحة، واثقاً أنه - مهما أوتى من علم وخبرة - هناك من هو أعلم منه فى أمور معينة...

وحتى إن لم يستشر، وجاءه رأى صائب تطوع به أحدهم دون طلب منه، يأخذ الفائدة التى فى هذا الرأى، مهما كان صاحب الرأى أصغر منه أو أقل شأناً.

✠ ✠ ✠

٣٢ - ومن صفات المتواضع الطاعة والاحترام لمن هو أكبر منه .

سواء كان ذلك الكبير أكبر منه سناً، أو أكبر منه مقاماً، أو أكبر منه فى القامة الروحية أو فى العلاقة الاجتماعية.

وعموماً فالمتواضع لا يستصغر أحداً. فهو يعامل الكل بلطف، حتى الصغار والخدم. ويرفع بذلك من روحهم المعنوية، ويشعرهم بأن نفوسهم كريمة فى عينيه.

✠ ✠ ✠

٣٣ - الإنسان المتواضع يظهر اتضاعه الروحى فى اتضاع جسده أيضاً .

يظهر اتضاعه فى ملامح وجهه، وفى نبرات صوته، وفى نظرات عينيه. فهو ينظر إلى الناس فى وداعة. ليست له النظرات المتعالية، ولا ينظر إلى الناس من فوق. وصوته هادئ: يتكلم بلطف، لا بسلطان. لا يحتد على أحد، ولا يتكلم بشدة ولا بنبرات متكبرة، ولا بصوت عالٍ، ولا باحتقار أو استصغار لأحد فى عدم ردّ.. إنما بلطف يتحدث مع كل أحد..

ويظهر إتضاعه أيضاً فى طريقة مشيه. فلا يمشى فى زهو أو فى خيلاء. وفى جلوسه أيضاً يجلس فى أدب، لا ينتفخ فى مظهره...

ويبعد عن العظمة فى مستوى ملابسه وأدواته وأثاثاته وحياة الترف. لا يُشعر الناس فى منظره ومظهره أنه فى مستوى عالٍ، أو مستوى أعلى منهم.

ولغته تدل عليه : فهو لا يتغنى بأعمال قام بها، ولا يفتخر. ولا يعقد مقارنات بينه وبين الآخرين، تدل على تفوقه ومقدار ارتفاعه عليهم وادراكه ما لا يدركون.

✠ ✠ ✠

٣٤ - والمتضع يظهر اتضاعه أيضاً فى أسلوب عبادته وصلواته.

فهو يدخل إلى الكنيسة فى خشوع. حسبما قال داود النبى "أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل

إلى بيتك. وأسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك" (مز ٥: ٧). ويقف في مهابة تليق بالصلاة وبالوجود في حضرة الله. كما قيل عن الشاروبيم والسارافيم إنهم وقوف قدامه: بجناحين يغطون وجوههم، وبجناحين يغطون أرجلهم (أش٦).

يحفظ حواسه جيداً، ولا ينشغل عن الصلاة بشئ. ولا يزاحم غيره في وقت التناول من الأسرار المقدسة. بل يتقدم إليها كغير مستحق..

ولا يجلس في الوقت الذي ينبغي فيه الوقوف. لذلك عند مباركة الطعام في مائدة بيته، لا يصلي وهو جالس... بل هو في كل مناسبة، يحتفظ بمهابة الصلاة.

كذلك يحتفظ المتواضع بخشوعه في فترة صومه. لأنها فترة تذلل أمام الله، والتذلل يليق به الاتضاع. ولنتذكر في هذه المناسبة ما قيل عن صوم أهل نينوى إنهم "نادوا بصوم، ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى. فقام عن كرسيه، وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح. وجلس على الرماد" (يون٣: ٥، ٦) .

✠ ✠ ✠

٣٥ - والمتواضع إذا أخطأ، وانكشف له ذلك، فإنه يعترف بخطئه.

ما أصعب الاعتراف بالخطأ على إنسان متكبر! يشعر أن ذلك يقلل من قدره ومن كرامته أمام الآخرين. أما المتواضع، فإنه لا يحاول أن يتهرب من مسئولية أخطائه أو يغطي عليها، أو يبرر ذاته بالأعذار. ولا مانع عنده من أن يقول "أخطأت في هذا الأمر".

يقول "أخطأت" أمام الله، وأمام الناس، وفي أعماق نفسه، بكل إقتناع. إن نفسه ليست معصومة في نظره.

المتواضع ليس "باراً في عينيّ نفسه" (أي٣٢: ١). فهو بعيد كل البعد عن البر الذاتي. ويعرف عن أخطائه أكثر مما يعرفه الناس عنه.

✠ ✠ ✠

٣٦ - من الوسائل التي تساعد على الإتضاع: حياة التوبة الحقيقية، وما يصحبها من فضائل.

فالإنسان التائب هو إنسان شاعر بثقل خطاياه، وخطيته أمامه في كل حين (مز٥٠)، يذكرها متذللاً أمام نفسه وأمام الله، شاعراً أنه غير مستحق لشئ. وهو باستمرار يلوم نفسه ويبكتها على سقطاتها وضعفاتها ونقائصها. وهو في كل ذلك يطلب صلوات وبركة

كل أحد.. لذلك يسلك باتضاع، ولا يتكبر على أحد. لأن تذكار ضعفاته يخزيه من الداخل، ويمنع عنه الكبرياء من الخارج...

وكلما بَعُد الإنسان عن مشاعر التوبة وحرارتها ودموعها، أصبح فى خطر أن يفقد إتضاعه.. ولذلك سعيد من يحيا فى التوبة على الدوام. لا يعتبر أنها مجرد مرحلة من مراحل حياته وقد عبرت. بل هو فى كل يوم من أيام حياته يخطئ. وكما قال القديس يوحنا الرسول "إن قلنا إنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا" (١يو ١: ٨).

✠ ✠ ✠

٣٧ - من وسائل الإتضاع أيضاً : الصمت وعدم إدعاء المعرفة .

إنه يعرف أن "كثرة الكلام لا تخلو من معصية" (أم١٠: ١٩) فيقول فى نفسه "تكفى معاصىّ السابقة". ويردد عبارة القديس أرسانيوس "كثيراً ما تكلمت فندمت". لذلك فهو يفضل الصمت. ويرى أن الاستماع أفضل من التكلم. ففى الاستماع يستفيد معرفة. وفى التكلم يعرض نفسه للخطأ. مردداً عبارة موسى النبى "لست أنا صاحب كلام، منذ أمس ولا أول من أمس" (خر٤: ١٠).

ويتذكر قصة القديس الأنبا أنطونيوس، الذى سأل بعض تلاميذه عن آية معينة. فأخذ كل منهم يذكر لها تفسيراً، ما عدا الأنبا يوسف الذى قال "لا أعرف". فقال له القديس الأنبا أنطونيوس "طوباك يا أنبا يوسف، لأنك عرفت الطريق إلى كلمة: لا أعرف" .

وبينما يجلس المتضع صامتاً فى وقار يحترمه الناس، نرى الإنسان المتكبر يحشر نفسه فى كل موضوع مهما كان فى غير تخصصه! ويجيب على كل سؤال، سواء كان يعرف أو لا يعرف. أما المتواضع - فإن إضطر إلى الكلام - يجيب فى هدوء عما يوقن به. ولا مانع من أن يقول أحياناً: لا أعرف. أو سأحاول أن أدرس هذا الموضوع.

✠ ✠ ✠

٣٨ - الإنسان المتواضع يشعر أنه فى حاجة إلى معونة من القديسين:

لذلك فهو فى كثير من الأمور لا يعتمد فقط على صلواته الخاصة. إنما يطلب من القديسة العذراء، ومن الملائكة الأبرار، ومن أرواح الشهداء والقديسين أن يسندوه فى جهاده، وأن يشفعوا فيه أما الله هو وكل الذين له. ويقول للرب فى صلاة الأجبية: أحطنا يارب بملائكتك القديسين، لكى نكون فى معسكرهم محفوظين ومرشدين..

ولا يرتفع قلبه فيقول : لست فى حاجة إلى وساطة من أحد هؤلاء! إن لى صلتى المباشرة بالله! فلماذا أطلب من العذراء، أو من مارجرجس أو من الملاك ميخائيل؟! متذكراً أن القديس بطرس الرسول - فى ليلة العشاء السرى - طلب من زميله القديس يوحنا الحبيب، الأصغر منه سناً، أن يسأل الرب عمن سيسلمه. وكان كذلك (يو١٣: ٢٣-٢٥).

بل المتواضع يطلب صلوات كل أحد. وهوذا القديس بولس الرسول يطلب من شعبه فى أفسس أن يصلوا لأجله بكل صلاة وطلبة فى كل وقت، لكى يُعطى كلاماً عند افتتاح فمه ليعلّم بالإنجيل (أف٦: ١٨، ١٩).

✠ ✠ ✠

٣٩ - والإنسان المتواضع لا يطلب أن يكون من أصحاب الرؤى، أو من صانعى المعجزات والعجائب .

إنه لا يشتهى هذه الشهوة ولا يطلبها، لأنه يعرف مقدار ضعفه وهبوط مستواه الروحى. بل القديسون الكبار كانوا يخشون هذا الأمر لئلا يحاربهم الكبرياء والمجد الباطل. ويذكرون قول الرب لتلاميذه عن مثل هذا الأمر "لا تفرحوا بهذا.." (لو١٠: ٢٠).. والمتواضع يذكر أن كثيراً من الذين صنعوا آيات وعجائب لم يدخلوا ملكوت السموات. وقال لهم الرب "أذهبوا عنى" "إنى لم أعرفكم قط" (مت٧: ٢٢، ٢٣).

✠ ✠ ✠

٤٠ - لذلك فالمتواضع يسعى إلى ثمار الروح (غل٥: ٢٢، ٢٣). وليس إلى مواهب الروح (١كو١٢)... والذين فى كبرياء يحبون الرؤى والمناظر، ما أسهل أن يقعوا فى خداع الشياطين.

والشيطان سهل عليه أن يعمل بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين (٢تس٢: ٩، ١٠) كما سيعمل فى الأيام الأخيرة فى مساندة ضد المسيح المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلهاً (٢تس٢: ٤). والشيطان أيضاً يستطيع أن يظهر فى شبه ملاك من نور (٢كو١١: ١٤). وبهذا يرضى محب الرؤى ويخدعه ويضيعه...

وهنا أذكر قصة ذلك الراهب الذى ظهر له الشيطان فى هيئة ملاك وقال له "أنا الملاك جبرائيل، وقد أرسلنى الله إليك". فردّ عليه الراهب فى اتضاع "لعلك أرسلت إلى غيرى

وأخطأت الطريق. أما أنا فإنسان خاطئ، لا استحق أن يظهر لى ملاك". فلما سمع الشيطان هذه العبارة المتضعة، انقشع كالدخان واختفى.

✠ ✠ ✠

٤١ – الإنسان المتواضع – إذا عمل فى الخدمة – لا يلح على الله أن يمنحه موهبة التكلم بألسنة. ولا يعلن على الناس أن هذه هى علامة الملء!

ولا ينظر باستصغار إلى من لا يتكلم بألسنة على اعتبار أنه لم يصل بعد! ولا ينادى شخصاً آخر، ويقول له : تعالَ لكى أسلمك تدريب الملء، واقفاً أمام الناس كمانح لموهبة الألسنة!

وسائل وعلامات أخرى لحياة الاتضاع

تجدها فى الأبواب المقبلة، وبخاصة فى علاقة الاتضاع بالفضائل . وأيضاً فى مقاومة الصفات التى يتصف بها المتكبر .

ونذكر من هذين البابين :

★علاقة الاتضاع بالإيمان والبساطة والتجرد .

★وعلاقته بالتعليم والتأديب ، وبالانتهار .

★وعلاقته بالوداعة وبالشجاعة .

★وبعده عن (الأنا) والاهتمام بالذات .

★وبعده عن المجد الباطل وكل فروعه .

★وبعده عن محبة الرئاسة والرعاية .

★وعن محبة المديح والكرامة .

مع قراءة تفاصيل كل ذلك .

الباب الثالث :

العظمة والكبرياء

- مقاومة الله لها .
- هى سبب السقوط .
- تشامخ الروح - العجرفة .
- البر الذاتى .
- نتائج ومظاهر الكبرياء
- علاقة الكبرياء بالتجارب .
- الذات (الأنا) .
- كيف التخلص من الكبرياء ؟

الكبرياء والعظمة

خطية مركبة تلد خطايا كثيرة (١)

المتكبر هو إنسان ضائع، ضيعته الذات. وفى كبريائه يقع فى عديد من الخطايا. وربما لا يشعر بضياعه ولا بخطاياه بسبب كبريائه. ويقول الكتاب:

"قبل الكسر الكبرياء. وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم١٦: ١٨).

فما هو سر هذا الكسر؟ وما هذا السقوط الذى يتعرض له؟ نذكر منه :

مقاومة الله للمتكبرين :

قد يتعرض المتكبر لمقاومة كثيرين ممن ينفرون من كبريائه، لأن الكبرياء خطية منفرة. ولكن أصعب من هذا كله مقاومة الله له. كما قال يعقوب الرسول:

"يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع٤: ٦).

حقاً : ما أصعب هذا، وما أخطر هذا!! إنه أمر مرعب أن يقاوم الله لوناً من مخلوقاته..!! والسبب هو الكبرياء.

✠ ✠ ✠

أول مخلوق قاوم الله، والله قاومه، هو الشيطان:

أراد الشيطان أن يرتفع فوق الكل، وأن يصير مثل الله (أش١٤: ١٤). وفى سقوطه لم يتضع ولم ينسحق. بل استمر فى مقاومته، وأسقط معه مجموعة من الملائكة من رتب عديدة، صاروا جنداً له، ينفذون معه خطته فى مقاومة الله.

ومازال الشيطان فى مقاومته لله ولملكوته، وفى مقاومته لأبناء الله.. حتى أنه عندما يُحل من سجنه، سيخرج "ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض" (رؤ٢٠: ٧).. بل يحاول أن يضل "لو أمكن المختارين أيضاً" (مت٢٤: ٢٤).

✠ ✠ ✠

وأخطر عدو فى آخر الزمان، دُعى أيضاً مقاوماً :

إنه "ضد المسيح" Anti - Christ الذى قال عنه الرسول إنه سيكون سبباً فى الارتداد العام الذى يسبق المجئ الثانى للسيد المسيح. ووصفه بأنه "إنسان الخطية، إبن الهلاك، المقاوم والمرتفع على كل ما يُدعى إلهاً أو معبوداً. حتي إنه يجلس فى هيكل الله كإله، مظهراً نفسه إنه إله" "الذى مجيئه بعمل الشيطان، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين" (٢تس٢: ١-١٠).

من كبريائه يدعى الألوهية كمعلمه الشيطان. ومن كبريائه يكون مرتفعاً ومقاوماً، مثل الشيطان أيضاً. وتغريه الآيات والعجائب والقوة، كمعلمه أيضاً.

لذلك يقاومه الله "يبيده بنفخة فمه، ويبطله بظهور مجيئه" (٢تس٢: ٨).

✠ ✠ ✠

إن السيد المسيح كان يشفق على الخطاة المنسحقين، بينما يقاوم المستكبرين .

★لقد دافع عن المرأة الخاطئة الذليلة المضبوطة فى ذات الفعل. وقال لها: "وأنا أيضاً لا أدينك. إذهبى بسلام ولا تخطئ أيضاً" (يو٨: ١١)... بينما قاوم الكتبة والفريسيين المتكبرين، الذين نسوا خطاياهم وأرادوا رجم تلك المرأة. وقال لهم الرب "من كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر" (يو٨: ٧).

★وأشفق السيد كذلك على الخاطئة المنسحقة التى بللت قدميه بدموعها، بينما وبخ الفريسى المتكبر الذى احتقرها وأدانها (لو٧).

وصلت كبرياء ذلك الفريسى إلى حد أنه شكّ فى السيد المسيح نفسه له المجد! فقال فى قلبه "لو كان هذا الإنسان نبياً لعلم من هذه المرأة وما حالها، إنها لخاطئة" (لو٧: ٣٩). فأراه السيد الرب أن تلك المرأة أفضل منه، وأن كليهما مديونان أمام الله. غير أنها تابت، وهذا الفريسى لم يتب. فاستحقت لذلك المغفرة...

✠ ✠ ✠

وقاوم الرب الكتبة والفريسيين، لأنهم مراؤون ومتكبرون.

صب الويلات على أولئك الذين كانوا "يحبون المتكآت الأولى فى الولائم، والمجالس الأولى فى المجامع، والتحيات فى الأسواق.. ويغلقون ملكوت السموات قدام الناس. فلا هم يدخلون، ولا يدعون الداخلين يدخلون" . ودعاهم "قادة عميان" (مت٢٣: ٦، ٧، ١٣) (مت٢٣: ١٦، ١٩).

✠ ✠ ✠

احذر إذن من أن تتكبر ، فيقاومك الله!!

حقاً ، ما أخطر ما قيل عن ذلك فى سفر اشعياء :

ورد فيه عن هذا الأمر: "إن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع فيوضع. وعلى كل أرض لبنان العالى المرتفع، وعلى كل بلوط باشان. وعلى كل الجبال العالية، وعلى كل التلال المرتفعة. وعلى كل برج عالٍ، وعلى كل سور منيع.. فينخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الناس. ويسمو الرب وحده فى ذلك اليوم" (أش٢: ١٢-١٧).

فإن خفت أن يقف الرب ضدك ويقاومك، تواضع لأنه "يعطى المتواضعين نعمة" (يع٤: ٦).. ماذا فى الكبرياء أيضاً؟

تشامخ الروح

هناك كبرياء فى ذاتها، يشعر الإنسان فيها إنه كبير (= عظمة) .

وكبرياء أخرى مقارنة . إذ يُقارن نفسه بغيره، فيشعر أنه أكبر منه. وقد ينمو عنده هذا الشعور، حتى يظن أنه أكبر من الكل، وأنه أفضل منهم، وأنه يفوقهم جميعاً!!

وتنتقل به الكبرياء إلى المعاملة، فينظر إلى الناس من فوق !

فيتعاظم عليهم، ويكلمهم بغير احترام، بأسلوب منتفخ غير لائق. ويفقد آداب التخاطب وآداب التعامل. وربما يكونون أكبر منه سناً أو أعلى منه مقاماً. ولكنه فى كبريائه وفى تعاظمه، لا يحترم أحداً، ولا يراعى شعور أحد! ألم يقل الكتاب عن إنسان الخطية إنه "المرتفع على كل ما يدعى إلهاً"! (٢تس٢: ٤). فكم بالأولى تعامله مع إنسان!

✠ ✠ ✠

بينما المتواضع يحترم الكل، ولو كانوا أصغر منه أو أقل شأناً .

المتواضع يعامل الكل بالاحترام والأدب واللياقة، حتى مرؤوسيه وتلاميذه، بل وخدمه أيضاً.. ولا يحاول إطلاقاً أن يخدش شعور أى إنسان، مهما كان خاطئاً أو مخطئاً فى تصرفه...

وهكذا تحدث السيد المسيح له المجد مع المرأة السامرية الخاطئة، دون أن يجرح شعورها. ولم يكلمها عن التوبة والتعفف والطهارة، بل حدثها عن الماء الحي والسجود لله بالروح والحق (يو ٤) .

أما المتكبر ، فإن تشامخه يقوده إلى خطية أخرى وهى :

الإدانة ومسك السيرة :

فى عدم احترام المتكبر للغير، يتكلم عنه بأسلوب غير لائق، فيه الإدانة والشتائم، وألفاظ التجريح والألفاظ القاسية، كأنما غيره بلا شعور ولا إحساس أمامه! وفى كل ذلك ينسى قول الكتاب:

"لا شتامون .. يرثون ملكوت الله" (اكو٦: ١٠).

وقد وضع الرسول هؤلاء الشتامين ضمن قائمة من أصحاب الخطايا البشعة، كالظالمين والطماعين والسارقين والفسقة وعبدة الأصنام..! وربما المتكبر وهو يشتم غيره، لا يحسب أنه يرتكب إثماً بشعاً.. وقد يظن أنه من حقه أن يشتم وأن يدين! وقد يضع شتائمه فى قائمة الغيرة المقدسة والرغبة فى الإصلاح أو التعليم.

كبرياؤه تقوده إلى شئ آخر هو البر الذاتى ...

البر الذاتى :

المتكبر بار فى عينى نفسه . وقد يكون أيضاً "حكيماً فى عينى نفسه" بينما يقول الكتاب "لا تكن حكيماً فى عينى نفسك" (أم٣: ٧). وقد وبخ هذا النوع من الناس فقال "جاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا يكون حكيماً فى عينى نفسه" (أم٢٦: ٥). من الصعب أن يعترف هذا النوع من الناس أنه مخطئ .

هناك أناس – من الصعب وربما من المستحيل – أن يعترفوا بأنهم قد أخطأوا!

حتى لو كان الخطأ واضحاً، سواء فى رأى أو فى تصرف..!

ولكن كبرياء القلب تأبى أن تخدش (العصمة) التى يدعيها المتكبر لنفسه! فلابد أن يدافع عن أخطائه، وأن يقاوم، وأن يهاجم من يكشف له خطأ أو عيباً. ولابد أن يبرر ذاته بكافة الطرق. فتقوده الكبرياء إلى المكابرة ...

المكابرة :

أو ما يسمونه بالعامية (المقاوحة).. إنه يريد أن ينتصر فى مجادلته بأية الطرق! ورغبته فى الانتصار تبعده عن الحق، وتركزه حول الذات .

والمكابرة سببها فى المتكبر : التشبث بالرأى أياً كان !

وقد ينفر الناس من أسلوب المتكبر فى مجادلته وتشبثه برأيه، مما لا يؤدى إلى أية نتيجة، إلا إلى ضياع الوقت وإرهاق الأعصاب، فيبعدون عن النقاش معه، حرصاً على سلامهم القلبى، ولكى لا يدخلوا فى صراع معه.. وربما يكلمهم أو يكاتبهم فلا يجيبون..

✠ ✠ ✠

وهكذا تؤدى به المكابرة والتشبث بالرأى إلى اعتزال الناس له .

أو قد يؤدى ذلك إلى أنطوائه عن الناس ترفعاً وكبرياءً. وتتعبه العزلة وترهق أعصابه، فيزداد عنفاً إن دخل فى نقاش .

وإذا طرقت المناقشة والمكابرة موضوعاً لاهوتياً أو عقيدياً، فقد يسقط المتكبر فى البدعة أو الهرطقة.

البدعة أو الهرطقة :

كل الهراطقة والمبتدعين كانوا متكبرين وعنفاء بلا إستثناء .

ويندر أن يكون أحدهم قد وقع فى الهرطقة عن جهل. لأن الجاهل - إن كان متواضعاً - يقبل التصحيح ويقبل تغيير رأيه .

أما المتكبر فلا يستطيع . لا يمكنه أن يقول إنه قد أخطأ. وهكذا يستمر فى فكره المنحرف، ويدافع عن هذا الفكر، ويحاول أن يجد له إثباتات، أو أن يطوّع تفسير آيات الكتاب لرأيه. وبذلك يثبت فى أخطائه العقيدية، وتتحول بسبب كبريائه من أخطاء إلى هرطقة...

✠ ✠ ✠

وربما تقنع الكبرياء إنساناً أن يأتي بشئ جديد لم يطرقه أحد من قبل، أو لم يكتب فيه الآباء، حتى لو كان غير مألوف أو غير مقبول.

وهكذا يقع في البدعة، إذ يبتدع شيئاً جديداً، ويعجب بنفسه أنه قد أتى بجديد. وربما يرى في الجديد شيئاً مشوقاً، فيعمل على نشره منتظراً أن يجلب لنفسه شهرة ومديحاً كصاحب فكر!!

وتقوده البدعة إلى أن "يرتئي فوق ما ينبغي" (رو ١٢: ٣).

فيتحدث عن أمور ربما لم يتعرض لها الكتاب في صراحة، أو لم تتعرض لها أقوال الآباء، أو هي فوق إدراكنا.. وفي كبريائه يستحي أن يقول "لا أعرف".. فيبدي رأيه، ثم يحاول أن يثبته. وقد يعتمد على مراجع غير دينية. ولا يشاء أن يقول إن ذلك مجرد رأي، أو أنه مجرد مفهومه الخاص...

✠ ✠ ✠

وبالكبرياء يحاول أن يقدم رأيه الخاص كأنه عقيدة !!

أو أن يعتبر رأيه هو رأي الكنيسة وتعليمها! ويندهش إن سأله أحد "ما هو المرجع الذي اعتمدت عليه؟"، ظاناً في نفسه أنه هو المرجع الذي يعتمد عليه الآخرون !

حقاً، إن التكلم في اللاهوتيات يحتاج إلى تواضع قلب وإلى تواضع فكر .

✠ ✠ ✠

والمتكبر يظن أنه يفهم أكثر من غيره. فلا يقبل تصحيح غيره له . لأنه من هو الذي يفهم أكثر منه، حتى يصحح له؟!

وهكذا فإن هرطوقياً مثل أريوس، لم يغير رأيه بتوجيه البابا بطرس خاتم الشهداء، ولا قبل أيضاً توجيه البابا ألكسندروس. ولم يخضع للمجمع المكاني الذي عقده البابا ألكسندروس وحضره مائة أسقف من أساقفة الكرازة المرقسية في مصر وليبيا .

ولم يقبل شيئاً من اقناعات القديس أثناسيوس. بل لم يقبل حكم المجمع المسكوني العظيم المنعقد في نيقية والذي حضره ٣١٨ من الأساقفة ورؤساء الأساقفة يمثلون كنائس العالم كله. وظل متمسكاً بفكره الخاطئ، لا يعبأ بأسقف ولا ببطريرك ولا بمجمع!! وهذا يدل على خطية أخرى هي:

العنـاد :

المتكبر عنيد . والهرطوقى أيضاً عنيد ، والمبتدع عنيد .

فإن صادفت إنساناً عنيداً، اعرف أن وراء عناده كبرياء .

وإن وجدت هرطوقياً، أعرف أن من أسباب هرطقته العناد والكبرياء .

والعناد يدخل فى أمور أخرى غير اللاهوت والعقيدة. وهو على أية الحالات طبع منفر ، كأمه الكبرياء، يقود أيضاً إلى العزلة والإنطواء .

نتائج أخرى :

للكبرياء نتائج أخرى وعلامات كثيرة. لعل من بينها المجد الباطل، ومحبة المديح والكرامة، والتعالى، والتمركز حول الذات، والتقدم على الآخرين.. وأمور أخرى عديدة...

المتكبر يرتفع فيسقط..
والمتكبر دائماً يبرر ذاته
المتكبر يفقد حياة الوداعة وحياة التوبة..

يرتفع فيسقط :

شرح القديس أوغسطينوس أن المتكبرين يبيدون كالدخان، فقال:

الدخان يرتفع جداً إلى فوق. وفيما هو يرتفع يتبدد وينتهي .

بعكس اللهيب الذى لا يرتفع كالدخان، ولكنه يبقى بقوته .

وقال هذا القديس فى تفسير المزمورين ٣٧، ٧٣ .

يقول المزمور "رأيت الشرير مرتفعاً إلى فوق ، وقائماً أعلى من أرز لبنان" (مز٣٧: ٣٥). فلنفترض إذن أنه مرتفع إلى أعلى، وأنه متشامخ فوق الباقين. ولكن ماذا بعد هذا؟ يستطرد المرتل فيقول عنه: "عبرت عليه، فإذا هو ليس بموجود. طلبته فما أمكن أن يعثر له على مكان" .. تماماً كما لو كان دخاناً، هذا الذى عبرت عليه.

قيل أيضاً عن مثل هذا فى المزمور إنه سيفنون ويتبددون مثل الدخان. يقول "فنوا مثل الدخان، فنوا" (مز٧: ٢٠)... تماماً مثل الدخان الذى يتبدد فيما هو يرتفع إلى فوق.. فهو فى ذات صعوده إلى أعلى، ينتفخ إلى حجم أكبر. وعلى قدر ما يعظم حجمه، تتحلل مادته.. وهكذا تلاحظ أن نفس عظمته كانت قاضية عليه. لأنه كلما ارتفع وامتد إلى أعلى، تزداد رقعته ويخف، ويقل ويضيع ويضمحل.

هكذا أعداء الله: عندما يبدأون أن يتمجدوا ويرتفعوا، سريعاً ما يفنون تماماً كالدخان.."

[القديس أوغسطينوس] .

✠ ✠ ✠

هنا ونتذكر أشخاصاً، حينما تعينهم النعمة، ويجدون أن حياتهم قد تغيرت إلى أفضل، يفتخرون قائلين: "حياتى قد تغيرت وتجددت. صرت إنساناً آخر". ويشرحون اختباراتهم للناس، بطريقة "كنت.. وأصبحت.."!

وإذ يفتخر الشخص بارتفاعه، تبعد عنه النعمة، فيسقط .. ليته يتذكر قول الكتاب فى ذلك:

"من يظن أنه قائم، فلينظر أن لا يسقط" (١كو١٠: ١٢).

إن كنت قائماً، فلا تظن قيامك وضعاً دائماً لا يتغير. وتذكّر القديسين الذين سقطوا. وهكذا يتضع قلبك، وتحترس لنفسك.

✠ ✠ ✠

إن الاتضاع يحفظك ، لأن الرب قريب من المنسحقين بقلوبهم .

فالإنسان المتضع : إذ يعترف بضعفه ، فإنه يخاف فيحترس ويدقق. وهكذا يبعد عن العثرات فلا يسقط. أما المتكبر فيعتز بقوته ولا يبالى، فتضربه الخطية من حيث لا يدرى.

✠ ✠ ✠

إن الشيطان له خبرة آلاف السنين فى محاربة بنى البشر .

وقد يجدك محترساً من خطية معينة، فلا يحاربك بها. ولكنه يهاجمك من جهة أخرى ظننت نفسك فيها قوياً، ويسقطك ..

وربما لا يحاربك إلى فترة طويلة، حتى تظن أنك قد ارتفعت فوق مستوى الحروب، وتستهين بالاحتراس. وحينئذ يرجع إليك وأنت غير مستعد فى ارتفاع قلبك هذا. وإذ تسقط، تتأكد أنك لست فوق السقوط!

✠ ✠ ✠

لا تظن إذن أن السقوط هو فقط للمبتدئين !

وأنك لست من المبتدئين! بعد أن قطعت شوطاً فى الحياة الروحية .

فإنك عندما كنت متضعاً ومحترساً، كنت تصلى بحرارة طالباً من الله أن يهبك معونة

لكى لا تسقط. أما الآن فأنت لا تصلى لأجل هذه المعونة، بل ربما تطلبها لأجل الآخرين فقط المعرضين وحدهم للسقوط، وليس أنت! وهكذا تبقى بلا معونة فتسقط ...

✠ ✠ ✠

تأمل ماراسحق فى عبارة "قبل السقطة تكون الكبرياء"، فقال :

على قدر ظهور العظمة فى النفس، على قدر ما تكون السقطة، ويكون الإنكسار المسموح به من الله. فإن الله لا يرفض الإنسان ويتخلى عنه، إلا إذا وجد عقله متفاوضاً مع أفكار العظمة.

فالذين يخرجون عن طريق الاتضاع، يتعرون من المعونات الإلهية ويسقطون.. فالمتعظم بالمعرفة يُهمل فيسقط فى التجديف. والمتبجح بالنسك يُهمل فيسقط فى الزنا. والمترفع بحكمته يُهمل، فيسقط فى فخاخ الجهل المظلمة.

✠ ✠ ✠

إن داوم الإنسان على الكبرياء، حينئذ يبتعد عنه الملاك المعتنى به، الذى إذا ما كان قريباً منه، حرك فيه الاهتمام بالبر. ولكن بابتعاده عنه، يقترب منه المحتال، ولا يدعه يدرك شيئاً من عمل البر.

✠ ✠ ✠

حقاً، أليس ارتفاع القلب هو سبب سقطة الشيطان ...

يقول له سفر حزقيال "قد ارتفع قلبك" (حز٢٨: ١). "ارتفع قلبك لبهجتك. أفسدت حكمتك لأجل بهائك" (حز٢٨: ١٧).

ويقول عنه سفر اشعياء "أنت قلت فى قلبك: أصعد إلى السموات. ارفع كرسى فوق كواكب الله.. أصعد فوق مرتفعات السماء. أصير مثل العلىّ. لكنك أنحدرت إلى الهاوية، إلى أسافل الجب" (أش١٤: ١٣- ١٥).

لم يقنع بما كان له من مجد، فاشتهى مجداً أكبر. ففقد ما كان له. وهكذا الإنسان الأول: اشتهى مجد الألوهية، ففقد مجد بشريته!

✠ ✠ ✠

العجيب أن غالبية المتكبرين يدّعون أنهم غير متكبرين .

وهذا بلا شك من كبريائهم، إذ أنهم على الدوام يبررون ذواتهم. وبهذا يقعون فى خطية أخرى هى تبرير الذات.

المتكبر يبرر ذاته :

باستمرار يدافع عن نفسه. لا يحب مطلقاً أن يبدو فى صورة الخاطئ. هو دائماً "بار فى عينى نفسه". ويريد أيضاً أن يكون باراً فى أعين الناس. وإن نبهه أحد إلى خطأ واضح، ربما يحاول أن يغطيه بالكذب أو بالأعذار، بعيداً عن الاعتراف والتوبة.

أبونا آدم لم يعترف بخطيئته، بل حاول أن يبرر ذاته. وهكذا فعلت أيضاً أمنا حواء (تك٣). ونحن ورثنا عنهما تبرير الذات .

✠ ✠ ✠

الخاطئ يضيف إلى خطيئته التى يبررها ، خطيئة التبرير .

وما أكثر الحيل التى يلجأ إليها المتكبر فى تبرير ذاته: منها إلقاء التبعة على غيره، أو على الظروف المحيطة. ومنها الإنكار، أو وإدعاء القصد السليم، أو أن الناس لم يفهموه على حقيقته. وغير ذلك من الأسباب التى تخرج جميعها عن النطاق الروحى..!

✠ ✠ ✠

ما أصعب كلمة "أخطأت" على المتكبر.. إنها تجرحه ...

وقد يقولها أحياناً إن كانت تجلب له مديحاً! أو إن كانت صورة الاتضاع الزائف ترضى كبرياءه.. ولكنه فى داخله لا يشعر إطلاقاً بأنه قد أخطأ. تخرج الكلمة من فمه وليس من قلبه. وقد يقول كلمة "أخطأت" - إن قالها - بلون من السياسة، وليس بروح الاتضاع...

✠ ✠ ✠

المتكبرون لا يعترفون ، وإنما يدينون غيرهم، ليستروا أنفسهم .

لابد أن يكون غيرهم هو المخطئ ، إذ ليس من المعقول أن يكونوا هم المخطئين! كما لو كانوا معصومين فى كل تصرفاتهم!

لذلك فالمتكبر كثير الجدل والنقاش لتبرير ذاته .

التعامل معه ليس سهلاً . والتفاهم معه ليس سهلاً .

التفاهم عنده ليس معناه أن يفهم رأى غيره أو يقبله. إنما تفاهمه مع الغير، معناه أن يقبل هذا الغير رأيه ويقتنع به...

وإن لم يقتنع غيره برأيه، قد يثور ويغضب. ويعالج الموضوع بأعصابه، مادام لم

يستطع معالجته بالرأى والفكر والإقناع.

☩ ☩ ☩

لهذا فإن الغضب زميل للكبرياء، يلازمها كثيراً وتلازمه .

وفى كل ذلك يفقد المتكبر وداعته. بعكس الإنسان المتواضع، فإنه إنسان رقيق لطيف وديع، سهل التعامل مع الآخرين. لذلك فهو محبوب من الكل. يخضع لهم بروح الحب فيكسبهم. وإن صادفته مشكلة يحلها بوداعة الحكمة (يع٣: ١٣).

أما المتكبر ، فإنه لا يخطئ فقط من الناحية الروحية، بل من الناحية الإجتماعية أيضا، إذ يفقد محبة الكثيرين بسبب كبريائه.

☩ ☩ ☩

والمتكبر فى تبريره لذاته يبعد عن حياة التوبة .

لأنه كيف يمكن أن يتوب إنسان، إن كان باستمرار باراً فى عينى نفسه؟! فهل يحتاج الأصحاء إلى طبيب؟! (مت٩: ١٢). أو كيف يستطيع هذا المتكبر أن يصلح أخطاءه، إن كان باستمرار يبررها؟! وكأنه بلا خطية!

أنت لا تترك خطأ من الأخطاء، ما لم تعترف أولاً بينك وبين نفسك أنه خطأ. أما إذا اعتقدت أنك على صواب، فسوف تبقى حيث أنت، لا تغير فى نفسك شيئاً..

☩ ☩ ☩

إن مشكلة العزة بالنفس والكرامة والكبرياء الذاتية، هى التى تعوق الإنسان عن الاعتراف بأخطائه، حتى أمام أب اعترافه!

قد يعترف ببعض الخطايا التى لا يخجله ذكرها، ويخفى الباقى، أو يمر عليه مروراً عابراً، أو يشير إليه من بعيد، أو يقوله دمجاً، أو يقوله ويبرره.. وقد لا يعترف إطلاقاً، ويتحول اعترافه إلى شكوى ضد غيره. وكأنه أمام أب الإعتراف يعترف بخطايا غيره وليس بخطاياه هو!

☩ ☩ ☩

وفى تبرير الإنسان لذاته، قد يسمى خطاياه بأسماء فضائل !

فقد يسمى ما يقع فيه من خبث ومكر ودهاء، بأنه لون من الحكمة! وقد يسمى تدليله الخاطئ لأطفاله بأنه حب وحنان، بينما يسمى قسوته بأنها حزم وتربية. ويسمى إدانته للآخرين وثورته الخاطئة على الأوضاع، بأنها غيرة مقدسة ورغبة فى الإصلاح.. وهكذا

مع باقى التصرفات ...

✠ ✠ ✠

على أن أخطر ما فى تبرير الذات وما فى المكابرة، أن يبدأ المتكبر المخطئ فى أن يفلسف أخطاءه ويبررها فكرياً ليقنع الناس بها!!

وهنا يوجد جواً من البلبلة الفكرية، حتى يحار البعض أين هو الحق؟! إن تبرير الذات فى تصرفاتها هو تبرير سلوكى يتعلق بالشخص نفسه وحده. أما تبريرها فكرياً، فهو يتعلق بالقيم والمبادئ، ويأخذ إتجاهاً عاماً.. لذلك فإن التبرير الفكرى للأخطاء له خطورة كبيرة. فإن الحق ليس هو الهدف فيه، وإنما الذات. ويندفع الشخص فيه متأثراً بعوامل نفسية.

✠ ✠ ✠

المتكبر – فى تبريره لذاته – كل ما يهمه هو رأى الناس فيه، ولا يهمه مصير هذه الذات فى الأبدية، مركزاً على توقير الناس لها!!

فهو يدافع عن نفسه، ويدافع عن أفكاره وتصرفاته . ويشرح ، وقد يعثر الغير فى شرحه. وهو لا يهتم بشئ من ذلك. إنما المهم عنده هو أن تخرج ذاته بريئة سليمة بعيدة عن اللوم .

وقد يؤدى تبريره لذاته ودفاعه عنها، إلى اتهام الغير أو تجريحه ولا بأس لديه من ذلك، مادام ذاته هو تصل إلى تبرير يرضيها..

✠ ✠ ✠

وفى تبرير الذات فى أخطائها الفكرية، وقع البعض فى البدعة أو فى الهرطقة. وأصروا على ذلك، إذ منعتهم كبرياؤهم من الاعتراف بالخطأ.

فى تبرير أخطاء الذات، يفقد ضمير المتكبر كل سلطان عليه، ويتولى قيادته روح الكبرياء وعزة النفس.

✠ ✠ ✠

والعجيب أن الذين يبررون ذواتهم، قد يصلون طالبين مغفرة خطاياهم. وهم فى داخل أنفسهم لا يرون أنهم خطاة فى شئ!!

فى الحقيقة أن تبرير الذات لا يفيدها، إنما تفيدها التوبة .

لأن التوبة تنقى الذات، بينما التبرير يعمل على تغطية الذات مع بقائها فى أخطائها.. والتوبة تعنى كشف الذات ومعرفة أخطائها، وتبكيتها على هذه الأخطاء. ولكن المتكبر – للأسف الشديد، ترفض ذاته أن تنكشف وأن تعترف بالخطأ. فيبقى بعيداً عن التوبة .

إن الذى يظن فى نفسه أنه شئ، يكبر فى عينى نفسه، ويريد أن يكبر فى أعين النـاس. وربما يكبر فى علاقته مع الله، ويقع بذلك فى التجديف! كما حدث مع الشيطان وكثير مـن الملحدين.

العجــرفة :

هناك ثلاثة أنواع من العجرفة تصيب المتكبرين ...

وهذه هى العجرفة . ويقسمها البعض إلى ثلاثة أنواع :

عجرفة علمانية، وعجرفة رهبانية، وعجرفة فى العقيدة واللاهوتيات .

★العجرفة العلمانية هى أن ينتفخ الإنسان من الداخل. وتظهر الكبرياء فى نظراته، وفى مشيته وجلوسه، وفى مظهره الخارجى، وفى أسلوب كلامه.. يمشئ فى خيلاء وعظمة، ويتخذ مظهراً ارستقراطياً فى كل تعاملاته ...

★أما العجرفة الرهبانية، فتظهر فى الافتخار بالصمت والوحدة، ولبس الخيش. كل ذلك من الخارج، دون التدرب فى الداخل على نقاوة القلب والفكر وممارسة ثمر الروح (غل٥: ٢٢، ٢٣). ومثل هذا الراهب يتعالى على زملائه الرهبان، ويحتقر وينتقد الذين ليسوا فى نسكه ووحده .

✠ ✠ ✠

★أما العجرفة فى مجال العقيدة واللاهوتيات ، فتظهر فى الذين يسعون إلى التكلم

بألسنة، ويقولون إنها علامة الملء بالروح.. ويتحدثون عن اختبارتهم علناً ومن فوق المنابر. ويدّعون منح الروح القدس بوضع أيديهم على الناس. ويقولون إن الشيطان تحت أقدامهم، يدوسونه بأرجلهم..!

★وقد يدعى بعضهم المعرفة اللاهوتية، وأنه يأتى فيها بجديد لم يدركه غيره، فيقع بذلك فى البدعة والهرطقة..!

العجيب أن كثيراً من الذين تكبروا، أو غالبية الذين تكبروا، كانوا من الذين قد أحسن الله إليهم، أو وهبهم إحدى المواهب.

إنسان يمنحه الله ذكاءً، أو لوناً من الفن، فينتفخ بسبب ذكائه أو فنه. وآخر يمنحه الله طاقة أو قدرة على العمل، فتكبُر ذاته بسبب قدرته. وثالث يمنحه الله غنى، فينتفخ بسبب غناه، أو يسمح الله لإنسان أن يتولى منصباً عالياً أو وظيفة مرموقة، فيرتفع قلبه بسبب مركزه أو وظيفته.. وإذا به ينظر إلى الناس من فوق، أو يتجاهل أصدقاءه القدامى.

✠ ✠ ✠

أمثال هؤلاء لم يحتملوا كرامة المركز والغنى، ولا كرامة الذكاء والطاقة. وكما قال القديس أنطونيوس الكبير فى ذلك :

هناك من يستطيعون أن يحتملوا الإهانة، ولا يحتملون الكرامة. لأن إحتمال الكرامة أصعب من إحتمال الإهانة .

لأن كثيرين ممن نالوا كرامة، انتفخوا وارتفع قلبهم من الداخل، وفقدوا الاتضاع والوداعة. ومثلهم أيضاً من نالوا مواهب عقلية أو فنية، أو حتى مواهب روحية، دفعهم ذلك إلى الكبرياء أو على الأقل إلى الإعجاب بالنفس! حتى تلاميذ المسيح أنفسهم أدركهم الإعجاب بالنفس، لما خضعت لهم الشياطين بالموهبة التى منحها الرب اياها. وقالوا له وهم فرحون "يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك". فقال لهم "لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم. بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم قد كُتبت فى السموات" (لو ١٠: ١٧، ٢٠).

✠ ✠ ✠

ولأجل هذا قال أحد الأدباء :

"إذا منحك الله موهبة، اطلب منه أن يهبك تواضعاً ليحميها. وإلا فليأخذها منك" .

وذلك حتى لا يرتفع قلبك بسبب الموهبة، فتسقط ...

حقاً إن المتواضعين فقط هم الذين يأتمنهم الرب على مواهبه. كما قيل فى الكتاب "أما

المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع٤: ٦) (أم٣: ٣٤).

✠ ✠ ✠

لهذا اختار الرب أكثر العذراوات اتضاعاً لكى يتجسد منها. وتستطيع بتواضعها أن تحتمل هذه الكرامة العظيمة .

هذه التى قالت لها القديسة اليصابات "من أين لى هذا، أن تأتى أم ربى إلى" (لو١: ٤٣). ومع أنها أم الرب، إلا أنها قالت للملاك المبشر لها "هوذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولك" (لو١: ٣٨). حقاً إن القدير "نظر إلى اتضاع أمته" (لو١: ٤٨).

وهكذا باتضاعها احتملت حلول الروح عليها وعمله فيها، واحتملت أن تحوى جمر اللاهوت داخلها "واحتملت الرؤى وظهور الملائكة وكل المعجزات التى صاحبت ميلاد الرب منها. ولم تتحدث كثيراً عن كل تلك الأمجاد. بل قيل عنها إنها كانت "تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها" (لو٢: ٥١).

✠ ✠ ✠

وهكذا تلاميذ الرب، إختارهم من بين فئات متواضعة:

فقيل "إختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء. واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود، ليبطل الموجود. لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه" (١كو١: ٢٧-٢٩).

واختار موسى "الأغلف الشفتين" (خر٦: ٣٠)، العارف بضعفه، الذى قال للرب - حينما دعاه - "لست أنا صاحب كلام، منذ أمس ولا أول من أمس، ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان" (خر٤: ١٠). هذا العاجز عن الكلام، دعاه لكى يكون كليم الله، وصاحب المعجزات!

التجارب والمواهب :

الذين منحهم الرب مواهب، سمح لهم بالتجارب لتحميهم من الكبرياء .

★لنأخذ بولس الرسول كمثال :

كان صاحب رؤى كثيرة. رأى الرب حينما عاتبه الرب ودعاه وهو فى طريق دمشق (أع٩). وظهر له الرب أيضاً فى كورنثوس فى رؤيا بالليل وقال له "لا تخف، بل تكلم ولا تسكت. لأنى أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك. لأن لى شعباً كثيراً فى هذه المدينة"

(أع١٨: ٩، ١٠). وظهر له فى الهيكل فى أورشليم، وقال له "اذهب، فإنى سأرسلك بعيداً إلى الأمم" (أع٢٢: ١٧، ٢١). وظهر له الرب مرة أخرى وقال له "ثق يا بولس، لأنك كما شهدت بما لى فى أورشليم، هكذا ينبغى أن تشهد فى رومية أيضاً" (أع٢٣: ١١).

بولس هذا الذى تعب فى الخدمة أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠)، والذى كان يتكلم بألسنة أكثر من الجميع (١كو١٤: ١٨)، والذى كان رجل استعلانات، يقول أخيراً، هذا الذى اختطف إلى السماء الثالثة (٢كو١٢: ٢): "ولئلا ارتفع بفرط الإستعلانات، أعطيت شوكة فى الجسد، ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا ارتفع.." (٢كو١٢: ٧).

✠ ✠ ✠

سمح الله للشيطان أن يضرب بولس بشوكة فى الجسد ، لئلا يرتفع .

واستمرت هذه الشوكة معه فى جسده، تُشعره بضعفه، حتى لا يرتفع قلبه من فرط ما وصل إليه من مجد روحى. على الرغم من أنه تضرع إلى الله ثلاث مرات ليشفيه. ولكن الرب قال له "تكفيك نعمتى" (٢كو١٢: ٨، ٩). لأن قوة الله تظهر كاملة فى ضعف هذا الرسول...

✠ ✠ ✠

★مثال آخر ، هو داود النبى :

داود صاحب المزمار والقيثار والعود ، الذى له مواهب فى الشعر وفى الموسيقى. وهو رجل حرب "جبار بأس" (١صم١٦: ١٨). هو الذى هزم جليات (١صم١٧). وقبل ذلك قتل الدب والأسد فى شجاعة، ولم يخف منهما (١صم١٧: ٣٥، ٣٦). داود هذا، بما له من موهبة النبوة. وقد صار مسيحاً للرب، بعد أن مسحه صموئيل النبى، وحل عليه روح الرب (١صم١٦: ١٣).

داود هذا بكل مواهبه، سمح الله أن يقوم ضده شاول الملك بكل عنف، ويذل حياته.

ويطارده من برية إلى برية، ويدبر المؤامرات لقتله.. وعاش ذليلاً أمام شاول، حتى قال عن نفسه إنه برغوث، وكلب ميت (١صم٢٤: ١٤).

✠ ✠ ✠

بل سمح الله أن يسقط داود ويخطئ. فكانت سقطته هذه سبب ذلّ لنفسه من الداخل، وحياة غارقة فى البكاء والدموع، حتى قال "تعبت فى تنهدى. فى كل ليلة أعوّم سريرى. بدموعى أبل فراشى" (مز٦: ٦). وقال للرب:

"خير لى يارب أنك أذللتنى، لكى أتعلم فرائضك" (مز ١١٩: ٧١) .

نعم، كان خيراً له ذلك الذلّ الذى عاش فيه، الذى يقيم توازناً فى داخله مع مجد النبوة، ورفاهية الملك، وموسيقى الناى والعود..!

إنه درس روحى عميق، نتعلمه من هذا المزمور أن الله قد يسمح بالذلّ لأحد أبنائه من الأنبياء، لأن ذلك خير له، لكى يتضع قلبه، ولا تحوله الأمجاد المحيطة به إلى الكبرياء.

✠ ✠ ✠

★مثال ثالث هو أيوب الصديق .

سمح له الرب بذلّ من نوع الآخر، فيه الفقر والمرض وتحقير أصدقائه له.. هذا الذى شهد له الله مرتين إنه كامل ومستقيم (أى١: ٨) (أى٢: ٣). وأنه "ليس مثله فى الأرض، يتقى الله ويحيد عن الشر" .

وإلى جوار بره، كانت تحيط به العظمة من كل جانب: كان "اعظم كل بنى المشرق" (أى١: ٣). وكان محترماً جداً من الناس. "رآه الغلمان فأختبأوا، والشيوخ قاموا ووقفوا" "الأذن سمعت فطوبته، والعين رأت فشهدت له" (أى٢٩: ٨، ١١). "أنقذ المسكين والمستغيث واليتيم ولا معين له" "كان أباً للفقراء، وعيوناً للعمى، وأرجلاً للعرج" (أى٢٩: ١٢- ١٦).

✠ ✠ ✠

ولهذا كله سمح الله بتجربة لأيوب. كانت شديدة. ولكنها كانت لازمة له لتنقذه، حتى لا يكون باراً فى عينى نفسه" (أى٣٢: ١).

إن الله يهمه جداً سلامة أولاده من الكبرياء المهلكة للنفس، لذلك فهو بالتجارب والضيقات، أو بالآلام والأمراض، يحمى نفوسهم حتى لا يضرهم المجد المحيط بهم، أو شعورهم بحياة البر التى يحيونها.

✠ ✠ ✠

★مثال رابع هو يعقوب أبو الآباء :

هذا الذى أحبه الله قبل أن يولد (رو٩: ١١-١٣). والذى قيل له فى بركته "كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك" "ليُستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل" (تك٢٧: ٢٩). يعقوب هذا الذى ظهر له الله فى أعلى سلم منصوبة بين السماء والأرض والملائكة

صاعدة ونازلة عليها. وباركه الله وقال له: "ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب.." (تك٢٨: ١٢- ١٥).

يعقوب هذا الذى "جاهد مع الله والناس وقدر" (تك٣٢: ٢٨)، ومنحه الله البركة، ومنحه اسماً جديداً. وقد نظر الله وجهاً لوجه (تك٣٢: ٣٠)...

يعقوب هذا – لكى يشعر بضعفه فلا يتكبر – "ضربه الله على حق فخذه"، وخرج من مصارعته مع الله "وهو يخمع على فخذه" (تك٣٢: ٣٠).

✠ ✠ ✠

ولعلك تسأل : لماذا يارب تضرب يعقوب على فخذه، فيعيش كمعوق كل أيام حياته؟ وتكون الإجابة: لأن ذلك نافع له، وأفضل من أن تضربه الكبرياء فيهلك..

ونفس الوضع بالنسبة إلى بولس الرسول: أعطى شوكة فى الجسد، "لكى لا يرتفع من فرط الإعلانات". وكذلك أيوب الصديق: ضُرب بقرح ردئ مَن باطن قدمه إلى هامته" لكى لا يكون باراً فى عينى نفسه" ...

✠ ✠ ✠

إن الله يهمه بالدرجة الأولى مصير أبنائه فى الأبدية. فإن كانت الضربات التى تصيبهم على الأرض نافعة لأبديتهم، إذ توصلهم إلى انسحاق القلب، فلا مانع منها. وفى هذا يقول القديس بولس الرسول:

"لذلك أسر بالضعفات والشتائم والضرورات والإضطهادات والضيقات لأجل المسيح. لأنى حينما أنا ضعيف، فحينئذ أنا قوى" (٢كو١٢: ١٠).

الضعفات والضيقات تمنع الكبرياء، وتوصل إلى تواضع القلب. وأيضاً فى هذه الضيقات – إذ يشعر الإنسان بضعفه – يلجأ إلى الله فيأخذ منه قوة. ولهذا قال القديس بولس الرسول:

"أفتخر بالحرى فى ضعفاتى، لكى تحل علىّ قوة المسيح" (٢كو١٢: ٩) .

الباب الرابع :

الذات سبب الكبرياء

- الذات تريد أن تكبر .
- الغـرور .
- تحقيـق الذات !
- السيطرة والطمع .
- كلمة أنـا ، ولا أنـا .
- كيف تتخلص من الذات ؟

الذات سبب الكبرياء

تريد أن تكبر :

يقع فى الكبرياء الإنسان الذى يهتم بذاته بطريقة خاطئة، أو أنه يحب ذاته بطريقة خاطئة. فهو يكبر فى عينى نفسه. ويحب أن يكبر فى أعين الناس. بل يحب أيضاً أن يكبر أكثر من غيره.

★مثال للذى يكبر فى عينى نفسه .

كالشخص الذى يطيل النظر فى المرآة، يتأمل محاسن نفسه ..!

أو كالذين أرادوا فى القديم أن يبنوا برج بابل، وقالوا بعضهم لبعض: "هلمّ نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه فى السماء، ونصنع لأنفسنا إسماً" (تك١١: ٤).. صدقونى يا أخوتى ربما كان هؤلاء أقل كبرياء فى أعين أنفسهم من الذين قالوا: نصعد إلى القمر، نرفع عليه علم بلادنا. نصعد أيضاً إلى المريخ. نمهد إلى سكنى الكواكب، أو ننظم رحلات إليها.

كلها أمثلة للعقل البشرى، حينما يكبر فى عينىّ نفسه، ويتصور تصورات أو تخيلات تليق بهذا اللون من الكبر.

☩ ☩ ☩

★أما الذى يريد أن يكبر فى أعين الناس، وأن يمجدوه :

فهو مثل هيرودس الملك، الذى وهو يخاطب الناس من على عرشه، سرّ أن يمجده الناس قائلين "هذا صوت إله، لا صوت إنسان" (أع١٢: ٢٢). ففى الحال ضربه ملاك

الرب بسبب كبريائه، فمات وأكله الدود.

ومثال آخر هو هامان - فى عهد أحشويرش الملك - الذى اضطهد مردخاى لأنه لم يسجد له مثل سائر الناس الذين يمجدونه (إس٣: ٣-٦).

✠ ✠ ✠

★على أن البعض لا يكفيه أن يكبر ، بل يريد أن يكبر أكثر من غيره .

مثال ذلك أبشالوم بن داود الملك، الذى أراد أن يصير أكبر من أبيه، وأن يجلس على العرش بدلاً منه. ودخل فى حرب ضده (٢صم١٥- ١٨).

★والذى يريد أن يكون أكبر من غيره، يقع فى حب الرئاسة.

وذلك ليكون أعلى من غيره قدراً. وقد حورب الآباء الرسل بهذا الأمر: من يكون الأول فيهم. فقال لهم السيد الرب "أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً" (مت٢٠: ٢٥- ٢٧).

✠ ✠ ✠

★وطبيعى أن الذى يحب أن يكون الأكبر، يكره أن يكون هناك من هو أفضل منه. ونتيجة لهذا تدب فيه روح الغيرة والحسد:

فلما رأى شاول الملك أن الفتى داود قد نال مديح أكثر منه، بعد أن انتصر على جليات الجبار، تملكته الغيرة والحسد، فأراد قتل داود أكثر من مرة، وطارده من مكان إلى آخر، وتغير قلبه من جهته (١صم١٨: ٧-١٥).

أيضاً قايين قام على أخيه هابيل وقتله. لأن الرب قبل ذبيحة هابيل ولم يقبل تقدمته هو، فتملكته الغيرة والحسد التى انتهت به إلى القتل.

كذلك أخوة يوسف الصديق: لما رأوا أنه قد صار أفضل منهم، بالأحلام التى حكاها لهم، وبالقميص الملون الذى منحه أبوه إياه. لذلك حسدوه، وازدادوا أيضاً بغضاً له. واحتالوا عليه ليميتوه. وأخيراً باعوه كعبد (تك٣٧).

نفس الغيرة أيضاً دبت بين أختين شقيقتين هما ليئة وراحيل، من أجل الأفضلية فى انجاب البنين، وفى كسب محبة الزوج (تك٢٩: ٣١-٣٥). حتى "قالت راحيل: مصارعات الله قد صارعت أختى" (تك٣٠: ٨).

✠ ✠ ✠

★عجيب أن يشعر إنسان بكبره، لأسباب تحيط بذاته من الخارج .

مثال ذلك سليمان الملك، الذى شعر بذاته لأسباب كلها خارجة عنه، مثل قوله "بنيت لنفسى بيوتاً. غرست لنفسى كروماً. عملت لنفسى جنات وفراديس... عملت لنفسى برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر. قنيت لنفسى عبيداً وجوارى.. وكانت لى أيضاً قنية بقر وغنم أكثر من جميع الذين كانوا فى أورشليم قبلى..". وعجيب أنه قال بعد كل تلك الأسباب الخارجية: "فعظمت وازددت أكثر من جميع الذين كانوا قبلى فى أورشليم" (جا٢: ٤-٩).

بينما المفروض أن تكون أسباب العظمة من الداخل، كقول المزمور :

"كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز٤٥: ١٣) .

على الرغم من أنها "مشتملة بأطراف موشاة بالذهب، ومزينة بأنواع كثيرة". ومع ذلك ما أكثر الذين يكبرون فى أعين أنفسهم أو فى أعين الناس بأسباب خارج الذات مثل السلطة والغنى والمركز وما أشبه.

✠ ✠ ✠

★على أن البعض قد يكبر بسبب ذاته: كأن يكون حكيماً فى عينى نفسه، أو باراً فى عينى نفسه.

الحكيم فى عينى نفسه، يعتد برأيه وبفكره. ويظن باستمرار أنه على صواب، وأن الحق فى جانبه. بينما يقول الكتاب: "على فهمك لا تعتمد" "ولا تكن حكيماً فى عينى نفسك" (أم٣: ٥، ٧).

والحكيم فى عينى نفسه، لا يرى أنه محتاج إلى مشورة أو أى نصح. لأنه مكتفٍ بذاته من جهة الفكر، وواثق بمعرفته. بل قد يصل فى ذلك إلى مقاومة الرأى الآخر، فى عناد وتشبث برأيه.

أما البار فى عينى نفسه، فهو الذى يشعر أنه لا يخطئ أبداً. ولذلك فهو لا يقبل عتاباً. ولا يكون مستعداً لتغيير مسلكه .

الغـــرور :

والبار فى عينى نفسه، والحكيم فى عينى نفسه، كلاهما يصيبهما الغرور .

والمغرور له ثقة زائدة فى نفسه. يظن فى نفسه أكثر من حقيقتها بكثير. ويعتد بنفسه.

وربما تكون له مواهب أو قدرات تتعبه، وتكون مصدراً لغروره. أو قد يظن أن لـه مثل هذه المواهب والقدرات.

المغرور بذاته يعتمد على نفسه . أما المتواضع فيعتمد على الله .

الواثق بنفسه يكون كثير العمل. أما المتواضع فيكون كثير الصلاة .

المغرور إذا نجح ، يفتخر بعقليته وجهده وعمله. أما المتواضع فإذا نجح، يشكر الله – لأنه لم ينجح إلا بمعونة منه.

✠ ✠ ✠

وهذا المغرور قد لا يعمل شيئاً. ولكنه فى كثير من الأحيان يسبح فـى أحـلام اليقظـة، ويتخيل فيها أنه يقوم بعظائم الأمور!!

وهو قد يقحم نفسه فى أمور ربما تكون فوق مستواه، ظاناً أنـه يستطيع أن يبدى فيها رأياً، أو يعمل فيها عملاً. وغالباً ما يفشل...

وإن فشل أو صدّه الناس، قد ينطوى . يتأمل فى وحدته محاسن نفسه ومواهبهـا، بعيداً عن مجتمع لا يقدّرها ولا ينتفع بها!!

تحقيق الذات :

★الذى يريد أن يكبر ذاته يعمل على تحقيق ذاته فى كل شئ .

ويقصد بعبارة (تحقيق ذاته) أنه يشعر بوجود هذه الذات وحفظ مكانتها فـى كـل عمـل تعمله، حتى فى الكنيسة، وفى الخدمة، يريـد أن هـذه الـذات تظهـر وتحقـق وجودهـا. ومـا أكثر ما تتحطم الخدمة بظهـور الـذات ومحاولتهـا أن تبـدو وأن تسيطر. ولا مـانع مـن أن تصطدم بغيرها، ويسود الانقسام والصراع فى الخدمة بسبب الذات.

✠ ✠ ✠

حتى فى التعليم، قد تحاول الذات أن تثبت وجودها .

وربما فى سبيل ذلك، يوجد المنهج الخاص والتعليم الخـاص، والخـروج عـن المفهـوم العام لتقديم مفهوم خاص تتميز به الذات وتظهر. وقد تحاول أن تحطم التعليم القديم الثابت فى الأذهان، لتقدم تعليماً جديداً.. وهكذا تظهر البدعة. وتدافع الذات عنها لتثبيتها.

وفى الخدمة، ما أسهل أن تسعى الـذات وراء المتكآت الأولـى، والمنافسـة عليهـا. فـلا تكون الذات باذلة فى مجال الخدمة، بل تكون الخدمة هى الوسيلة التـى تظهـر بهـا الـذات،

وتنال بها تقديراً واحتراماً.

✠ ✠ ✠

★ومن أخطر ما تقع فيه الذات : الاستقلال عن الله .

وكأن الذات تبحث عن ملكوتها هي، وليس عن ملكوت الله. وتهتم بتنفيذ مشيئتها الخاصة، لا مشيئة الله، وتحقيق رغباتها هي، لا وصايا الله. وبهذا تبعد كل البعد عن حياة الطاعة والتسليم.

ومن الأمثلة البارزة في هذا المجال يونان النبي، الذي هرب من تنفيذ أمر الله في الذهاب إلى نينوى والمناداة عليها بالهلاك. لأنه كان يدرك أنها إن تابت بمناداته، سيغفر الله لها ولا تهلك.. فتسقط كلمته في المناداة عليها. وقد حسب ذلك ضد كرامته!!

لذلك عندما رحم الله أهم نينوى، غمّ ذلك يونان غماً شديداً فاغتاظ، وقال: الآن يارب خذ نفسي، لأن موتي خير من حياتي (يون٤: ١-٣).

✠ ✠ ✠

★ومن مظاهر استقلال النفس عن الله ، رغبتها في أن تحيا في حرية مطلقة، ولو أدى الأمر أن تعصى فيها كل وصايا الله!!

وهذا ما وقع فيه الكثيرون، وقادتهم الحرية الخاطئة إلى التسيب والانحلال، وإلى الإباحية والشذوذ، والمطالبة لأنفسهم بحقوق في إباحيتهم وشذوذهم. ومن أمثلة ذلك أيضاً الوجوديون، الذين رأوا أن وجودهم لا يتحقق في ظل وصايا الله. فنادوا بأنه من الخير أن الله لا يوجد، لكي يوجدوا هم، أي لكي تتحقق لهم الحرية الكاملة في التمتع باللذة المنحرفة مستقلين عن الله..!

✠ ✠ ✠

والذي من أجل تحقيق ذاته، يأخذ هذا الموقف من الله، طبيعي جداً أن يأخذ نفس الموقف من أب الاعتراف .

فهو لا يريد أن يكون أب الاعتراف عائقاً لحريته. لذلك لا يطيعه إلا فيما يتفق مع غرضه هو. وإن نصحه أب الاعتراف بتدبير يراه ضد فكره واتجاهه، يجادله ولو إلى حد عدم الاستجابة لإرشاده. وقد يلجأ إلى عدم استشارته مطلقاً في أي أمر يشعر بأنه سيرفضه.

وبهذا يريد أن يكون اب اعترافه مجرد جهاز تنفيذي لرغباته، يعطيها شرعية كنسية بالموافقة عليها، أن يسلك حسب هواه...

السيطرة :

★والإنسان الذى يحب ذاته بمثل هذه المحبة الخاطئة، تظهر هذه الذات مسيطرة فى معاملاته .

فهو يريد أن يكون أهم من غيره. ويريد احتراماً لذاته من كل من يتعامل معه. ويكون حساساً جداً لكرامته وسمعته ونفوذ كلمته!

وبسبب ذلك ما أسهل أن يصطدم بغيره. وتقوده الذات إلى خصومات وربما إلى معارك. ويقوده التنافس إلى الحسد.

وتظهر (الأنا) Ego واضحة فى تعامله ، تقوده إلى الأنانية التى تسبب له كراهية الناس وتجنبهم للاختلاط به.

ويميل إلى العظمة وتشامخ الروح. ويود أن تكون هذه العظمة له وحده، وتزول من غيره لتستقر عنده. ويستاء من كل مديح يوجه إلى غيره. كما لو كان إعجاب الناس وقفاً عليه وحده!

الطمع :

والمهتم بذاته يقع أيضاً فى الطمع .

وينطبق عليه قول الكتاب "كل الأنهار تجرى إلى البحر، والبحر ليس بملآن" (جا١: ٧). ذاته لا تحاول أن تكتفى فى كل المجالات. لا تكتفى غنى ولا عظمة ولا مديحاً.

أليس أن الشيطان لم يكتف بما كان فيه من مجد، فأراد أن يرتفع فوق كل كواكب الله، بل أن يصير مثل العلىّ! (أش١٤: ١٣، ١٤).

وفى طمع الإنسان المحب لذاته، قد لا يسمح بأن يعطى فرصة لغيره أن ينال شيئاً إلى جواره. كما قيل عن رعاة لوط أنهم اختصموا مع رعاة ابراهيم، لما كثر الخير فتنافسوا على المراعى. وقيلت تلك العبارة المؤلمة "ولم تحتملها الأرض أن يسكنا معاً" (تك١٣: ٦).

والذى تقوده الذات إلى الطمع، يصعب عليه العطاء .

فيحب الأخذ أكثر من العطاء، بعكس وصية الرب (أع٢٠: ٣٥).

من أجل تمركزه حول ذاته، يصعب عليه دفع العشور والبكور، ويصبح العطاء كأنه اقتطاع من ذاته. وفى قصة الغنى ولعازر (لو١٦) كان لعازر يشتهى الفتات الساقط من مائدة الغنى، وذلك لا يعطيه.

وبالتالى فإن المحب لذاته - إذا أعطى - يصعب عليه أن يعطى فى الخفاء. لأن ذلك لا يمجد ذاته فى أعين الناس .

وإن أعطى ، يكون عطاؤه كله خارج ذاته ، بينما أعظم العطاء هو فى بذل الذات لأجل الغير حسب قول الرب (يو١٥: ١٢).

✠ ✠ ✠

والمحب لذاته يقع فى الافتخار وفى تبرير الذات .

فهو يكثر الحديث عن نفسه وفضائلها . وبلاشك يتحدث عن أنصاف الحقائق. لأن النصف الآخر من الحقيقة - وهو ضعفات ونقائص تلك النفس - لا يذكره فى حديثه .

كلمة أنا :

كلمة (أنا) Ego والكبرياء يسيران معاً فى طريق واحد منحرف، ويقعان معاً فى هاوية واحدة، بعيداً عن محبة الله والناس .

إنها كلمة (أنا) فى سعيها إلى الظهور، وفى طلبها للكرامة، ولمزيد من الحقوق، سواء على المستوى الدنيوى، أو المستوى الدينى.

✠ ✠ ✠

ونقصد بكلمة (أنا) كل ما يتعلق بها أو ينتسب إليها ..

كمن يقول : عائلتى، وقريتى، وفريقى، وأهلى، وعشيرتى،.. إلخ

كلها تحمل معنى (الأنا) فى الانتماء إليها، وفى الافتخار بها، وفى التعصب لها. على مستوى الجماعة، كما على مستوى الفرد.

(الأنا) تريد كل شئ لها. وعلى الأقل تريد أفضل شئ لها..!

✠ ✠ ✠

وللأسف تبدو كمرض ينشأ منذ الطفولة المبكرة!!

فعلى الرغم من وصف الأطفال بأنهم ملائكة، إلا أن (الأنا) تسود على غالبيتهم. فالطفل من صغره يتمسك بمحبة الذات التى تقوده إلى الغيرة وإلى الأنانية. فهو قد

يتضايق إن أحبت أمه أو دلّلت طفلاً غيره. لأنه يريد كل الحب وكل التدليل له وحده. وإن أنجب أبواه طفلاً بعده، قد يعتبره منافساً له في اهتمام الوالدين به. فهو يريد كل الاهتمام له! وإن رأى طفلاً آخر يلعب بلعبة جميلة، ربما يحاول أن يأخذها منه، أو يبكي بسبب ذلك.. إنها الذات ومشاكلها...

✠ ✠ ✠

وبسبب ذلك فإن أسرة الطفل تحاول أن تتملقه أو تجامله، لتخفف من ضغط الذات عليه.

وتقول له: أنت طفل جميل حلو! أنت أحلى ولد. لا يوجد أبداً مثلك.. وتظل تعطيه من أصناف المديح، بل ومن الهدايا والعطايا، لكي تشبع فيه (تحقيق الذات)، وتخفف عنه حروبهاه ومشاكلها! أو تحاول أن تقنعه بالرضى على غيره من الأطفال. أو تعطيه ليعطيهم، فيكون العطاء عن طريقه، فتشبع ذاته وترضى..!

✠ ✠ ✠

محبة الذات هذه تتبع الطفل في نموه. وتكبر عنده حينما يكبر ويصير شاباً أو رجلاً. وتصير مصدراً لألوان من الكبرياء عنده .

والأمر يحتاج إلى حكمة كبيرة في أساليب التربية، لإنقاذ الطفل في أطوار نموه من كبرياء الذات وأنانيتها. وتفهيمه بأنه يمكن أن يكبر في الفضيلة، وفي النمو الروحي.. إلى أن توصله إلى تفضيل التواضع حينما يكبر في السن.. وليس هذا بالأمر السهل، ولكنه يحتاج إلى خبرة في التربية، ودراية بأساليب الإرشاد الروحي .

أما الذي في نموه في السن، يستمر في اشباع الذات بالاستحواذ على كل شئ، فهو لا يزال يحتفظ ببعض أمراض الطفولة نفسياً .

✠ ✠ ✠

وتبقى عنده مشكلة الذات: ماذا أكون؟ ومتى أكون؟ وكيف أكون؟ وكيف تكبر ذاتي؟ وكيف تفوق غيرها؟..

وتتحول ذاته إلى صنم يتعبد له!! بل قد تتبعه عبادة الذات في المجال الديني أيضاً!! فإن دخل في خدمة الكنيسة أو في خدمة المجتمع، ترى ذاته أيضاً أمامه: كيف يكبر في مجال الخدمة؟ كيف يكون له الرأى الواجب التنفيذ؟ ويكون هو الأول أو يكون هو الوحيد والباقون أتباعاً!! كل ذلك في مجال خدمة الرب!!

بل حتى فى الصلاة، تقف الذات أمامه! كيف يعجب الناس بصلاته؟! وكيف باستجابة صلاته، ينال إعجاب الناس!! إنها (الأنا) التى لا تصلى لأجل خير الناس ومنفعتهم، إنما تصير (الأنا) هدفاً، تكبر عن طريق الصلاة واستجابتها! وإن لم يستجب الله لمثل هذه الصلاة، يدخل فى عتاب مع الله: كيف تخلى عن أناه!!

✠ ✠ ✠

وربما فى المعاملات، يريد أن يفرض صنم هذه الأنا على غيره !

فكما أنه يحب هذه الأنا، ويتعبد لها ويمدحها، يريد أيضاً أن الكل يتعبدون لها ويمدحونها ويوافقونها على كل ما تريد!! ومن يعارض رغبات ذاته، يتخذه له عدواً ويقاومه! لأنه لم يُشبع هذه (الأنا) ما تهواه من كرامة ومن كبرياء!

وغالباً ما تكون (الأنا) سبب كل عداوة وانقسام واختلاف .

ويبقى أن الله ينجى الإنسان من خطورة هذه (الأنا) عليه وعلى غيره. وأيضاً على الإنسان أن يبحث عن وسائل تخلصه من أناه...

✠ ✠ ✠

وربما إنسان يستخدم هذه (الأنا) لاهوتياً أو عقائدياً، فيفتخر بما وصلت إليه ذاته من رفعة روحية.

فيقول: أنا تجددت. أنا تطهرت. أنا تقدست. أنا تبررت. أنا ضمنت الملكوت. أنا قد صار الشيطان تحت قدمىّ، أدوسه بكل قوة وأطرده.. وتكرر كلمة (أنا) فى مثل هذا الإفتخار ! وفيه كله، لا يذكر إطلاقاً عمل النعمة فيه! ولا يُذكر الضعف البشرى المعرض للسقوط. ولا يُذكر قول الكتاب عن نبى عظيم مثل إيليا: "إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا"! (يع٥: ١٧) مع أنه "صلّى صلاة أن لا تمطر السماء، فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر. ثم صلّى أيضاً، فأعطت السماء مطراً، وأخرجت الأرض ثمرها" (يع٥: ١٧، ١٨).

للأسف يستخدم الإنسان ما تعمله نعمة الله معه، لتفتخر بها ذاته، وليس لكى يمجد عمل النعمة فيه، مع الاعتراف بضعفه .

✠ ✠ ✠

أما الآباء الأنبياء والرسل والقديسون، فقد أستخدموا كلمة (أنا) فى مجال الاتضاع وانسحاق النفس...

ابراهيم أبو الآباء ، الذى باركه الله، وجعله بركة، وقال له: "وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض" (تك١٢: ٢، ٣)، نراه فى مجال كلمة (أنا) يقول "أنا تراب ورماد" (تك١٨: ٢٧).

وداود النبى، الذى كانت له دالة كبيرة عند الله، وقد صنع الله به نصراً عظيماً على جليات (١صم١٧)، نراه بعد ذلك لما عرضوا عليه مصاهرة الملك شاول، يقول لهم "هل هو مستخف فى أعينكم مصاهرة الملك، وأنا رجل مسكين وحقير" (١صم١٨: ٢٣).. وما أكثر اعترافه فى مزاميره بضعفه. كأن يقول "ارحمنى ياربى فإنى ضعيف" (مز٦: ٢).

ويوحنا المعمدان، مع أنه كان أعظم من ولدته النساء (مت١١: ١١)، يقول للرب "أنا المحتاج أن أعتمد منك" (مت٣: ١٤). ويقول للناس "يأتى بعدى من هو أقوى منى، الذى لست أنا مستحقاً أن أحل سيور حذائه" (مت٣: ١١) (لو٣: ١٦).

وبولس الرسول العظيم، الذى اختطف إلى السماء الثالثة (٢كو١٢: ٢)، قال عن ظهور السيد المسيح للرسل بعد القيامة "وآخر الكل، كأنه للسقط ظهر لى أنا، لأنى أصغر الرسل، أنا الذى لست أهلاً أن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (١كو١٥: ٨، ٩).

✠ ✠ ✠

هذا هو الاستخدام السليم لكلمة (أنا) بروح الانسحاق .

وبنفس الروح، يرسل القديس العظيم بولس الرسول إلى تلميذه تيموثاوس فيقول "أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً. ولكنى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان" (١تى١: ١٣). يقول ذلك عن نفسه فى رسالة إلى تلميذه، بينما العادة أن يفتخر المعلمون أمام تلاميذهم! ولكنه يستخم كلمة (أنا) بالطريقة السليمة.

ونلاحظ أنه عندما تحدث عن اختطافه إلى السماء الثالثة، لم يقل أنا، إنما قال "أعرف إنساناً فى المسيح يسوع" (٢كو١٢: ٢) فلم يستخدم كلمة (أنا) فى مجال التمجيد بينما استخدمها فى الإعتراف بأخطائه.

✠ ✠ ✠

فى تمجيد الذات، اهتم الآباء بتمجيدها فى السماء لا على الأرض .

فى مجد (الأنا) على الأرض، فى هذه الحياة الحاضرة القصيرة، كان يخيفهم قول الرب عن هؤلاء الذين ينالون مديحاً هنا من الناس: "الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم" (مت٦: ٢). وتكررت نفس العبارة فى (مت٦: ٥: ١٦). وبنفس المعنى قال أبونا ابراهيم لغنى لعازر: "يا ابنى، اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك" (لو١٦: ٢٥).

أما الذين "أجرهم عظيم فى السماء"، فهم أولئك الذين أخفوا كلمة (أنا)، وعملوا الفضيلة فى الخفاء، أمام أبيهم السماوى الذى يرى فى الخفاء، وسيجازيهم علانية (مت٦). وأيضاً أولئك الذين استخدموا عبارة (لا أنا) وما يشابهها .

لا أنا :

مثال ذلك القديس بولس الرسول الذى قال عن خدمته الناجحة: "ولكن بنعمة الله، أنا ما أنا. ونعمته المعطاة لى لم تكن باطلة. بل أنا تعبت أكثر من جميعهم. ولكن لا أنا بل نعمة الله التى معى" (١كو١٥: ١٠). وهنا نركز على عبارة:

"لا أنا، بل نعمة الله التى معى" .

ويكرر بولس الرسول نفس المعنى، فيقول "مع المسيح صُلبت. فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فىّ" (غل٢: ٢٠). لا أنا الذى يعمل، بل المسيح الذى فىّ يعمل كل شئ. أما فقد صُلبت معه. لقد صلبت كلمة (أنا) فما عادت تظهر .

✠ ✠ ✠

وهكذا كل الخدام، لا تريد أن (الأنا) تنال مجداً، بل يقولون:

"ليس لنا يارب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعطِ مجداً" (مز١١٥: ١).

نعم، فى مجال التمجيد يقول كل منا: لا انا، ليس لنا .

وهذا هو التدبير الذى سار عليه القديس يوحنا المعمدان. فكان يرفض كل تمجيد موجه إليه، إلى "الأنا" ويحوله إلى السيد المسيح قائلاً عبارته الخالدة :

"ينبغى أن ذاك يزيد، وأنى أنا أنقص" (يو٣: ٣٠).

ما أكثر ترديد المعمدان لعبارة لا أنا، أو لست أنا...

أما أنا فمجرد "صديق للعريس، يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذن فرحى هذا قد كمل" (يو٣: ٢٩).

✠ ✠ ✠

وعبارة (لا أنا) نقولها ليس فقط من جهة علاقتنا بالله، بل أيضاً من جهة علاقتنا ببعضنا البعض...

فمن جهة الكرامة، يقول كل منا: لا أنا، عملاً بوصية الرسول: "مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة" (رو١٢: ١٠).

ومن جهة الرئاسة يقول أيضاً كل منا لا أنا، عملاً بوصية الرب الذى قال: "من أراد أن يكون فيكم عظيماً، فليكن لكم خادماً. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبداً" (مت٢٠: ٢٦، ٢٧).

✠ ✠ ✠

وفى عبارة (لا أنا) نتبع وصية الرب فى المتكأ الأخير .

نترك المتكآت الأولى للكتبة والفريسيين الذين يشتهونها (مت٢٣: ٦). وإن عرضت علينا يقول كل منا: لا أنا. بل أخى أفضل منى وأولى. وهكذا نحيا حياة الاتضاع ...

كيف نتخلص من الذات (من الأنا)

يمكننا أن نتخلص من سيطرة الذات بالأمور الآتية :

١ - قهر الذات :

الصوم والعفة يدخلان فى قهر الذات، من جهة ضبط طلبات الجسد وشهواته. وهناك قهر آخر للذات من جهة شهوات النفس.

فقد تشهتى النفس حب الظهور، وأن تعلن عن ذاتها وتسعى وراء العظمة. وفى هذا كله ينبغى أن نقاومها. وسعيد هو الإنسان الذى يراقب نفسه ويمنعها كلما تشرد وراء التنعمات العالمية. ويقنعها بأن التنعم بالله أفضل.

إن مالت نفسك أو مال جسدك إلى متع هذا العالم، إمنعهما بشدة: لا قسوة عليهما، إنما ضماناً لأبديتك. لأن الذى يدلّل نفسه هنا يهلكها...

✠ ✠ ✠

والذى يتراخى فى ضبط ذاته، تقوى ذاته عليه، وتتمرد على سلوكه الروحى. بعكس الذى يدرب ذاته ويروضها فى دروب الرب.

إن الوسيلة التى تبلى بها ذاتك، هى أن تقهر ذاتك وتغلبها. لأنك بقهر الذات وتغلبك عليها، تصل إلى المجد الحقيقى للذات، الذى هو غير المظاهر الخارجية من العظمة واللذة والشهرة.. كل هذه الأمور البرانية. بينما ينشد المرتل قائلاً فى المزمور "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز ٤٥).

✠ ✠ ✠

ثق أن فى قهر الذات لذة روحية، لا تعادلها كل ملاذ الجسد.

لذلك إن أردت أن تبنى ذاتك، إقهرها من جهة تطلعاتها الخارجية، لكى تبنيها من الداخل. وحينئذ تجدها فى الله، وتجد الله فيها. وتبصرها صاعدة نحو الأبدية.

✠ ✠ ✠

ومن هنا كان الزهد من وسائل علاج الأنا .

وفى الزهد تبنى ذاتك - لا فى هذا العالم الحاضر - إنما فى العالم الآتى. وكما كان يوسف الصديق يخزن قمحاً للسنوات المقبلة، كذلك أنت إخزن ما ينفعك يوم تقف أمام الديان العادل. وكما خزنت العذارى الحكيمات زيتاً لحين مجئ العريس (مت٢٥). كذلك إخزن أنت زيتاً من عمل الروح القدس فيك...

اقهر ذاتك فى أمور العالم، لأن العالم يبيد وشهوته معه (ايو٢: ١٧).

✠ ✠ ✠

إن أرادت نفسك أن تنتصر على الغير، اقهرها. فالانتصار الحقيقى هو الانتصار على الذات.

أما الغير: فبدلاً من أن تنتصر عليهم، إكسبهم. لأن الكتاب يقول "رابح النفوس حكيم" (أم١١: ٣٠)... إن الانتصار على الناس سهل. ولكن كسب الناس هو الذى يحتاج إلى مجهود، إن كنت فيه تقهر ذاتك...

★نقطة أخرى فى علاج الأنا . وهى محبة الاخرين وخدمتهم .

محبة الآخرين وخدمتهم :

اخرج من حبس ذاتك داخل نفسك، إلى نطاق الآخرين .

يقول المزمور "إخرج من الحبس نفسى" (مز١٤٢: ٧). وأىّ حبس هو أقوى من أن تحبس نفسك داخل هذه الأنا؟! اخرج منها إذن، واندمج فى العالم الخارجى، مع الآخرين تحبهم وتخدمهم وتتعاون معهم.

قطعاً ، الشخص الذى يحب ذاته ، لا تهمه محبة الآخرين .

حاول إذن أن تخرج من التركيز على الاهتمام بنفسك، إلى الاهتمام بالآخرين. وثق أنك ستجد فى هذا لذة. وسوف يبادلونك حباً بحب، وتجد فى محبتهم ما يشبع نفسك.

✠ ✠ ✠

أنتقل من مجال الأخذ إلى مجال العطاء .

تدرب على أن تعطى الغير، تعطيهم خدمة، تعطيهم وقتاً، تعطيهم حباً وجهداً ومساعدة.. وإذا نما الإنسان فى تدريب العطاء، فإنه يعطى حتى نفسه. وهذا أسمى ما يصل إليه فى الإنطلاق خارج الذات...

وإن كان من أخطاء (الأنا) : البخل. فالعلاج هو العطاء .

حيث يتدرب الإنسان على اليد المفتوحة باستمرار، الممدودة بالعطاء إلى الغير، فى سعة، وفى رفق وحنان .. شكرهم سوف يشبعه. ومساعدتهم ستغير قلبه وتملؤه بمشاعر نبيلة، فيعطى أكثر، ويزداد فى خدمة الآخرين وفى إسعادهم.

✠ ✠ ✠

ويتعود أن يتعب لأجل الآخرين .

لا يهتم براحة نفسه، إنما براحة غيره. على عكس الأنانى الذى يجعل راحته على تعب الآخرين. وكلما ينمو الإنسان الروحى فى الاهتمام براحة الآخرين، قد يصل إلى حياة التكريس. لأن المكرس هو الذى يجعل حياته كلها لأجل الآخرين.

✠ ✠ ✠

★نقطة أخرى فى معالجة (الأنا)، هى التواضع .

التواضع :

الإنسان الذى يعيش فى محبة (الأنا)، يهمه أن تكبر ذاته باستمرار، وفى المقارنة يريدها أن تكون أعلى من غيره. وعلاج ذلك أن يضع أمامه قول الرسول:

"مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة" (رو١٢: ١٠).

وعن ذلك يقول الشيخ الروحانى "فى كل موضع تحلّ فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم". بل إن السيد الرب يقول "إن أراد أحد أن يكون أولاً، فليكن آخر الكل وخادماً للكل" (مر٩: ٣٥). وهكذا يمارس فضيلة (المتكأ الأخير) .

✠ ✠ ✠

والمقصود بالمتكأ الأخير، أن يكون الأخير لا من حيث المكان، بل من حيث المكانة.

فلا تحسب نفسك أهم الموجودين فى المكان الذى تحلّ فيه. ولا أن رأيك هو أهم

الآراء، وقرارك هو أهم القرارات، ومركزك هو الأهم!! ولا تفكر في أنه ينبغي أن تكـون أنت المطاع والمحترم بين الكل!

✠ ✠ ✠

لا تعطِ لنفسك كرامة وتفرضها على الآخرين .

إنما اترك الناس يكرمونك من أجل ما يرونه من تواضعك ووداعتك.. لا ترغم الناس على احترامك. فالاحترام شعور ينبع من داخل القلب. لا يُفرض بالإرغام، إنما بالتقدير الشخصي..

قد ترغم إنساناً على طاعتك، ولكن لا تستطيع أن ترغمه على احترامك.

✠ ✠ ✠

وفي معاملاتك مع الناس، كن نسيماً لا عاصفة .

كثيرون يحبون صفة العاصفة، لأنها تحمل معنى القوة. أما النسيم فيمثل الوداعة واللطف، اللذين ينبغي أن يتصف بهما من ينكر ذاته.

وفي تواضعك لا تفضل نفسك على غيرك. على أن يكون ذلك بعمق الحب وعمق الاتضاع، وبغير رياء..

✠ ✠ ✠

في اتضاعك ، قل أنا . من أنا؟ أنا مجرد تراب ورماد .

بل قبل أن أكون تراباً، كنت عدماً. خلق الله التراب قبلاً مني، ثم صنعني من هذا التراب... وهنا يختفي منك الاعتداد بالذات.

وفي اتضاعك أيضاً ، تصل إلى فضيلة (إدانة الذات) .

إدانة الذات :

الإنسان المصاب بالأنا، يكون باستمرار باراً في عيني نفسه .

إذا اخطأ لا يعتذر، لأنه يظن أنه على حق ولم يخطئ! وإذا حدث سوء تفاهم بينه وبين أحد من الناس، لا يذهب إليه ليصالحه. لأنه يأمل أن طلب الصلح لابد أن يأتي من الطرف الآخر، باعتبار أن الخطأ قد صدر من ذلك وليس منه!

بل حتى مع الله ، قد لا يعترف بأخطائه، لأن ذاته تقنعه أنه لم يخطئ!

✠ ✠ ✠

العلاج إذن أن يحاسب الإنسان نفسه بغير تحيز، ويدينها .

يدين ذاته في داخل نفسه. ويدينها أمام الله وأمام أب اعتراف. ويدينها أمام الغير حينما يلزم ذلك.

يدينها في اتضاع. ولا يجلب اللوم على غيرها، كما فعل أبونا آدم وأمنا حواء (تك٣). ولا يبرر ذاته من جهة أسباب الخطأ وظروفه. فكل دواعي التبرير سببها الذات وتمسكها ببرها الذاتي...

إن الإنسان الذي لا يعكف على تمجيد ذاته وتكبيرها، بل يهدف باستمرار إلى تنقية ذاته مما يشوبها من أخطاء ونقائص.. تراه يلوم نفسه ويدينها، لأنه بهذا يمكنه تقويمها وتصحيح مسارها.

☩ ☩ ☩

في إحدى المرات زار البابا ثاوفيلس منطقة القلالي، وسأل الأب المرشد في ذلك الجبل عن الفضائل التي أتقنوها، فأجابه:

"**صدقني يا أبي، لا يوجد أفضل من أن يأتي الإنسان بالملامة على نفسه في كل شئ**".

هذا هو الأسلوب الروحي الذي يسعى به الإنسان إلى تقويم ذاته: يأتي بالملامة على نفسه، وليس على غيره، وليس على الظروف المحيطة. وليس على الله!! ظاناً أن الله لم يقدم له المعونة اللازمة!

☩ ☩ ☩

ليتنا ندين أنفسنا ههنا، حتى ننجو من الدينونة في اليوم الأخير.

لأننا بإدانتنا لأنفسنا، نقترب إلى التوبة. وبالتوبة يغفر لنا الرب خطايانا. أما الذي لا يدين ذاته، بسبب اعتزازه بهذه الذات، فإنه يستمر في خطاياه، ولا يتغير إلى أفضل. ويكون تحت الدينونة. وصدق القديس الأنبا أنطونيوس حينما قال:

"**إن دنا أنفسنا ، رضى الديان عنا**"

"**إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله**" .

"**وإن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله**"

☩ ☩ ☩

كذلك فإن إدانتنا لأنفسنا، تساعدنا على المصالحة بيننا وبين الناس، يكفي أن يعتذر

الشخص ويقول لأخيه "لك حق. أنا قد أخطأت فى هذا الأمر"، لكى يضع بهذا حداً لغضب المُساء إليه، ويتم الصلح معه. أما إذا استمر المخطئ فى تبرير موقفه، فإن الخصم يشتد بالأكثر فى إدانته. وما أجمل قول القديس مكاريوس الكبير:

"احكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكموا عليك" .

✠ ✠ ✠

★نقطة أخرى تساعدك على علاج الذات وهى :

ضع أمامك مثال المسيح ::

إن كان الإنسان الأول قد انهزم فى حرب الذات، واشتهى أن يصير مثل الله (تك٣: ٥)، فإن السيد المسيح الذى بارك طبيعتنا فيه، صحح هذه النقطة. وكيف ذلك؟ يقول الرسول عنه إنه :

"أخلى ذاته، وأخذ شكل العبد، صائراً فى شبه الناس" (فى٢: ٧).

✠ ✠ ✠

وعاش على الأرض فقيراً، ليس له أين يسند رأسه (لو٩: ٥٨) بلا وظيفة رسمية فى المجتمع. وتنازل عن كرامته "ظُلم. أما هو فتذلل ولم يفتح فاه" "وأحصى مع أثمة" (أش٥٣: ٧، ١٢). ولم يدافع عن نفسه.

أنكر ذاته من أجلنا. ووضع ذاته لكى يرفعنا نحن. ووقف كمذنب لكى نتبرر نحن. ذاته لم يضعها أمامه، بل وضعنا نحن..

أليس هذا درساً لنا من هذا الذى عظمته لا تحد.. درساً لنا نحن المحاربين بالأنا، بينما نحن لا شئ.

✠ ✠ ✠

السيد المسيح أخلى ذاته من المجد الحقيقى .

أما أنت ، فتخلى ذاتك من كل مجد باطل .

إن إخلاء المسيح لذاته موضوع واسع، ليس الآن مجاله.. يمكنك أن تقرأ عنه مقالاً طويلاً فى كتابنا (تأملات فى الميلاد) من ص ٧ إلى ص ٢٨ .

✠ ✠ ✠

★نقطة أخرى فى علاج (الأنا) وهى :

تدريب الميل الثانى :

قال السيد الرب "من سخرك ميلاً، فاذهب معه إثنين. من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً" (مت٥: ٤٠، ٤١).

وبنفس الوضع تحدث الرب عن الخد الآخر، فقال "من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً" (مت٥: ٣٩).

وكأنه أراد أن يقول : كن مظلوماً لا ظالماً. وكن مصلوباً لا صالباً. لا تنتقم لنفسك. إن الذات تريد أن تأخذ حقها، وتأخذه بنفسها، وهنا على الأرض، وبسرعة على قدر الإمكان. أما تعليم الرب لنا فى إنكار الذات فهو: "لا تقاوموا الشر" (مت٥: ٣٩).

✠ ✠ ✠

لا تجعل ذاتك تتدخل ، لتنال حقوقك أو لتنتقم .

واذكر قول الكتاب "لى النقمة. أنا أجازى، يقول الرب" (رو١٢: ١٩). ومع أن النقمة للرب، لكن لا تطلبها أنت منه لنفسك. بل الكتاب يقول:

"المحبة لا تطلب ما لنفسها" (١كو١٣: ٥).

ولماذا لا تطلب ما لنفسها ؟

لأنها بعيدة عن الذات، بعيدة عن الأنا التى تطلب..

تدريب آخر فى التخلص من الذات، وهو قول الرسول :

"لأحيا لا أنا.. " (غل٢: ٢٠).

الباب الخامس :

المجد الباطل ومحبة المديح والكرامة

- البر الذاتى .
- محبة المديح - وأنواعها .
- خطايا تنتج عن محبة المديح .
- كيف تهرب من محبة المديح ؟
- إخفاء الفضائل .
- البعد عن الرئاسات .
- المتكأ الأخير .

الكبرياء تلد المجد الباطل

والبر الذاتي

المجد الباطل Vain Glory هو المجد المتعلق بأمور المادة والعالميات، وليس المجد الخاص بالروح ومركزها في الأبدية.

والمنشغل بالمجد الباطل يسره مديح الناس له، أو مديح نفسه له.

البر الذاتي :

وأخطر ما يتعب الإنسان روحياً، أن تمدحه نفسه من الداخل .

ويظن في نفسه أنه قد وصل، أو أن فيه شيئاً يستحق الإعجاب من الآخرين. حتى من غير أن يمدحه أحد من الخارج، تكبر نفسه في عينيه من الداخل. ويكون حكيماً في عيني نفسه" (أم٢٦: ٥) أو "باراً في عيني نفسه" (أي٣٢: ١)، وهذا ما يسمى بالبر الذاتي. وفيه "يرتئي الإنسان فوق ما ينبغي له أن يرتئي" (رو١٢: ٣).

✠ ✠ ✠

ومديح النفس قد تكون له أسباب دنيوية أو أسباب روحية:

فالأسباب الدنيوية هي أن تمدحك ذاتك من أجل مركز عالمي وصلت إليه، أو من أجل غنى أو جاه، أو جمال جسدي، أو شهرة، أو ذكاء، أو قدرات معينة في العمل أو في الترفيه عن الآخرين، أو في الحيلة، أو الدهاء، أو القدرة على قهر الآخرين، وما إلى ذلك من أسباب.

أما عن مدح النفس لأسباب روحية :

فكأن تمدحك نفسك بسبب صلواتك أو أصوامك أو مطانياتك، أو خدمتك الروحية للآخرين، أو قدرتك على التأمل، وفهم الكتاب وحفظه واستخدامه، أو بسبب توبتك أو نموك الروحى، أو بسبب بعض الفضائل التى تظن أنك قد وصلت إليها...

✠ ✠ ✠

وتزداد خطورة مديح النفس، إن ارتبطت بالمقارنة أيضاً .

فلا تظن فقط أنك بار، وإنما أكثر براً من الآخرين. أو تظن أن خدمتك أنجح من خدمة غيرك. وأن تأملاتك أعمق، ومستواك الروحى أعلى..! وبالتالى ترى باستمرار أن غيرك أقل منك...

✠ ✠ ✠

وتزداد خطورة إن أقترنت بإحتقار الآخرين أو الإقلال من شأنهم .

أو إدانة الناس، والحديث عن مستواهم الضعيف وفهمهم الضئيل، والمقارنة بين نجاحك وفشلهم.. وقد يصل الأمر إلى حد مواجهة الآخرين، وتوبيخهم على أعمالهم وأخطائهم. وربما تنسب إليهم ما ليس فيهم من الضعفات والنقائص والأخطاء. وتفرض عليهم مستواك، أو ما تظن أنك قد وصلت إليه من مستوى ومن فهم.

✠ ✠ ✠

أو أن تفرض رأيك على غيرك، موقناً أنه الرأى الوحيد السليم، بعكس ما يقوله الغير. وهكذا تكون "حكيماً فى عينى نفسك" (أم٣: ٧).

ويدفعك الإحساس بالحكمة والفهم، إلى التشبث برأيك أو موقفك مهما كان خاطئاً! وإلى الجدل والمناقشة حتى إلى درجة العناد.. ومقاطعة الآخرين لكى تتكلم أنت.. ومعارضة كل من لا يوافقك فهمه...

وربما فى كل هذا تفقد صداقة الناس ومودتهم، أو أنك تفقد الروح الإجتماعية، والتعاون مع الآخرين واحترام الغير...

✠ ✠ ✠

والإنسان الذى تمدحه نفسه، من الصعب أن يعترف بأخطائه.

ربما لأنه لا يجد لنفسه أخطاء يعترف بها! أو لأن الكبرياء الداخلية تدفعه إلى تبرير أعماله أياً كانت، أو التماس الأعذار لها...

هو لا يرى نفسه مخطئاً. ولا يقبل من غيره أن يراه مخطئاً.. وهكذا يكون "باراً فى

عينى نفسه" (أى٣٢: ١).

ومادام هو باراً فى نظرته إلى نفسه، فبأى شئ يعترف؟!

✠ ✠ ✠

الإعتراف هو أولاً إدانة النفس من الداخل. ثم إعلان ذلك .

والمتكبر لا يدين ذاته.. لا يرى أنه قد أخطأ. وإن وُجد خطأ، ينسبه إلى الظروف المحيطة به، أو يلقى التبعية فيه على غيره. أو يسمى أخطاءه بأسماء روحية، ويحاول أن يلبسها "ثياب الحملان" (مت٧: ١٥). ويضع وراءها نيات طيبة ومقاصد روحية، تجعلها تبدو على غير حقيقتها سليمة لا عيب فيها!

✠ ✠ ✠

وإن كان لا يعترف بخطئه، فبالتالى لا يعتذر لغيره .

فى كل خصومة بينه وبين أحد من الناس، يعتبر أن الطرف الآخر هو المخطئ. والطرف الآخر هو الذى يجب أن يعتذر، وهو الذى يجب أن يسعى إلى المصالحة!

ومادام لا يعترف فى داخله أنه قد أخطأ، فبالتالى لا يعترف بخطأ أمام الأب الكاهن، ولا يذهب لمصالحة الطرف الآخر قبل الذهاب إلى التناول من الأسرار المقدسة. لأنه "لا يتذكر أن لأخيه شيئاً عليه" (مت٥: ٢٣، ٢٤).

وإن حاول أحد أن يقنعه بأنه مخطئ، يدخل فى متاهة لا تنتهى من المناقشات وقلب الحقائق. ويجد أمامه ميزاناً خاصاً تقيّم به الأمور ويحكم عليها حسب مفهوم خاص غير مفهوم للآخرين!

✠ ✠ ✠

إن البار فى عينى نفسه ، يود أن يكون باراً أيضاً فى أعين الناس.

فهو إما أن يعلن عن هذا البر ويحكى عنه للآخرين، وإما أن يدافع بكل جهده عما يشين هذا البر من نظرات الناس إليه. وإما أن يأخذ مظهراً معيناً يقنع الناس ببره، مهما كانت داخلياته! وإما أن يحيط نفسه بأصدقاء ومريدين يتحدثون عنه بالصلاح كل حين. ويمتدحونه.. أو أن يحيط نفسه باستمرار بمن هم أقل منه سناً أو معرفة أو مركز أو درجة روحية، حتى يبدو الأكبر أمامهم فى كل وقت. ولا يعطى فرصة لأى نقد يوجه إليه. لأن كل المحيطين به يمجدونه ويمدحونه، وربما يستشيرونه فى كل شئ أو يتتلمذون عليه...

✠ ✠ ✠

أما المتواضع فهو يقارن نفسه باستمرار بمستويات أعلى منه .

وأمام هذه المستويات الأعلى، تصغر نفسه في عينيه، ويرى أنه لا شئ.. وهو يبحث باستمرار عما هو أكمل وأعلى، شاعراً أنه لم يصل بعد إلى المستوى المطلوب منه.. إنه يضع أمامه قول الرب "كونوا قديسين لأنى أنا قدوس" (١بط١: ١٦). وأيضاً قوله "كونوا أنتم أيضاً كاملين، كما أن أباكم الذى فى السماوات هو كامل" (مت٥: ٤٨).

والمستويات العليا التى ينظر إليها، قد تكون من الأمثلة الحية أمامه. أو يجدها فى تاريخ القديسين وفى شخصيات الكتاب المقدس. بل حتى فى مثاليات من العلمانيين الفاضلين.. وكما قال القديس بولس الرسول "أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض" (فى٣: ١٣، ١٤). وكلما امتد إلى قدام، ينظر إلى الكمال الموضوع أمامه، فيقول "أيها الأخوة، أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت" "ولكنى أسعى لعلى أدرك" (فى٣).

كان أحد الرهبان كلما حورب بالمجد الباطل بسبب جهاده الروحى، يقول لنفسه: "ألعلى قد بلغت إلى درجة الأنبا أنطونيوس أو الأنبا بولا؟!

✠ ✠ ✠

الإنسان المتواضع إذا حورب بالبر الذاتى، يتذكر خطاياه ..

يتذكر ماضيه السابق وكل ضعفاته وكل سقطاته وكل خطاياه. وحينئذ تخف عليه الحرب فلا يتكبر. إن القديس بولس الرسول الذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو١٥: ١٠)، والذى صعد إلى السماء الثالثة (٢كو١٢: ٢، ٤) كان يقول "أنا الذى لست مستحقاً أن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (١كو١٥: ٩). مع أن ذلك حدث فى ماضٍ قد انتهى وغفره له الله، ودخل بعده فى عهد جديد مع الرب "كإناء مختار يحمل اسمه أمام أمم وملوك" (أع٩: ١٥). ولكنه يذكّر نفسه بذلك الماضى فيحيا فى إتضاع..

وبالمثل كان داود النبى يقول "خطيتى أمامى فى كل حين" (مز ٥٠).

✠ ✠ ✠

إن أتتك أفكار البر الذاتى، اذكر نعمة الله العاملة معك .

تذكر أن كل خير فيك، لست أنت سببه أو مصدره. إنما هى نعمة الله التى عملت فيك، وقوة الله التى سندتك. وأنك بدون الله ما كنت تستطيع أن تفعل شيئاً (يو١٥: ٥). فلا يليق أن تأخذ عمل الله وتنسبه إلى نفسك، وتنسى عمل النعمة.

لأنك إن نسبت عمل النعمة إلى نفسك، قد تتخلى عنك النعمة فتسقط .

وذلك لكى تعرف ضعفك، ولكى تعترف بضعفك. ولكى تخاف من البر الذاتى، وتحترس من الافتخار الردئ. وقد تسقط فى الخطايا التى انتقدت الناس عليها، وظننت أنك أقوى منهم فى مواجهتها.

حقاً إن البار فى عينى نفسه، يتخيل أنه قوى وأنه يستطيع!

✠ ✠ ✠

أيضاً لكى تتخلص من البر الذاتى ، انظر باستمرار إلى الأبدية .

لا تحاول أن تبنى مجدك على الأرض، فالمجد الأرضى مجد باطل. ولا تحاول أن تنال أجرك هنا، فكله أجر زائل. إنما باستمرار اعمل من أجل أبديتك. وقل لنفسك لا أريد ههنا شيئاً...

حاول أن تزهد فى كل كرامة دنيوية وكل كرامة بين الناس. واطلب شهادة الرب لك، لا شهادة البشر، ولا شهادة نفسك لنفسك .

ليكن كنزك فى السماء، وليس على الأرض (مت٦: ١٩). ولا تجعل المجد الأرضى يفقدك المجد السمائى. وإلا تكون أنت الخاسر .

✠ ✠ ✠

اذكر أيضاً طبيعتك الضعيفة القابلة للميل والقابلة للتغيير .

هذه الطبيعة القابلة أيضاً للسقوط . واعرف أنك لست أقوى من الأقوياء الذين سقطوا. فقد كُتب عن الخطية أنها "طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلاها أقوياء" (أم٧: ٢٦). لذلك اذكر أنك إن تهاونت ولو قليلاً، أو إن تخلت النعمة عنك ولو قليلاً، ما أسهل أن يتغلب العدو عليك...

✠ ✠ ✠

إذن احفظ نقاوة قلبك بالاتضاع .

لأنه بالاتضاع تلصق بك النعمة (يع٤: ٦). فتستطيع بها أن تغلب. قل لنفسك: أنا مازلت سائراً فى الطريق، ولم أصل إلى نهايته بعد، والعبرة كلها بالنهاية. فلأكن إذن محترساً، ومتذكراً قول الرسول:

"من يظن أنه قائم، فلينظر لئلا يسقط" (١كو١٠: ١٢).

وإله السماء قادر أن يحفظك بالاتضاع ، ويعطيك النصرة من عنده .

الكبرياء تلد المجد الباطل

والمجد الباطل يلد محبة المديح والكرامة

محبة المديح :

المديح شئ ، ومحبة المديح شئ آخر. وقد يُمدح الإنسان ولا يخطئ، ولكنه لو أحب المديح يكون قد أخطأ.

آباؤنا الرسل مُدحوا، والقديسون والشهداء مُدحوا أيضاً. ولكن كل هؤلاء لم يخطئوا. فليس الخطأ فى أن يسمع الإنسان مديحاً، إنما الخطأ فى أن يحب هذا المديح ويسرّ به حينما يسمعه .

هناك نوعان من الناس لا يهوون المديح :

أولهما: نوع يهرب من المديح الذى يأتى إليه. سواء كان مديحاً من الناس، أو مديحاً من الشياطين، أو من نفسه.

والنوع الثانى يتمادى فى الهروب من المديح والكرامة، حتى أنه ينسب لنفسه عيوباً كثيرة. وحتى يُظهر عن نفسه جهالات ونقائص تحط من قدره. ولو أدى الأمر أن يُقال فيه ما ليس فيه . وهذا النوع توجد عنه قصص كثيرة فى سير الرهبان والراهبات .

الذين يحبون المديح

الذين يحبون المديح درجات متفاوتة فى الخطأ .

النوع الأول :

إنسان يأتيه المديح دون أن يسعى إليه. وعندما يسمع المديح، يسرّ به ويبتهج، على الرغم من أنه لم يسعَ إليه. وهذا الصنف من محبى المديح على درجات وأنواع :

أ – إنسان يسرّ بالمديح، ويسمعه فى صمت، وهو قابع فى مكانه: صامتاً ومسروراً فى داخله، دون أن يشعر به أحد.

ب – إنسان آخر يسمع المديح، ويتسبب فى الإستزاده منه. أى يظل يقول بعض عبارات تجعل الذى يمدحه يزيد فى مديحه. كأن يجره من موضوع المديح إلى موضع آخر يُمدح منه، أو نقطة أخرى فى نفس الموضوع تستحق المديح. أو يلجأ إلى أية وسيلة تجعل مادحه يزيد المديح.

ج – هناك إنسان يحب المديح وهو مسرور. ويتظاهر بعدم السرور بالمديح أو يرفضه، مع أنه مسرور من الداخل. ويظل يتمنع فيزيد الآخر فى مدحه. أو يذكر عن نفسه نقائص وهو لا يقصد أن يعيبها أو يشينها. بل فى قرارة نفسه يريد أن يسمع المزيد من المديح.

النوع الثانى :

أصعب من النوع السابق قليلاً: إنسان لم يأته المديح، ولكنه يشتهى أن يسمعه. وفى إشتهائه يسلك أحد طريقين :

أ – يشتهى المديح، ويظل صامتاً حتى يصله، متحيلاً أسباب يسمع بها المديح. كأن يبدأ موضوعاً معيناً، يشمل عملاً قد عمله يستحق فيه مديحاً. أو يجر الكلام خطوة خطوة، حتى يصل إلى النقطة التى لابد أن يسرّ بها الناس ويمتدحونها، ويمدحونه بسببها.

ب – أو أنه يشتهى المديح، فيعمل أعمالاً صالحة أمام الناس، لكى ينظروه فيمدحوه. كما قال الرب عن الذين استوفوا أجرهم على الأرض (مت٦).

النوع الثالث :

وهو أصعب من النوعين السابقين. وفيه إنسان يحب المديح ويشتهيه. لكن المديح لم يأته بعد، على الرغم من أنه ينتظره ويتحيل له أسباباً...

فماذا يكون ردّ فعله على انتظاره المديح بلا نتيجة؟

إنه يصل إلى درجة أخرى. فيها يكره من لا يمدحه ويعتبره عدواً، ويكون بينهما سوء تفاهم. ذلك لأنه لم يلاحظ بعد ما فيه من صفات فاضلة تستحق المديح، وما قام به من أعمال توجب له تقدير الناس...

نعم إن هذا الإنسان لم يضره فى شئ حتى يصير عدواً. إنما يكفى أنه لم يمدحه ببعض الكلام الطيب. لم يقابله مقابلة لطيفة، ولم يقدم له احتراماً زائداً، ولم يكرمه إكراماً من نوع خاص! مثل هذا الإنسان الذى يكره من لا يمدحه، ماذا يفعل إذن بالذى ينتقده؟! إن كان الساكت فقط عن مدحه، أصبح موضع كراهيته، فكم إذن يكون شعوره من جهة ناقديه؟!

النوع الرابع :

هناك نوع آخر يشتهى المديح، ويسرّ عندما يسمعه، ويكره من لا يمدحه. ولكنه لا يكتفى بذلك. بل هو يمدح نفسه إذا لم يجد أحداً يمدحه. فيتكلم عن أعماله الفاضلة التى عملها وتستحق المديح. وفى نفس الوقت يخفى خطاياه الشخصية.

هذا الإنسان هو الذى يتحدث كثيراً بالخير عن نفسه .

النوع الخامس :

إنه أصعب من ذلك النوع السابق الذى يمدح نفسه .

ذلك لأن مديح النفس من صنفين: واحد منهما -الذى ذكرناه- وهو الذى يمدح نفسه بما فيه. فيظل يتكلم عن أفعاله المجيدة التى عملها، وعما توجد فيه من صفات حسنة.

أما الصنف الثانى - الذى نذكره حالياً - فهو حالة إنسان يمدح نفسه بما ليس فيه. وينسب إلى نفسه فضائل ليست عنده، بل يدّعيها ويتخيلها.

أو يذكر صفات حسنة عنده، ولكنه يبالغ فى الحديث عنها ويكبّرها...

أو أنه ينسب فضيلة غيره إلى نفسه! فإن كان مشتركاً فى عمل، قد تم نجاحه بمجهود مجموعة من الناس.. فإنه حينما يحكى عن هذا العمل، يركّز على نفسه فقط كما لو كان هو وحده السبب فى نجاح العمل، وليس مجرد مشترك فيه، لكى يكون المديح له وحده. متجاهلاً كل الذين اشتركوا فى العمل وساهموا فى نجاحه، وكأنهم لم يكن لهم وجود ولا مجهود!!

بل قد يحدث فى بعض الأوقات ما هو أسوأ من هذا: أن ينسب إلى زملائه فى العمل كمية كبيرة من العيوب، ويتهمهم بالتقصير أو الضعف، ويخفى حقهم ودورهم. كأن يقول عن واحد منهم -على غير حق- أنه لم يستطع أن يتكلم، وكان متلعثماً حتى تضايق الناس منه.. إلى أن تدخل هو وقال الرد الصحيح. أى أنه كان بطل الموقف بينما أخطأ غيره!!

مثل هذا الإنسان لم يمدح ذاته فقط، بل أضاف إلى امتداح نفسه، أنه ذم الآخرين وشهّر بهم. وبنى كرامته على إمتهان الآخرين!

✠ ✠ ✠

وعن التواضع الذى هو عكس هذا النوع من مديح النفس:

أذكر قصة راهب فاضل كان ينكر ذاته جداً. فحينما كان يعمل فى خدمة الدير عملاً حسناً، ويدرك أنه لابد سينال مديحاً بسببه، كان يشرك معه راهباً آخر فى جزء ضئيل جداً من العمل. أو فى نهاية العمل يطلب من أحد الرهبان أن يساعده. فإن مُدح على ذلك العمل بعد إتمامه، يقول "بارك الله أبانا فلان الذى تم العمل على يديه".. وهكذا ينسب إليه الفضل، حتى يُبعد المديح عن نفسه.

هناك مثل آخر واضح فى لعبة كرة القدم. فلو كان كل لاعب فى الفريق يبحث عن مدح نفسه، سيفشل الجميع. لأن كلاً منهم يريد أن يكون الهدف بواسطته وحده! ولكن بروح الفريق يلعب الجميع. وقد يسير أحدهم بالكرة حتى يصل إلى قرب المرمى، ثم يمرر الكرة لغيره فيكسب زميله الهدف ويمتدحونه. المهم هو إنتصار الفريق وليس فرداً معيناً منه.

فإن كان هذا فى الروح الرياضية، فكم بالأكثر تكون الحياة الروحية.

إن الإنسان الذى يسعى إلى مدح ذاته، متجاهلاً باقى الناس والظروف المحيطة، وقد يتجاهل عمل نعمة الله معه، إنما يمدح نفسه بما لا يستحق ..

النوع السادس :

وهو يمثل أردأ نوع من محبى المديح. إذ قد تصل محبة المديح بشخص إلى الدرجة التى فيها يحب أن يكون المديح له وحده. ويتضايق إذا مُدح شخص آخر غيره. أو يغتاظ إن شاركه أحد فى المديح. فهو يريد أن يُمدح وحده وليس غير. وإن مُدح آخر يغار ويحسده، ويحقد عليه ويتكلم عنه بالسوء .

الخطايا التى تنتج عن محبة المديح والكرامة

ما أكثر الخطايا التى تنتج عن محبة المديح والكرامة. نذكر من بينها:

١ - الرياء :

محب المديح قد يصير إنساناً مرائياً، لا يعطى صورة حقيقية عن نفسه. فهو يخفى النقط السوداء التى فيه، ويُظهر فقط النقط البيضاء التى تجلب له المديح. وإخفاء النقط السوداء يتدرج فيه إلى نواحٍ كثيرة. وكذلك إظهار النقط البيضاء يتدرج فيه إلى نقط خطيرة. وبهذا يقع فى عيوب لا تُحصى.

✠ ✠ ✠

٢ - الغضب وعدم الاحتمال :

مادام محب المديح يخفى عيوبه، فبالتالى لا يقبل أن يوجه إليه أى عيب. فيكون إنساناً يكره الانتقاد. وإذا انتقده أحد، فإنه لا يحتمل. وربما لا يقف فقط عند حدّ عدم الإحتمال، بل قد يتطور به الأمر إلى الغضب والنرفزة والثورة إلى آخر هذا الطريق.

فكيف ينقده شخص ويقول عنه كلمة سيئة؟! وكيف يذكر له عيباً معيناً؟! لهذا فإنه يثور ويضج، ويتعب من الداخل ومن الخارج. كما يُتعِب معه الآخرين أيضاً. وكل هذا بسبب محبته للمديح والكرامة.

وهنا يجب أن نعلم أن علاج أنواع كثيرة من الغضب، هو ألا يكون الإنسان محباً للمديح ولا للكرامة. لأن كثيراً من غضبنا يكون مصدره هو محبة المديح، إذ لا يحتمل

الإنسان كلمة إهانة أو نقد أو أية إساءة .

✠ ✠ ✠

٣ - الكراهية :

محب المديح قد يكره من لا يمدحه. ويكره أيضاً بالأكثر من ينتقده. كما يكره من يمدح غيره أمامه. لأنه يريد المديح له وحده!

✠ ✠ ✠

٤ - الحسد :

محبة المديح والكرامة هى من الأسباب الأساسية للحسد. فالحاسد يريد أن يأخذ مركز غيره ومكانته عند الناس. ولا يريد أن يكون غيره أفضل منه. فلهذا يحسد كل من يراه موضع التقدير والإعجاب!

✠ ✠ ✠

٥ - النقد والإدانة والتشنيع والسب للغير :

يقع محب المديح فى هذه الأخطاء. ذلك لأنه يحب أن يكون جميع الناس أقل منه. لذلك فهو يشوّه أعمال الغير، لكى يكون هو وحده الذى بلا عيب.

ولهذا فإنه يقع فى إدانة الآخرين، وفى التشهير بهم. كما يقع فى السب، وما إلى ذلك من انتقاص حقوق الآخرين .

✠ ✠ ✠

٦ - وبذلك يخسر محبة الناس :

يخسر محبة الذين ينتقدهم، ومحبة أصدقائهم وأقاربهم. ويخسر محبة من لا يعجبه هذا الأسلوب فى تشويه الآخرين .

✠ ✠ ✠

٧ - هو أيضاً يحب المتكآت الأولى :

ولأنه يحب العظمة، فإنه يتنازع مع الناس على المتكآت الأولى، ويدخل فى خصومات وفى مشاكل مع من يجلس فى المتكآت الأولى، كما لو كان ذلك الشخص يغتصب حقاً من حقوقه، أو لا يعترف بمكانته وأولويته!

إنه يريد باستمرار أن يكون هو الأول والمتقدم والبارز والظاهر، والمختص بالاحترام والهيبة. وكل من ينافسه فى هذا، لابد أن يسئ إليه، ويتكلم عنه ردياً.

✠ ✠ ✠

٨ – ومحبة المديح تدفعه إلى الكذب والإدعاء :

إن كان الإدعاء يوصله إلى مركز مرموق بين الناس، فلا مانع عنده أن يكذب ويدعى ما ليس فيه من مواهب وصفات. وربما يختلق قصصاً وأحداثاً لإثبات ذلك.

❋ ❋ ❋

٩ – وقد يصل به الأمر إلى تدبير دسائس :

يتمكن بها من أن ينزع بها الظاهرين من مراكزهم، لكى يبقى هو وحده فى الصورة، بلا منافس وبلا شريك فى العظمة وفى إعجاب الناس.

❋ ❋ ❋

١٠ – ومحبة المديح تؤدى إلى أكثر من هذا :

فقد تؤدى بمحب المديح إلى اشتهاء موت الآخرين لكى يأخذ مكانهم، أو على الأقل يشتهى فشلهم وعزلهم، لكى ينال موضعهم. فإن كان وكيلاً، وله رئيس، فإنه يتطلع إلى منصب هذا الرئيس، ويشتهى وظيفته بأية وسيلة! ويطلب أن يُزاح من مكانه، لكى يجلس هو على كرسيه. ويتخيل خيالات توصله إلى ذلك، كأن تقدم شكاوى ضد هذا الرئيس، ويحقق معه، وتثبت إدانته ويعزل، ويصبح الجو ممهداً أمامه هو، ويخلو له المكان.

وربما لا يسمح له ضميره أن يقول كلمة سوء عن رئيسه. ولكنه ينتظر بفارغ صبر أن تُقال تلك الكلمة من غيره، فيفرح بها ويسرّ، ولا يدافع عنه مع معرفته الأكيدة بأنه برئ. ولكنه لا يشهد بشهادة فى صالحه!

فلننظر كم من الخطايا قد وقع فيها مثل هذا الشخص، لفساد قلبه!

❋ ❋ ❋

١١ – ومحبة المديح والكرامة، تجعل الإنسان ليس فقط لا يحتمل التأديب ولا التوبيخ. **بل لا يحتمل مجرد كلمة نصح !**

فكيف ينصحه غيره؟ هل هذا الغير أفضل منه، أو يفهم أكثر منه؟! بينما هو العارف والفاهم والعالم، والناصح والموجه والمرشد!!

بل قد يتطور الأمر معه، فلا يحتمل إنساناً ينصح آخر أمامه. لأن النصح والإرشاد هما له فقط! هو الذى ينصح. وهكذا يتضايق دون أن يدرك أحد لماذا تضايق! إنه يغلى من الداخل. وإذا ما سئل عن سبب ضيقه، لا يستطيع أن يقول السبب .

❋ ❋ ❋

١٢ - وبذلك يصبح مشكلة لنفسه، ومشكلة للآخرين .

وربما إذا سئل غيره فى وجوده، أو احترم الناس غيره فى وجوده، لدرجة شعر بها أنه كان الأحق بهذا الاحترام، أو أن الاحترام الذى قد وُجّه لغيره كان أكثر مما وّجّه إليه، يتضايق ويتعب فى الداخل،. ولو من أجل سبب بسيط. كأن يدخل إنسان، ويسلّم على غيره باشتياق أكثر أو باحترام أكثر! فهذا الإنسان المحب للمديح يصبح متعباً. فهو لا يحتمل الناس. كما أن الناس أيضاً فىمثل هذه الحالة لا يحتملونه...

✠ ✠ ✠

١٣ - محبة المديح والكرامة تجعل الإنسان فى موضع متردد غير ثابت .

لأنه لا يسير على مبدأ واحد، وليست له خطة واضحة. وإنما إن كان هذا الأمر يسبب له المديح فإنه يفعله. وإن كان عكسه يأتى بالمديح، فإنه يفعل العكس!

إنه يتلون مع الناس كيفما كانت صورهم وأساليبهم واتجاهاتهم:

مع الوقور يكون وقوراً ومتزناً. ومع المهزار يكون مهزاراً !!

"ولكل شئ تحت السماوات وقت". والوقت عنده هو مجال المديح: مع محب الكلام يكلمه كثيراً لكى يُمدح على قدرته على الكلام. ومع الذى يحب الصمت، يصمت هو أيضاً لكى يُمدح على صمته. إن كان الدفاع عن الحق يجلب له المديح، فإنه يدافع عنه. لا حباً فى الحق، وإنما حباً فى المديح! وإن كان الدفاع سيغضب البعض منه، فإنه لا يقول الحق لئلا يغضبهم. وبذلك يخسر مديحهم له!!

إنه يريد المديح وكفى، بأية طريقة وبأية وسيلة. ولا مانع من التلون مع الناس، لكى يصل إلى مديحهم له!

يلبس لكل حالة لبوسها - ويتخذ أمام كل إنسان صورة وشكلاً وتصرفاً ليكسب رضاه ومديحه: أمام إنسان يحب الإتضاع، يجلس بوقار فى أتضاع، ويعمل الأعمال التى يُمدح عليها كمتضع. ومع المتكبر يكون فى صورة من العظمة التى يحبها.

✠ ✠ ✠

١٤ - هو إنسان ملون، لا يثبت على وضع، لكى ينال المديح.

يعيش فى شقاء وتعاسة. يفقد سلامه الداخلى: يشتاق إلى الكرامة. فإن لم تأته، يتعب ويشقى. وإن أتته يفرح ويسرّ. ولكنه يفرح وقتياً، ويلازمه الشقاء: إما لخوفه من ضياع تلك الكرامة، أو لإشتياقه إلى كرامة أفضل. ويعيش فى تعب، لأن الكرامة الأفضل لم

تصله بعد.. وسلسلة التعب النفسى معه تتوالى ولا تنتهى .

✠ ✠ ✠

١٥ - محبة المديح يقع فى الغطرسة والكبرياء :

وهذه تقوده إلى باقى الشرور . الكبرياء تدفعه إلى محبة المديح. وإن نال هذا المديح يزيد مقدار الكبرياء عنده. ويتحول إلى الغطرسة .

✠ ✠ ✠

١٦ - وأخيراً فإن محب المديح يخسر حياته الروحية خسراناً كاملاً .

لأن كل الفضائل التى يجهد ذاته فى عملها، تتشوه تشويهاً شاملاً إذ يدخلها حب المديح فيفسدها، أو يكون حب المديح هو هدفها، وليس حب الخير! فلا تصبح له فضيلة على الإطلاق، لأن كل فضائله قد تشوهت بسبب فساد الهدف والدافع إليها.

✠ ✠ ✠

١٧ - هذا الإنسان - مهما تعب ومهماعمل، يقف أمام الله صفر اليدين .

ولا جزاء له عند الله، لأنه أخذ أجرته على الأرض. إذ يقول له الرب فى اليوم الأخير إنك استوفيت خيراتك على الأرض مديحاً وكرامة وعظمة. ولا تستحق شيئاً عندى فى السماء (مت٦: ٢، ٥، ١٦). إنك - لست من أجل الرب - عملت الفضائل بل من أجل كرامة تنالها من الناس، وقد نلتها وانتهى الأمر. فضائلك كانت من أجل ذاتك لكى ترتفع هذه الذات أمام الآخرين، وقد حصلت على ما تريد. فماذا بعد؟!

وهكذا يخسر هذا الإنسان الملكوت الأبدى والعشرة مع الله وقديسيه. وبسبب نزاعه مع الناس فى محبته للكرامة، يخسر الناس أيضاً، لأنهم لا يحبون المتغطرس والمتكبر، ويشمئزون من سعيه وراء المديح. فيتعرض بهذا إلى ازدرائهم واحتقارهم، كما يمتدح نفسه أمامهم.

✠ ✠ ✠

وصدق ما اسحق حينما قال :

من سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومن هرب منها بمعرفة، سعت إليه.

إن كان الأمر هكذا، فكيف ينجو الإنسان إذن من محبة المديح والكرامة؟

الهروب من المديح والكرامة

يمكن الهرب منهما بإخفاء الفضائل والبُعد عن الرئاسات

إخفاء الفضائل :

طالما فضائلك ظاهرة أمام الناس، فأنت عرضه للمديح.. فإن أردت أن تهرب من مديحهم، عليك بقدر إمكانك أن تخفى فضائلك وأعمالك الحسنة. ليس معنى هذا أنك لا تعمل شيئاً حسناً أمام الناس. وإنما لا تعمل أمامهم بهدف أن تنال مديحهم. فإن كان العمل ضرورياً ولا يمكنك إخفاءه عن الناس، فعلى الأقل لا يكون هدفك وقصدك هو محبة المديح، بل عمل الخير ذاته.

✠ ✠ ✠

وقد تعرض القديس أوغسطينوس لهذه المسألة فى تفسيره للعظة على الجبل :

يقول الرب "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات" (مت٦: ١). ويقول أيضاً "فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات" (مت٥: ١٦). فهل يوجد تناقض بين القولين؟ وكيف نوفق بينهما؟

يقول القديس أوغسطينوس فى هذا الموضوع "ليس هناك تناقض. **لأن العيب ليس فى أن ينظر الناس أعمالكم الحسنة. إنما العيب هو أن تعملوا الأعمال الحسنة لكى ينظروكم.**

فينبغى عليك أن تعمل الخير سواء نظرك الناس أو لم ينظروك. لا يكن هدفك أن يراك

الناس وأنت تعمل الخير، ولا أن يمدحوك. بل إعمل العمل الصالح، لا لكى تتمجد أنت به، بل لكى يتمجد الله "لكى يمجدوا أباكم الذى فى السموات" .

يقول البعض إنهم يعملون الصلاح لكى يكونوا قدوة أمام الناس.

ولكن علينا أن نفهم أن للقدوة مواضع، وأناس مفروض فيهم بحكم موضعهم أن يكونوا قدوة. مثل رجال الإكليروس والقادة والمسئولين والرسل والأنبياء والرعاة. فهؤلاء إن لم يكونوا قدوة، سيعثرون الآخرين.

أما الإنسان المتواضع، فإنه لا يرى فى نفسه شيئاً يُقتدى به الناس .

ويحاول أن يهرب من مواقف القدوة بحجة أنه خاطئ وضعيف. وعلىعكس هذا يُظهر نقائصه وضعفاته. ومع ذلك قد يصبح قدوة باتضاعه..

✠ ✠ ✠

وكلما حاربه الفكر أن يكون قدوة، يقول لنفسه: لا استطيع أن أكون مرائياً، أظهر بغير حقيقتى. ويصرخ أمام الله قائلاً: أنت تعرف يارب ما بداخل القبور المبيضة من عظام نتنة. إن كنت أنت برحمتك قد سترتنى، وأخفيت عيوبى عن الآخرين، هل استغل أنا هذا الستر، لأمثّل دور القدوة؟! بينما أنا إنسان خاطئ بعيد عن حياة البر!!

أما الذى يريد أن يصير قدوة، فلكى يظهر أمام الناس حسناً يجوز أن يقع فى الكبرياء والرياء. فيجب أن نرضى الله لا الناس.

✠ ✠ ✠

فلا يكن هدفنا أن نكون قدوة، حتى لو صرنا قدوة بتدبير من الله.

هكذا كان الآباء القديسون يتركون تدبير أمر معين فى الفضيلة إذا اشتهر عنهم ويعملون غيره، إذ كانوا يهربون جداً من المديح. ولكن ليس معنى هذا أن تترك كل تدبير حسن تسير فيه لئلا يأتيك المديح بسببه، بل اثبت فى كل تدريب صالح من أجل نموك الروحى، وليس لكى ينظرك الناس.

البعد عن الرئاسات :

★الإنسان المتواضع لا يسعى وراء المناصب والرئاسات. بل فى حكمة يهرب منها. وقد نبغ فى ذلك كثير من آباء الرهبنة ومنهم القديس بينوفيوس الذى عرفنا قصته من يوحنا كاسيان مؤسس الرهبنة فى فرنسا.

كان القديس بينوفيوس رئيساً على دير يضم أكثر من مائتى راهباً فى منطقة البرلس. وكان متضعاً جداً ومهاباً، وله مكانة عند الكثيرين.

إ ذ كانوا يحبونه بسبب قداسته وحياته الفاضلة، ولمواهبه العظيمة التى منحه الله إياها، وأيضاً بسبب كهنوته، ولأنه شيخ وقور .

جلس هذا القديس ذات يوم إلى نفسه وقال: ماذا تكون نتيجة هذا الوضع الذى أنا فيه؟ كل يوم مديح وكرامة واحترام وتوقير!! إننى أخاف أن يقول لى الرب فى اليوم الأخير "إنك قد أستوفيت خيراتك على الأرض" (لو١٦: ٢٥). فأين منى الطريق الضيق والكرب الذى أوصى به الرب، وقال إنه المؤدى إلى الحياة (مت٧: ١٤). وأين منى قول الكتاب: "إنه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله" (أع١٤: ٢٢)؟ وهوذا أنا رجل متمتع باحترام وتوقير وكرامة ورئاسة!

لذلك هرب القديس بينوفيوس ذات يوم من الدير دون أن يشعر به أحد.

وتنكر فى زى علمانى، وسار جنوباً حتى وصل إلى أحد أديرة القديس باخوميوس الكبير فى إسنا. وطرق الباب طالباً أن يقبلوه فى الدير. فنظروا إليه متعجبين من أمر هذا الشيخ الذى أتى ليترهب! وقالوا له "هل أتيت بعد أن شبعت من العالم، وشبع العالم منك؟! أتريد أن تأخذ مظهر القداسة فى أواخر أيامك؟ إنك لا تصلح، فأرحل عنا".

فألح القديس بينوفيوس عليهم فرفضوا. وقالوا له "أنت رجل شيخ، ولا تحتمل الرهبنة وجهاداتها". فظل يلح عليهم وهم يرفضونه. ووقف عند الباب مدة على الرغم من رفضهم، دون أكل أو شرب. فلما رأوا احتماله وصبره، أدخلوه الدير على شرط ألا يرسم راهباً، ويكون فى زى العلمانيين يخدم فى الدير. وأسندوا إليه مساعدة الراهب الشاب المسئول عن حديقة الدير، ليكون كصبى عنده. فلم يمانع. وكان الشاب يوجه إليه أوامر يعمل بها، فكان مطيعاً له وخاضعاً.

وتحول القديس الذى كان يحترمه الناس ويطيعونه إلى تلميذ. وكانت هذه أمنيته أن تتغير حياته، ويكون خاضعاً لغيره بدلاً من خضوع الغير له.

وكان معلمه الشاب شديداً عليه جداً. يريد أن يربى الشيخ تربية صحيحة، لأن الرهبنة ليست كسلاً! وصار القديس يطيعه طاعة كاملة، وينفذ أوامره بكل دقة، لا يجادل ولا يناقش. وسار على هذا المبدأ مدة وسرّ به الشاب.

وأيضاً كان يقوم فى ساعة متأخرة من الليل - والرهبان نيام - ويعمل الأعمال التى يشمئز منها الآخرون لقذارتها. فإذا ما استيقظوا فى الصباح، يجدون كل شئ قد تم دون أن يعرفوا من الفاعل، فيبتهجون ويباركون الرب من أجل ذلك. أما هو فكان مسروراً بهذا العمل. وظل على هذا الطقس ثلاث سنوات وهو يقول "أشكرك يارب من أجل عطاياك ونعمك العظيمة، إذ خلصتنى من الاحترام والتوقير، ونقلتنى إلى حياة الطاعة والخضوع".

حدث بعد ذلك أن أتى لزيارة هذا الدير راهب من أديرة البرلس .

ورأى القديس بينوفيوس يحمل السباخ ويضعه حول الشجر. فشكّ فى الأمر ولم يصدق أنه هو! وأخيراً سمعه يرتل المزامير بصوته المعهود، فعرفه وسجد له، وكشف أمره للرهبان. فأخذوه بمجد عظيم وأعادوه إلى ديره.

وبعد ذلك هرب أيضاً إلى بيت لحم، وعمل خادماً فى قلاية يوحنا كاسيان.

وتصادف أن ذهب راهب آخر إلى زيارة الأراضى المقدسة، فرآه وعرفه. وأعادوه مرة ثانية باحترام إلى ديره. وزاره يوحنا كاسيان عند مجيئه إلى مصر، وكتب عنه فى مؤلفاته أنه مثال حى للهرب من الرئاسات...

فالذى يريد أن يخلص من مديح الناس والكرامة، عليه أن يهرب من محبة الرئاسات والمناصب.. لأنه إن نجح فى تلك المناصب، تشعره بأنه قد صار موضعاً للكرامة. وإن فشل فيها، وقع فى دينونة عظيمة.

✠ ✠ ✠

★إن أحلام الرئاسة تعب داخلى :

لأنه أحياناً يخلو الإنسان إلى نفسه. وفى أحلام اليقظة يتصور أنه فى مركز هام، وأنه يعمل ويعمل.. وتدور فى ذهنه مشروعات كبيرة وأمور خطيرة. ويظن أنه لو أعطى السلطان، لسوف يعمل ما لم يستطع غيره أن يعمله!

وهذه تخيلات المجد الباطل، وكبريائه موجودة فى الداخل تُشعر الإنسان بأنه يستطيع الشئ الكثير. وقد يسمح الله أن تُسند إلى هذا الشخص مسئولية، فيفشل فيها لكى يعرف مدى ضعفه.

✠ ✠ ✠

ذهب أحد الشيوخ ليزور راهباً شاباً فى قلايته الخاصة. وعندما همّ بقرع الباب، سمع صوتاً فى الداخل، فانتظر قليلاً حتى لا يعطل الراهب الشاب. فسمعه يعظ من الداخل.

فانتظره حتى انتهى من العظة وصرف الموعوظين قائلاً "أمضوا بسلام". ثم قرع الباب، وفتح الراهب الشاب، وفوجئ بالشيخ أمامه. فخجل وفكّر ما عسى أن يقول عنه الشيخ إذا كان قد سمعه يعظ بمفرده دون موعوظين! فقال "إنى آسف يا أبانا، لئلا تكون قد جئت من زمن وتعطلت على الباب". فابتسم الشيخ وقال له "جئت يا بنى وأنت تصرف الموعوظين". وعرف الشيخ أن هذا الراهب محارب بالمجد الباطل، إذ يتصور أنه قد صار معلماً وواعظاً...

فاحذر أن تتخيل أنك قد صرت رئيساً أو قائداً أو مشيراً. قل لنفسك إنك لم تصل إلى هذا المستوى بعد. ويكفى أن تكون أميناً للوضع الذى أنت فيه.

✠ ✠ ✠

★إن الرئاسات ضارة لغير الناضجين :

قال القديس أوروسيوس أحد خلفاء القديس باخوميوس الكبير :

"إن الرئاسة مضرة للأشخاص الذين لم ينضجوا بعد". وضرب مثلاً لذلك فقال: "إذا أحضرت لبنة لم تحترق بعد بالنار وألقيتها فى الماء، فإنها تذوب. أما إذا احترقت بالنار، فإن ألقيت فى الماء، فإنها تبقى وتشتد".

كذلك الشخص الذى يصل إلى الرئاسة قبل أن ينضج، وقبلما يمحص بالنار، أى باختبارات الحياة، وقبلما تزول منه محبة المجد الباطل، فإنه معرض للهلاك. كذلك مساكين هم الناس الذين يخضعون لرئيس محب للمجد الباطل. فإنه يضيّع نفسه، ويضيع الناس معه، بسبب المجد الذى يطلبه منهم.

لماذا يهرب المتواضع

من حب الرئاسة والرعاية؟

إنه يهرب من الرئاسة حرصاً على خلاص نفسه، وهروباً من العظمة والكبرياء، حسبما وعظ القديس يوحنا الأسيوطى:

سئل هذا القديس: "هل يليق بالإنسان أن يطلب رتبة وسلطاناً، بقصد تقويم المعوجين وإبطال الشرور؟". فأجاب:

كلا، لأنه إن كان الإنسان – وهو بعيد عن الدرجة – يريد أن يكون عظيماً، فماذا يفعل عندما يصل إلى الرئاسة والعظمة ذاتها؟!

فالذى وهو فى ضآلة شأنه لم يعرف الإتضاع، ماذا يفعل وهو فى العظمة؟! وإن سعى إلى الانتفاخ – وهو بعيد عن المناصب – فأى انتفاخ يكون له عندما ينال تلك المناصب؟!

إذ حينما لم يكن لديه سبب للعظمة، كان يطيش بها فى ضميره، فكم يكون بالحرى عندما ينال سبباً للافتخار؟!

✠ ✠ ✠

إن كنت لا تشتهى الاتضاع، فلا تطلب درجة الرعاية. ولا تشتهِ درجة الكهنوت لكى تعتنى بالناس. وأعلم أن الله يعتنى بشعبه أكثر منك. أشتهِ أن تكون حملاً فى القطيع يرعاك غيرك، لا أن تكون راعياً مسئولاً عن رعية يطلب الله دمها من يدك.

احترس من شهوة التسلط. واذكر أنك مهما صرت اليوم مكرماً بالعظمة، فغداً ستكون مثل سائر الناس محبوساً فى القبر.

✠ ✠ ✠

يهرب المتواضع من الرئاسة والرعاية، شاعراً بأنه أضعف من القيام بها .

قال القديس يوحنا الأسيوطى أيضاً: "إن كنت الآن لا تقدر أن تربح نفسك، فكيف تقدر أن تربح نفوساً كثيرة؟!.. إن كنت فى الوقت الذى ليس عليك فيه أثقال، لم تستطع أن تحيى ذاتك، فكيف تقدر أن تخلص شعباً كبيراً من شر هذا العالم؟! إن كنت الآن بلا مسئوليات كثيرة، ولم تقدر أن تخلص هذه النفس الواحدة التى هى نفسك، فكيف تقدر على نفوس الناس؟!

وبنفس منطق القديس يوحنا الأسيوطى، أقول لكل من يشتهى الرعاية ليخلص نفوس الاخرين: اهتم يا أخى بخلاص نفسك أولاً. فإن لم تستطع، فلن تقدر على تخليص غيرك مهما أخذت من مناصب..

نفسك التى تعرف عنها كل شئ: تعرف جميع أسرارها، وتاريخها كله، وضعفاتها، وأسباب ما فيها من ضعفات وعيوب وأمراض روحية.. إذا لم تستطع أن تخلص هذه النفس المعروفة جداً لديك، فكيف تقدر على خلاص نفوس الناس الذين تجلس معهم فترات قليلة، ولا تعرف عنهم إلا القليل جداً؟!

ونفسك التى إذا وبختها، تقبل منك التوبيخ واللوم والزجر، ومع ذلك لم تقوَ على ردعها! فكيف تقدر على نفوس إن وبختها تغضب منك؟!

نفسك التى تثق بك، والتى هى مستعدة أن تسمع لك، لست قادراً عليها، فكيف تعمل مع الناس الذين قد لا يسمعون منك. وإن سمعوا ربما لا يثقون بما تقول!!

فاهتم أولاً بخلاص نفسك، لأن تخليص الغير ليس أمراً سهلاً..

✠ ✠ ✠

الذى يهرب من الرئاسات والمناصب، يحب المتكأ الأخير .

لأنه يشعر أن هذا هو وضعه الطبيعى، وهذا هو استحقاقه. إذ قال القديسون "اعتبر نفسك أقل من الكل وآخر الكل، لكى تستريح. قال القديس برصنوفيوس: "لا تحسب نفسك فى شئ من الأمور، ولا يحسبك أحد شيئاً، وأنت تنتيح (أى تستريح)"...

فالشخص الذى لا يحب المديح والكرامة، يهرب من الرئاسة، ويهرب من المتكآت

الأولى، ويشتهى أن يكون خادماً لغيره، لا أن يخدمه غيره. يشتهى أن يتتلمذ على المرشدين وينتفع بأقوالهم، لا أن يكون مرشداً لآخرين.

قال الشيخ الروحانى "فى أى مكان وُجدت فيه، كن صغير أخوتك وخديمهم".

✠ ✠ ✠

فى مرة طلب منى أحد الآباء الكهنة الجدد - بعد رسامته - أن أقول له كلمة أو نصيحة، فقلت له "كن ابناً وسط أخوتك، وأخاً وسط أولادك". فالذى ينزل درجة يرتفع درجات.. وهذا هو الذى يستريح فى أى منصب يُوضع فيه. أما إن كان يريد أن يتمتع بكل كرامة هذا المنصب، ويملأ كرسيه أو ينتفخ، فهذا إنسان مسكين أسقطته المناصب..

أما أنت فكن آخر الكل "صغير أخوتك وخديمهم" فى كل مكان تحل فيه. وإن كان السيد المسيح قد غسل أرجل تلاميذه" (يو١٣)، ولم يستحِ أن يدعوهم أخوة له (عب٢: ١١)، بينما هو المعلم والسيد، فهل تكون أنت رئيساً على أحد؟!

✠ ✠ ✠

الإنسان المتواضع - إن صار رئيساً - يعتبر نفسه رئيساً فقط على العمل وليس على الناس. ويعتبر مرؤوسيه زملاء له...

إنه يهرب من الرئاسة والترأس، ومن السلطة والتسلط. أما إن أمسكه الله بإرادته التى لا تقاوم، وجعله رئيساً أو راعياً، فإنه عندئذ يطلب منه قوة يعمل بها، لأنه بنفسه لا يستطيع أن يعمل شيئاً (يو١٥: ٥). والذى يثق بقدرته الخاصة على تخليص الآخرين، لابد أن يكون مغروراً.

✠ ✠ ✠

إنه لا يرفض الرئاسة إن أتت إليه، دون سعى منه إليها. فليس الضرر فى الرئاسة، إنما الضرر فى محبة الرئاسة وفى الارتفاع بسببها.

ليس الضرر أن تبقى رئيساً. ولكن الضرر هو أن تتسلط على غيرك. فقد يوجد رئيس وصاحب المتكأ الأول، وفى نفس الوقت يكون إنساناً متضعاً. يعامل مرؤوسيه برفق كأنه واحد منهم. فالرئيس والمرؤوس سواء عند الله. بل قد تكون للمرؤوس منزلة أكبر حسب برّه.

✠ ✠ ✠

والرئيس المتواضع هو الذى يتفاهم مع مرؤوسيه بروح المحبة والبساطة شاعراً أن السلطة إنما تمنح للرؤساء من أجل إدارة العمل، وليس من أجل الكرامة الشخصية. وهكذا

أيضاً درجات الكهنوت مهما علت، هى للتدبير والرعاية والخدمة، وليست للرفعة والتشامخ. وعلى ذلك فإن كل سلطة لا يجوز أن تنحرف عن معناها الأصلى كمجرد وسيلة لتدبير العمل، لتصبح وسيلة إلى تكبير الذات وإظهارها..!

يحكى عن القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة: إنه كان يسير مرة مع مجموعة من الرهبان، وكل واحد يحمل حاجياته. فتقدم أحد الرهبان لكى يحمل حاجيات القديس باخوميوس، فرفض ذلك وقال له: إذا كان المسيح له المجد دعا نفسه أخاً لتلاميذه، فهل استخدمكم أنا فى حمل حاجياتى؟! لا يصير هذا الأمر أبداً. من أجل هذا فإن بعض الأديرة كائنة فى انحلال، لأن صغارهم مستعبدون لكبارهم"!

✠ ✠ ✠

والقديس بولس الرسول يقول عن نفسه "إن حاجاتى وحاجات الذين معى، خدمتها هاتان اليدان" (أع۲۰: ۳٤).

إن الرئيس المتواضع هو الذى يحترم الكل، ويعامل الكل بلياقة. حقاً ما أعظم محبة وتواضع الذين يعاملون من هم أقل منهم باحترام وتوقير..

إنك بسهولة تحترم الشخص الأكبر منك. فهذا واجب وضرورة، وأنت مرغم على ذلك ومضطر أن تحترمه. لكن من يحترم من هو أقل منه، يكون متضعاً.

الذى يحترم من هم أصغر منه فى المنصب، أو العلم، أو السن، أو فى المقام، ويحفظ حقوقهم ويشعرهم بشخصياتهم، فهو إنسان متواضع يستحق محبة وتقدير الكل. وأعلم أن كرامتك ليست فى أن يخضع الناس لك بحكم القانون. إنما الاحترام الحقيقى، هو تقدير وتوقير ينبع من القلب، لمن هو مستحق لذلك. ولا يكون من الظاهر فقط.

✠ ✠ ✠

★الرئيس المتواضع يكون رئيساً على ذاته أولاً .

فهو يضبط نفسه أولاً، ويحسن تدبيرها، قبل أن يتولى تدبير الغير. قال الشيخ الروحانى، وهو ينصح الرهبان الصغار ألا يشتهوا رئاسة مجمع الرهبان: "إن حوربت بهذا الفكر، فقل لنفسك: إن مجمعى هو مجمع أفكارى التى أقامنى الله عليها رئيساً، لكى أدبر أهل بيتى حسناً".

فكن إذن رئيساً على أفكارك ومشاعرك، وأضبطها حسناً. فلا تطيش شرقاً أو غرباً. كن رئيساً على حواسك، على نظرك وسمعك. كن رئيساً على شهوات قلبك واضبطها..

وإن تمكنت من أن تكون رئيساً على نفسك وتضبطها، فأنت الشخص الذى قد تصلح أن تكون رئيساً.

وإذا كنت لم تعرف أن تحكم نفسك، ولا لسانك ولا فكرك، ولا قلبك من الداخل، فكيف تصلح أن تكون رئيساً على غيرك؟! إن لم تكن أميناً على القليل، لا يمكن أن تكون أميناً على الكثير (مت٢٥: ٢١).

✠ ✠ ✠

★يمكنك أيضاً أن تهرب من محبة الرئاسة والكرامة، إن كنت تزهد فى الأمجاد الخارجية.

لأن كل ما يتعلق بالوظائف والمناصب هو عَرَض خارجى لا يتعلق بذاتك فى الداخل. فالكرامة التى يقدمونها الناس لك، هى فى الواقع كرامة يقدمونها للمنصب الذى أنت فيه، وللوظيفة التى تشغلها، وليس لك شخصياً. بحيث إن ابتعدت عنك الوظيفة، ابتعدت عنك كرامتها. ولكن المزمور يقول "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز٤٥) على الرغم من أنها "مشتملة بأطراف موشاة بالذهب، ومزينة بأنواع كثيرة".

مجدك إذن فى شخصيتك، لا فى وظيفتك أو رئاستك.

مجدك فى جوهرك: فى روحياتك، فى طبيعتك، فى عقلك، فى حكمتك، فى كل ما يوجد داخل قلبك من الفضائل والصفات الطيبة.

إن عرفت هذا تزهد فى المناصب والوظائف. وتقول مع السيد الرب: **"مجداً من الناس، لست أقبل"** (يو٥: ٤١)، مريداً المجد الذى يكللك به الله، وليس المجد الذى يمنحك الناس إياه. نعم، مجدك هو فى حكم الله عليك، وليس فى حكم الناس.

كيف تهرب

من محبة المديح والكرامة

إن هروبك من محبة المديح والكرامة ومن محبة الرئاسة يستدعى الآتى :

١ - ينبغى أن تعرف أن المجد الذى تأخذه من الناس هو مجد زائف .

وربما يكون عن جهل. لأن الذين يمدحونك لا يعرفون حقيقتك. لأنهم يحكمون حسب الظاهر. لا يقرأون أفكارك، ولا يعرفون مشاعرك وإحساساتك الداخلية، ولا خطاياك الخفية وسقطاتك.

وبعض الناس قد يمدح على سبيل المجاملة، أو بسبّب التشجيع، والبعض يمدح بسبب أدبه الخاص، أو بسبب التملق، أو لغرض معين فى نفسه. ومديح الناس قد يضرّ الكثيرين ويضللهم، ويبعدهم عن معرفة النفس، وعن تقويمها.

والمسكين الذى يحب المديح يهمه أن يُمدح كيفما كان الأمر، ويلذّ له أن يصدق كل ما يقال فيه خير، سواء عن حق أو عن باطل!

✠ ✠ ✠

٢ - أما أنت فاعرف أن مديح الناس لا يوصلك إلى ملكوت الله .

لأن الله هو فاحص القلوب والكلى (رؤ٢: ٢٣)، وهو العارف الخبايا والأسرار. وفى حكمه عليك، لا يعتمد على كلام الناس عنك.

لذلك ينبغى لك أن تصادق من يوجهك ويوبخك. أما إذا مدحك الناس، فتذكر خطاياك

ونقائصك، واعترافاتك التى تخجلك، والأخطاء البشعة التى وقعت فيها فى حياتك. وبذلك يخف عليك ألم المديح.

✠ ✠ ✠

٣ - قل لنفسك : أنا مازلت سائراً فى الطريق، ولا أعرف كيف سأنتهى؟

والكتاب يقول "أنظروا إلى نهاية سيرتهم" (عب١٣: ٧). فكثيرون بدأوا بالروح، وكملوا بالجسد" (غل٣: ٣). والكتاب يقول أيضاً "من يظن أنه قائم، فلينظر أن لا يسقط" (١كو١٠: ١٢). وما أكثر حروب الشيطان، وما أشد حيله وخداع مكره، فاحفظنى يارب، لأن "الخطية طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء" (أم٧: ٢٦)، وأنا لا أحسب نفسى أقوى من الذين سقطوا...

✠ ✠ ✠

٤ - للهروب من المديح ، سواء مديح الناس، أو مديح نفسك لك، أنظر إلى المستويات التى هى أعلى منك بكثير. فتصغر نفسك فى عينيك.

إنك إن نظرت إلى الخطاة والضعفاء فى مستواهم الروحى، أو إلى من هم أقل منك فضيلة وبراً، ربما بالمقارنة تجد أنك "بار فى عينى نفسك" (أى٣٢: ١). وإن نظرت إلى من هم أقل منك فهماً وعلماً ربما بالمقارنة تصبح "حكيماً فى عينى نفسك" (أم٣: ٧).

إن أولاد الله صاروا متواضعين، لأنهم كانوا باستمرار ينظرون إلى الكمال المطلوب منهم، حسب قول الرب "كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" (مت٥: ٤٨)، وأيضاً إلى قول الرب "كونوا قديسين، لأنى أنا قدوس" (١بط١: ١٦).

وبنظرتهم إلى القداسة والكمال، كانوا يرون أنهم "فى الموازين إلى فوق" (مز٦٢: ٩). فيقول كل منهم لنفسه "وُزنت بالموازين فوُجدت ناقصاً" (دا٥: ٢٧).

كانوا يصلون إلى درجات عظيمة فى الصوم والصلاة والنسك وإنكار الذات وفى كل فضيلة يجاهدون للوصول إليها، كانوا فى نظر أنفسهم ضعفاء ومساكين، لأن المستوى العالى الذى كانوا يتطلعون إليه، مازال بعيداً عنهم. وهناك درجات لم يصلوا إليها!

إذا مدحتك نفسك على فضيلة معينة قد وصلت إليها، فتذكر ما قد وصل إليه الآباء فى هذه الفضيلة بالذات، حينئذ تدرك أنك لا شئ..

✠ ✠ ✠

إذا مدحتك نفسك مثلاً لمواظبتك على صلاة الأجبية، تذكرّ أنك تصلى بعض المزامير.

وهناك آباء كانوا يصلون كل المزامير. ومنهم من كان يقضى الليل كله فى الصلاة. ومن كان يمارس الصلاة الدائمة. ومن كان يصلب فكره فى الصلاة حتى ما يخطر عليه فكر آخر كالتدريب الذى تدرب عليه القديس مكاريوس الاسكندرانى. وتذكر أيضاً الصلاة بخشوع، والصلاة بدموع، والصلاة بحرارة وحب وإيمان.. حينئذ تجد أنك مجرد مبتدئ فى عمل الصلاة. وربما لم تصل بعد إلى درجة مبتدئ؟

وبالمثل قارن نفسك بالدرجات العليا لباقى الفضائل ..

✠ ✠ ✠

فهل يحاربك المجد الباطل، لأنك مدقق فى دفع العشور؟ فهل أنت أيضاً تدفع البكور؟ وإن كنت كذلك، فاعرف أن المسيحية ارتفعت فوق هذا المبدأ فى العطاء، إذ قال الرب "من سألك فاعطه" (مت٥: ٤٢). وقال أيضاً "إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل مالك، وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز فى السماء، وتعال اتبعنى" (مت١٩: ٢١). وإن وصلت إلى هذا، فأمامك قصة لأحد القديسين كان متناهياً فى عمل الرحمة: فباع كل ما يملك وأعطى الفقراء. وإن لم يبقَ له شئ ليعطيه، باع نفسه عبداً، وأعطى ثمن نفسه للفقراء! أقول لك هذا، لا لتفعل مثله، فهذا غير ممكن الآن. وإنما لكى تتضع ...

✠ ✠ ✠

٥ - لكى تهرب من الكرامة، اعرف المعنى الحقيقى للمتكأ الأخير .

فليس المتكأ الأخير أن تجلس فى المكان الأخير. فهناك من يتصرف هكذا لكى يقال عنه إنه متضع. وقد يتخذ المتكأ الأخير من الظاهر، بينما محبة المجد الباطل تقتله من الداخل. فالمتكأ الأخير حقاً، هو أن تشعر فى أعماقك أنك حقاً فى المتكأ الأخير، من جهة المكانة، وليس من جهة المكان. قال أحد الرهبان للقديس تيموثاوس "يا أبى، إنى أرى فكرى مع الله دائماً" فأجابه القديس "الأفضل لك يا ابنى: أن ترى نفسك تحت كل الخليقة".

✠ ✠ ✠

قيل عن إثنين من الرهبان الشبان إنهما دخلا إلى مائدة الدير. وكانت تلك الحين مقسمة إلى موائد للشيوخ وأخرى للشبان. فدعا الشيوخ واحداً منهما أن يجلس معهم فجلس. وأما الآخر فذهب إلى مائدة الشبان. وعند الإنصراف قال هذا الأخير لزميله "كيف تجرأت - وأنت شاب - أن تجلس مع الشيوخ؟" فأجابه "إننى لو جلست على مائدة الشبان، ربما كانوا يقدموننى على أنفسهم فى كل شئ، لأننى أقدم منهم. ولكننى عندما جلست على

مائدة الشيوخ، كنت أشعر بضآلتي وعدم استحقاقي، وبأني لا استحق الكلام. وجلست في استحياء مطرقاً كل الوقت. وكنت في المتكأ الأخير".

✠ ✠ ✠

إذن فحتى لو أجلسك الناس في المتكأ الأول، قل لنفسك: إن كل هؤلاء الناس أفضل مني. إن وقفت مثلاً تدرس الأطفال في مدارس الأحد، اعتبر أنهم ملائكة أفضل منك. واطلب من الله أن تكون في بساطتهم ونقاوتهم وكرامتهم عند الله...

كان أحد مدرسي مدارس الأحد إذا وقع في مشكلة، يطلب من أطفال فصله أن يصلوا من أجله في ضيقته. وكان يقول: إنني جرّبت صلواتهم في مشاكل حياتي. وكنت أشعر إنها قوية ولها مفعول كبير، أكثر من صلواتي الخاصة.

✠ ✠ ✠

٦ - وإن أردت الهروب من محبة المديح، إهرب من محبة الرؤى والمعجزات.

لئلا يعرف الشياطين عنك هذا، فيضلوك برؤى كاذبة من عندهم. ويقول الرسول "إن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور" (٢كو١١: ١٤). ظهر الشيطان مرة لأحد القديسين وقال له "أنا جبرائيل الملاك وقد أرسلني الله إليك". فردّ عليه القديس "لعلك أرسلت إلى غيري وأخطأت الطريق. أما أنا، فإني إنسان خاطئ لا أستحق أن يظهر لي ملاك". قال ماراسحق "إن الذي يرى خطاياه، أفضل ممن يرى ملائكة" .

✠ ✠ ✠

حقاً إن الرؤى لا تخلص نفسك في اليوم الأخير، فلا تطلبها. إنما معرفتك بخطاياك، فهي التي تقودك إلى التوبة وخلاص نفسك.

يدخل في هذا المجال أيضاً من يسعون إلى التكلم بألسنة، لا لتبشير الغرباء عن لغتهم، إنما بسبب الإدعاء إنهم قد وصلوا إلى الملء!! والبعض منهم يقول لغيره: تعالَ لكي أمنحك الروح والملء، فتتكلم بألسنة..!!

✠ ✠ ✠

٧ - إن أردت أن تهرب من المديح، ينبغي أن تخفي أعمالك الفاضلة عن الناس.

لأنك إن كنت تعمل الخير من أجل الله، وليس من أجل كرامة من الناس، فماذا يهمك إن كان الناس يرون هذا الخير منك أو لا يرونه. بل إن إظهار فضائلك لهم، قد يفقدك أجرك عند الله، إذ تكون قد أستوفيت خيراتك على الأرض (مت٦).

في إحدى المرات، تقابل بعض رهبان شيهيت مع الأم ساره، وكشفوا لها أفكارهم.

فقالت لهم: بالحقيقة إنكم إسقيطيون. الذى لكم من الفضائل تخفونه. وما ليس فيكم من النقائص، تنسبونه إلى أنفسكم...

✠ ✠ ✠

وفى مرة أخرى، كان يعيش فى برية شيهيت راهب سورى الأصل. هذا جاء إلى القديس مكاريوس الكبير وقال له "لى سؤال يا أبى: عندما كنت فى سورية، كنت أستطيع أن أصوم كثيراً، وأطوى الأيام صوماً. أما الآن فى مصر فلا أستطيع أن أكمل اليوم صوماً. فلماذا؟". وحيث أن الأديرة فى سورية كانت فى المدن فى وسط الناس، لذلك ردّ عليه القديس مكاريوس قائلاً "لقد كنت تطوى الأيام صوماً، لأنك كنت تتغذى على المجد الباطل، الذى هو مديح الناس لك أثناء الصوم والإنقطاع عن الطعام. أما فى البرية فلا يراك أحد، ولذلك تجوع بسرعة"!

✠ ✠ ✠

لذلك قال القديسون: إن الفضائل إذا عُرفت، تبيد وتنتهى. وبسبب هذا، كانوا يخفون فضائلهم ومعرفتهم وحكمتهم .

أما إن أراد الله أن يظهر فضائلك وحكمتك، فلتكن مشيئته. ولكن لا يكن ذلك منك أنت. فحاذر أن تفتخر بنفسك، أو أن تجلب لنفسك صيتاً حسناً .

الباب السادس :

علاقة الاتضاع بالفضائل والمواهب

- النعمة .
- التوبة والاعتراف .
- الشفقة على المخطئين .
- الإيمان والبساطة .
- التعليم .
- الصلاة .
- احترام الآخرين .
- الانتهار والتوبيخ والمعاقبة .

هناك ثلاث فضائل لابد أن تدخل فى كل فضيلة، كما يدخل الخيط فى حبات السبحة، وبدونها لا تعتبر الفضيلة فضيلة. هذه الثلاث هى الحكمة، والمحبة، والتواضع. فكل فضيلة لابد أن تُمارس بحكمة. وبدون حكمة قد تتحول إلى اسم آخر غير الفضيلة، أو تتشوّه صورتها. وكل فضيلة لابد أن يدخل فيها عنصر المحبة: محبة اللهِ، ومحبة الخير، وأحياناً محبة الناس. وبدون المحبة تفقد الفضيلة قيمتها.

كذلك لابد أن تمارس كل فضيلة فى تواضع قلب، وإلا صارت طعاماً للمجد الباطل كما قال القديسون. ونود فى موضوعنا هذا، أن نتعرض لعلاقة التواضع ببعض الفضائل كمثال، وأيضاً لعلاقته بالمواهب. ولنبدأ بعلاقة التواضع بالنعمة.

النعمة :

يقول الكتاب "يقاوم الله المستكبرين. أما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (يع٤: ٦). النعمة تمنح المواهب. ولكن المتكبر يفتخر بالمواهب، ويرتفع قلبه بها. لذلك يأتمن الرب المتواضعين على نعمته وعلى مواهبه، لأنهم يقولون باستمرار "ليس لنا يارب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعطِ مجداً" (مز١١٥: ١). وهناك كلمة جميلة قالها ماراسحق وهى :

"إذا منحك الله موهبة، فاطلب منه أن يعطيك تواضعاً ليحميها" .

ذلك لأن التواضع يحمى المواهب من الافتخار والمجد الباطل..

لهذا نحن نعجب من الذين يطلبون من اللـه أن يمنحهم موهبة التكلم بألسنة، بينما لا يوجد غرباء لهم لغة مجهولة تحتاج إلى موهبة ألسنة لتبشيرهم. وهكذا يستخدمون الألسنة للمجد الباطل، والإدعاء بأنهم وصلوا إلى "ملء الروح"!!

ما أخطر المواهب على الذين لم يصلوا إلى الاتضاع بعد. إنهم يفرحون بتلك المواهب بسبب (الذات) وارتفاعها! وهنا نتذكر إن السبعين الذين أرسلهم الرب للتبشير، ومنحهم موهبة إخراج الشياطين "رجعوا بفرح قائلين: يارب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك". فوبخهم الرب قائلاً "لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم. بل افرحوا بالحرى أن اسماءكم قد كُتبت في السموات" (لو١٠: ١٧، ٢٠).

✠ ✠ ✠

ونفس الوضع حينما تساعد النعمة إنساناً على اكتساب فضيلة:

إن كان متواضعاً، ينسب الفضل لله وليس لنفسه. ويقول كما قال القديس بولس الرسول "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا" (اكو١٥: ١٠). ويخشى أن يفتخر أو يتكبر، فتسحب النعمة عملها منه فيسقط. بل هو بالأكثر ينكر ذاته، ويحاول أن يخفى فضائله: لا على الناس فقط، بل حتى على نفسه. ولا يتأمل ما هو فيه من فضيلة. بل يحاول أن ينساها. ويتحول شعوره إلى الشكر، لا إلى الفخر...

أما الفضيلة عند المتكبر، فهي عرضة للضياع. ولا تكون فضيلة حقيقية. بل لا يتبرر بها، كما حدث في قصة الفريسي والعشار (لو١٨: ٩-١٤).

ذلك الفريسي وقف في الهيكل مفتخراً بفضائله، حتى أمام الله! فقال "أشكرك يارب أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة، ولا مثل هذا العشار. أنا أصوم مرتين في الأسبوع، وأعشّر كل ما أقتنيه" (لو١٠: ١١، ١٢). هذا الفريسي لم ينكر عمل النعمة معه. ولم ينفعه صومه ولا عشوره، ولا بعده عن بعض الخطايا. لذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً (لو١٠: ١٤).

ننتقل إلى نقطة أخرى . وهي علاقة التواضع بالتوبة :

التوبة :

المتواضع هو الذي يصل إلى التوبة. أما المتكبر فلا يقدر .

المتكبر لا يشعر أن له عيوباً تحتاج إلى إصلاح. أو أنه واقع في خطايا تحتاج إلى توبة. ذلك لأنه "بار في عيني نفسه". والذي يكشف له ضعفاته وأخطاءه وينصحه بالتوبة، لا يقبل ذلك منه، بل يعتبره عدواً..! فكيف يتوب هذا المتكبر، وهو لا يعرف عن نفسه

خطية يتوب عنها؟!

✠ ✠ ✠

أيضاً المتكبر يظن أنه أكبر من أن يخطئ، فلا يحترس . فيسقط .

وبسبب أدعائه القوة، قد يعرّض نفسه إلى مواقع الزلل، في غير مبالاة ولا حرص، فيضربه الشيطان في مقتل. وهكذا قال الكتاب عن الخطية إنها "طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء" (أم٧: ٢٦). والمقصود بكلمة (أقوياء) هنا: من يظنون في أنفسهم أنهم أقوياء.. وقد ذكر مار اسحق أن العجرفة تسبب السقوط فقال إن "المتعجرف بالفضلة يسقط في الخطية، والمتعجرف بالعلم والمعرفة يسقط في البدعة والهرطقة"..

والكتاب يقول "قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم١٦: ١٨).

✠ ✠ ✠

نقطة أخرى وهي أنه : حتى لو اعترف المتكبر بأنه خاطئ، وسعى إلى التوبة، فإنه يعتمد على قوته وإرادته وتداريبه الروحية.

يظن أنه قادر على ضبطه لنفسه. ثم يكتشف عملياً أن نفسه ليست بالقدرة التي تستطيع أن تقاوم كل حين العدو، وأنها لا تقدر أن "تطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة" (أف٦: ١٦). وعلى الرغم من ذلك يتشبث بإدعاء القدرة والصمود!

✠ ✠ ✠

أما المتواضع فيعترف بأنه خاطئ وأنه ضعيف، وأنه محتاج إلى قوة من فوق تساعده على التوبة. ويردد تلك العبارة العميقة:

"توّبني يارب فأتوب" (أر٣١: ١٨).

المتواضع لا يعتمد على نفسه في التوبة. بل من أعماقه يردد قول المزمور: "إنضح عليّ بزوفاك فأطهر. أغسلني فأبيض أكثر من الثلج" "قلباً نقياً إخلق فيّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدده في أحشائي"(مز٥١: ٧، ١٠).

ويقول كما في صلاة الساعة الثالثة "نقّني من دنس الجسد والروح".

وحينما ينعم الله عليه بالتوبة، لا ينسب ذلك إلى جهاده الروحي، بل إلى نعمة الله التي أنقذته من الخطية. فيشكر ولا يفتخر.

✠ ✠ ✠

والمتواضع – إذ يشعر بضعفه – يحترس من أبسط الحروب الروحية.

يحترس من أقل عثرة، ومن الحروب التى تحارب المبتدئين. ويردد ما قاله القديس الأنبا أنطونيوس – فى اتضاعه – للشيطان "أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم"!

وإذ يتوب المتواضع، لا ينسى خطاياه السابقة وضعفاته. بل ينسحق قلبه بسببها، وتمتلئ عيناه بالدموع. كما حدث مع داود فى توبته (مز ٦).

✠ ✠ ✠

إن هناك علاقة متبادلة بين التوبة وتواضع القلب .

التواضع يقود إلى التوبة. والتوبة تقود إلى الإتضاع .

إنها تقود التائب إلى القلب المتخشع والمتواضع الذي لا يرذله الله (مز ٥٠).

ولنأخذ داود كمثال فى توبته واتضاعه وانسحاقه ودموعه، حيث يقول للرب فى مزاميره "لصقت بالتراب نفسي، فأحيني ككلمتك" (مز ١١٩: ٢٥) "ضللت مثل الخروف الضال، فاطلب عبدك" (مز ١١٩: ١٧٦) "خير لى أنك أذللتنى، حتى أتعلم حقوقك" (مز ١١٩: ٧١). ويقول أيضاً "تعبت فى تنهدى. أعوّم كل ليلة سريرى، وبدموعى أبلّ فراشى" "ارحمنى يارب فإنى ضعيف" (مز ٦).

نقطة أخرى تتعلق بالإتضاع . وهى الإعتراف وكشف الأفكار .

الإعتراف :

تواضع الإنسان يساعده على الاعتراف بخطاياه، وكشف أفكاره وحروبه.

أما المتكبر فلا يكشف حروبه وضعفاته. ولذلك تبقى بدون علاج.

المتواضع فى اعترافه يذلّ نفسه. ويرى أن هذا نافع له حتى لا يرجع إلى الخطأ مرة أخرى. أو يهرب من ذلك بحجة أنه لا يريد أن يكون عثرة. أو يمنعه الخجل.

الشيطان يبعد الخجل عن الإنسان أثناء إرتكاب الخطية. ويضع أمامه الخجل فى وقت الاعتراف. أما المتواضع فينتصر على خجله باتضاعه .

ومعرفة المتواضع بضعفاته وسقطاته تقوده إلى نقطة أخرى وهى :

الشفقة على المخطئين :

إنه يشفق على الخطاة ويقابلهم بحنو، لأنه عارف بضعف البشرية وقوة حروب الشيطان. ويضع أمامه قول القديس بولس الرسول:

"أذكروا المقيدين، كأنكم مقيدون معهم. واذكروا المذلين كأنكم أنتم أيضاً فى الجسد" (عب١٣: ٣).

ويذكر قول الرسول أيضاً "ناظراً إلى نفسك لئلا تُجرب أنت أيضاً" (غل٦: ١).

المتواضع إن رأى خاطئاً، يقول فى نفسه "كلنا تحت الضعف". ويذكر أنه قد قيل عن إيليا النبى "إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا" (يع٥: ١٧)، مع أنه بصلاته أغلق السماء فلم تمطر، ثم صلى فأمطرت.

✠ ✠ ✠

المتواضع يستر على الخطاة، لشعوره أنه محتاج إلى الستر مثلهم.

إنه يرحمهم فى سقوطهم، حسب قول الآباء "من يرحم، باب الرحمة مفتوح أمامه" وكما يقول الرب "طوبى للرحماء، فإنهم يُرحمون" (مت٥: ٧). ويقول فى قلبه "أرحم غيرى لكى يرحمنى الله. وأنا مثلهم خاطئ محتاج إلى الرحمة. وما يزرعه الإنسان، إياه يحصد. والرب يقول "بالكيل الذى به تكيلون، يُكال لكم" (مت٧: ٢).

✠ ✠ ✠

المتواضع فى رحمته على الخطاة والضعفاء، لا يفرز المستحق من غير مستحق.. إذ يقول: لو كانت الرحمة للمستحقين فقط، فأنا غير مستحق.

والرب إلهنا الحنون، قد قيل عنه إنه "يشرق شمسه على الأشرار والصالحين. ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت٥: ٤٥). لذلك فالمتواضع لا يتشامخ على أحد، ولا يحتد ولا يدين. بل يعامل الكل بشفقة وحنان وحب. حتى الذين يؤذونه، يرحمهم أيضاً. ينظر إلى احتياجهم، وليس إلى انتقام نفسه لنفسه.

أما المتكبر فهو غير ذلك. قد ينظر إلى الخطاة فى اشمئزاز وتعالٍ كما تنظر قمة الجبل إلى المستنقع فى أسفل الوادى. وكأن هذا المتكبر لم يخطئ ولن يخطئ!! لذلك فهو يدين الخطاة ويزدرى بهم. وقد يشهّر بهم أيضاً .

الإيمان والبساطة :

★**المتواضع له بساطة القلب التي تقبل من الله كل شيء**، دون مجادلة ودون شك. مثل بساطة الأطفال الذين يتلقون قواعد الإيمان، فيقبلونها دون مجادلة. ولهذا قال الرب "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السموات" (مت١٨: ٣).

على أن كثيراً من الناس كلما تنمو عقولهم، تقف عقولهم ضد بساطة الإيمان، ولا يقبلون إلا ما تستطيع عقولهم أن تستوعبه عن الله وعن حكمته ووصاياه! بينما عقولهم محدودة، والله غير محدود. ولا يستطيع المحدود أن يستوعب غير المحدود.

✠ ✠ ✠

★**وهكذا فإن بعض الفلاسفة إنحدروا إلى الإلحاد، إذ أنهم في كبرياء المعرفة اعتزوا بعقولهم، ورفضوا الله الذي لا يرونه ولا يلمسونه.**

يُروى عن أحد الفلاسفة أنه مرّ في طريقه على أحد الحقول، ورأى فيه فلاحاً راكعاً يصلي. فوقف يتأمله في تعجب. وقال في نفسه "أنا مستعد أن أتنازل عن نصف فلسفتي، إذ مُتحت بساطة هذا الفلاح الذي بكل ثقة يتكلم في صلاته مع كائن لا يراه"!!

ونرى في هذه القصة مثالاً عن تواضع البساطة التي تقود إلى الإيمان، إلى جوار "المعرفة التي تنفخ" (١كو٨: ١)، وتقود إلى الكبرياء الذي ينكر وجود الله! عجيب هذا الأمر جداً: أن العقل وهو هبة من الله للإنسان، يستخدمه الإنسان لينكر الله الذي وهبه إياه. وإذ بالفيلسوف الذي قد يكون أكبر الناس عقلاً، يتحول في كبرياء العقل إلى الجهل بالله. وصدق المرنم حينما قال في المزمور "قال الجاهل في قلبه ليس إله" (مز١٤: ١).

✠ ✠ ✠

★**في كبرياء العقل أيضاً ينكر المعجزة .**

ينكرها لأنه لم يفهمها، فيدعي أن المعجزة ضد العقل!

والواقع أن المعجزة ليست ضد العقل، إنما هي مستوى أعلى من العقل. يقبلها إيمان المتواضع، ويرفضها العقل المتكبر. ولهذا فإن المتواضعين يطلبون من الله المعجزة وقد يهبهم إياها إن كانت توافق مشيئته. بينما المتكبر لا يطلب المعجزة. وإن حدثت أمامه، يحاول أن يرجعها إلى أسباب طبيعية، أو يقابلها بتعجب دون أن يرجعها إلى الله..

✠ ✠ ✠

★**ومن المعجزات التي ينكرها العقل المتكبر : الخلق والقيامة .**

بينما كل المؤمنين بالله فى العالم أجمع يؤمنون بالخلق من العدم، ويؤمنون بالقيامة من الموت. ويصدقون – فى اتضاع وبساطة – ما قالته كتب الوحى الإلهى عنهما. فى إنكار الخلق، قال الغنوسيون إن المادة أزلية، بينما لا يوجد أزلى إلا الله وحده...

وماذا أيضاً عن الحياة؟ لا يمكن أن تكون الحياة الأرضية أزلية. لأنه مرّ وقت كانت فيه الأرض قطعة ملتهبة، حينما انفصلت عن المجموعة الشمسية. وكانت حرارتها لا تسمح بوجود حياة لبشر أو حيوان أو إنسان. فمن أين إذن أتت الحياة؟ لاشك من الله. وهنا يتفق العقل مع الإيمان. ولكن المتكبرين يرفضون قبول الله، لأن عقولهم ترفض أن تتنازل عن كبريائها، وتريد أن تستوعب فكرة وجود الله..!

وغالبية الفلاسفة ترفض عقولهم فكرة القيامة بسبب الكبرياء التى ترفض كل ما لا تفهمه! ألسنا بالنسبة إلى كثير من المخترعات الحديثة: نقبلها دون أن نفهمها؟! ولا يفهمها إلا المتخصصون فى العلم الخاص بها..!

✠ ✠ ✠

الرؤى أيضاً والظهورات الروحية، يراها المتواضعون ببساطة قلوبهم ...

يقبلونها ، ويفرحون بها، بل وينتظرونها ويتهللون برؤيتها. بينما المتكبرون قد لا يرون لأن قلوبهم غير مستعدة، أو لأن الكبرياء تعوق الإيمان. أو لأنهم حتى إن رأوا نوراً إلهياً، يحاولون أن يرفضوا مصدره الإلهى، زاعمين تخمينات لا يسندها العقل ولا الواقع، مثل الليزر والأطباق الطائرة!! وتسألهم عن مصدر ذلك الليزر وتلك الأطباق الطائرة، وعلاقتها بتلك الرؤى، فلا يجيبون.. مجرد الرفض هو الأساس فى تفكيرهم، ويخونهم العقل، وينقصهم الإيمان، بسبب الكبرياء ...

✠ ✠ ✠

★نفس الوضع بالنسبة إلى الكتب المقدسة: يقبلها المتواضعون بإيمان وفرح. بينما الكبرياء تقود البعض إلى النقد الكتابى Biblical Criticism.

يجعلون عقولهم مشرفة على الكتاب المقدس. تحلله وتنقده، وتقبل فقط ما تقبله عقولهم، وترفض الباقى. وأيضاً تضع الكتاب المقدس خاضعاً لأهواء الناس، يرفضون منه ما لا يوافق أهواءهم. مثل المؤيدين للشواذ جنسياً أو الخائفين منهم، أو المشجعين للشذوذ الجنسى Homosexuality، هؤلاء يرفضون آيات الكتاب التى تدين هذا الشذوذ.

ليس لهم التواضع الذى يقبل كلام الله ويطيعه. بل فى كبرياء لا يقبلون ما لا

يستطيعون طاعته بسبب شهوات قلوبهم! وهناك ما ترفضه عقولهم، لا لأنه ضد العقل. وإنما لأن عقولهم ليست حرّة، بل هى مقيدة بقيود أهوائهم وشهواتهم.

✠ ✠ ✠

★والمتكبرون لهم أيضاً أسلوبهم فى ترجمة الكتاب المقدس وفى تفسيره .

فالبعض قد يترجم الكتاب ترجمة توافق معتقداته، فيحرف فيه ويغير. مثلما فعل شهود يهوه فى ترجمتهم التى أسموها (ترجمة العالم الجديد للكتاب):

. New World Translation of The Scripture

ففيها آيات كثيرة محرفة فى مدلولها وألفاظها لتثبت ما ينادون به من بدع وهرطقات. ويستخدمون هذه الترجمة فى كتبهم ويضلون بها الناس.

والمتكبرون أيضاً يفسرون حسب هواهم وفهمهم ونوع عقلياتهم، ولو أدّى الأمر أن ينشئوا مذهباً جديداً. ولهذا السبب كثرت المذاهب فى بلاد الغرب، وتعددت طوائفهم.

أما المتواضعون فليسوا كذلك. إنهم يقبلون الكتاب كما هو، ولا يخلطونه بنوعية عقولهم فى الترجمة أو التفسير. ويعتمدون فى معناه ومفهومه على ما وصل إليهم من التقليد Tradition ومن أقوال الآباء وتفسيراتهم .

كل هذا يقودنا إلى نقطة أخرى هى علاقة التواضع بالتعليم .

التعليم :

★ونود أن نطرق هذه النقطة من ناحيتين هما :

تعليم الإنسان لغيره، وقبول الإنسان للتعليم من غيره .

فالمتكبر يحب أن يأخذ صفة المعلم، ويرى فى نفسه الكفاءة أن يعلّم غيره. أما المتواضع فإنه يفضّل باستمرار أن يتعلم، لكى ينال معرفة، أو لكى يزداد فى المعرفة. وهو مستعد أن يتلقى العلم ويقبله، حتى لو أتاه فى صورة توبيخ، أو إن أتاه ممن هو أصغر منه. بل هو بنفسه يطلب العلم.

✠ ✠ ✠

وأمامنا قصص من سير القديسين فى قبول التعليم وفى طلبه:

★القديس الأنبا أنطونيوس فى بدء رهبنته، كان يجلس على حافة القرية يتعلم الفضيلة من النساك هناك. وفى أحد الأيام أتت امرأة لكى تستحم فى النهر، وبدأت تخلع ملابسها

أمامه. فقال لها "يا امرأة، أما تستحين أن تتعرى أمامي وأنا راهب؟!" فقالت له في استهزاء "من قال إنك راهب؟! لو كنت راهباً، لدخلت إلى البرية الجوانية. لأن هذا المكان لا يصلح لسكنى الرهبان". فاستمع الأنبا أنطونيوس إلى اجابتها في اتضاع شديد، واعتبر أنها رسالة من الله إليه على فمها. وفعلاً ترك المكان ودخل إلى البرية الجوانية.

✠ ✠ ✠

والقديس أنبا مقار الكبير، أخذ نصيحة من صبى راعى بقر .

والقديس الأنبا موسى الأسود، سأل زكريا الصبى كلمة منفعة. فلما قال له الصبى "أنت عمود البرية ومنارتها وتطلب منى؟!" أجابه القديس "أنا واثق يا ابنى، بالروح الذى فيك، أن عندك كلاماً ينقصنى معرفته".

والبابا ثاوفيلس ، الثالث والعشرون فى عداد البطاركة، كان يذهب أحياناً إلى البرية ليطلب كلمة منفعة من أحد المتوحدين مثل الأنبا أرسانيوس والأنبا بفنوتيوس. حتى حينما كان يعتذر البعض منهم عن لقائه، كان يمضى منتفعاً!

✠ ✠ ✠

★والمتكبر "حكيم فى عينىّ نفسه" يتباهى بمعرفته. لذلك لا يطلب المعرفة من غيره!

وفى كبريائه، لا يجد أحداً أكثر منه معرفة حتى يطلب منه مزيداً من العلم. بعكس المتواضع الذى لا مانع عنده من أن يسأل. ولا مانع من أن يقول عن أحد الأمور "لا أعرف". وهو يستمع إلى كلام غيره ليستفيد. أما المتكبر فإنه يقاطع غيره إذا تكلم، لكى يثبت رأيه هو وكلمته. وهو كثير الجدل والنقاش.

✠ ✠ ✠

★المتواضع يضع أمامه قول الرسول: لا تكونوا معلمين كثيرين يا أخوتى، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا" (يع٣: ١، ٢).

لذلك فهو يحترس جداً فى مسائل التعليم لئلا يخطئ. ولا مانع لديه من أن يستشير ليتأكد، أو يرجع إلى المصادر الرئيسية ليرى أن تعليمه موافق لعقيدة الكنيسة وأقوال الآباء، وبخاصة لو كان بصدد فكر جديد.

✠ ✠ ✠

أما المتكبر فبكل جرأة يقدم تعليماً جديداً. وقد يقع بذلك فى بدعة .

إنه يفرح بأن يطرق أموراً عويصة قد تكون فوق مستواه "ويرتئى فوق ما ينبغى" (رو١٢: ١٣). ويبدى الرأى كأنه عقيدة جديدة محاولاً إثباتها! وإن عارضته الكنيسة

يتشبث بفكره، وتمنعه كبرياؤه من التنازل عما علّم به. وهكذا يقع فى الهرطقة. وقد حدث ذلك مع ترتليانوس، وأوريجانوس، وآريوس، ونسطور" . وفى هذا المجال أتذكر أننى كتبت بضع مقالات بعنوان :

"البدعة كالكبرياء . كل قتلاها أقوياء" .

لذلك ما أجمل قول السيد الرب "أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال" (مت١١: ٢٥).

نعم، إن المتواضعين هم الذين ينالون حكمة من فوق، لأنهم يطلبونها. أما المتكبرون فتخفى عنهم الحكمة الإلهية، لأنهم مكتفون بحكمتهم البشرية. وهكذا رفض الله حكمة هذا العالم المغرور بحكمته (١كو١: ٢٠). وأصبحت كثير من فلسفات العالم تقود إلى الشك والبلبلة .

عَلاقة التواضع بالصّلاة

حاجته إلى الصّلاة :

الإنسان المتواضع هو إنسان شاعر بضعفه وباحتياجه إلى قوة تسنده، لذلك فهو دائماً يصلى، طالباً هذه القوة.

إنه يتذكر دائماً قول الرب "بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً" (يو١٥: ٥). لذلك فهو دائماً يتطلع إلى الله، ويقول له: أنت معينى يارب، منك استمد المشورة والقوة التى بها أعمل عملاً. بل منك استمد حتى مجرد الرغبة فى عمل الخير. أليس الرسول يقول "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة" (فى٢: ١٣). إذن إعمل فىّ يارب لكى أريد...

وأحياناً يارب أريد "الإرادة حاضرة عندى. ولكن أن أفعل الحسنى، فلست أجد. لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده. بل الشر الذى لست أريده، إياه أفعل!" (رو٧: ١٨، ١٩).

حياتى الروحية هى بين يديك: أنت تعطينى الرغبة، وتعطينى القوة للعمل.

وأنت أيضاً تعطينى الاستمرارية فى عمل ما يرضيك، وعدم النكسة فى الرجوع إلى الوراء، أو فى الفتور...

✠ ✠ ✠

أما المتكبر ، فهو واثق بنفسه وبقدرته، لذلك فهو لا يطلب. إنه نادراً ما يصلى، لأنه لا يشعر بالاحتياج إلى الصلاة!! إنه يعتمد على ذراعه البشرى وليس على ذراع الله! حتى إن كان خادماً فى الكنيسة، يندر أن يصلى لأجل ذلك لأنه "حكيم فى عينى نفسه". يعرف جيداً ما سوف يقول، ويفهم ما يريد أن يقوله. ناسياً قول الكتاب "توكل على الرب بكل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد" "لا تكن حكيماً فى عينى نفسك" (أم٣: ٥، ٧).

المتكبر يشعر بقوته الذاتية، فلا يصلى طالباً قوة. تكفيه قوته!

لهذا كتبت مرةً فى مذكرتى الخاصة هذه العبارة :

قال الشيطان لله: "أترك لى الأقوياء، فإنى كفيل بهم. أما الضعفاء فإذ يشعرون بضعفهم، يطلبون القوة منك، فتعطيهم ، فلا أقدر عليهم".

نعم المتواضع الشاعر بضعفه، إنما يحارب العدو بقوة الله التى يحصل عليها بالصلاة، وبها ينتصر. فيسبح الله ويقول "قوتى وتسبحتى هو الرب، وقد صار لى خلاصاً" (مز١١٨: ١٤).

طريقة الصلاة :

المتواضع أيضاً يتميز بالخشوع فى صلاته.. إنه يشعر بضآلته، وهو يكلم ملك الملوك ورب الأرباب (رؤ١٩: ١٦) خالق السموات والأرض.

وهكذا يقول له: من أنا يارب حتى أتحدث إليك؟! ومن أنا حتى تميل بإذنك وتسمعنى؟! إن كان ابراهيم أبو الآباء والانبياء – حينما تحدث إليك – قال "عزمت أن أكلم المولى، وأنا تراب ورماد" (تك١٨: ٢٧)، فماذا أقول أنا؟! أنا الذى لست شيئاً...

من أنا حتى أكلمك، أنت الذى يقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة، الشاروبيم والسارافيم. "ألوف ألوف وقوف قدامك، وربوات ربوات يقدمون لك الخدمة". كيف أحشر نفسى وسط طغمات القديسين وأتحدث إليك؟!

✠ ✠ ✠

المتواضع يبدأ صلاته بالسجود والركوع، ويتمجيد الله.

وإن وقف يصلى ، يرفع يديه إلى فوق، ويحفظ حواسه جيداً حتى لا تنشغل بشئ أثناء صلاته، مما يتعارض مع مهابته لله.

إن سفر الرؤيا يرينا صورة عجيبة من المهابة والخشوع. فيها يخرّ الأربعة والعشرون قسيساً قدام الجالس على العرش، ويسجدون للحىّ إلى أبد الآبدين. ويطرحون أكاليلهم قائلين: أنتَ مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة.." (رؤ٤: ١٠، ١١).

فإن كان أولئك السماويون لابسو الأكاليل التى من ذهب يفعلون هكذا فى خشوعهم أمام الله، فكم خشوع يجب علينا نحن الأرضيين؟!

✠ ✠ ✠

حقاً، إنه تنازل من الله أن يقبلنا مصلين، وأن ينصت إلينا ونحن نصلى. لذلك فالمتواضع يقول فى صلاته: "لتدخل طلبتى إلى حضرتك" (مز١١٩)...

مجرد دخول صلواتنا إلى حضرة الله، أمر لا نستحقه. ففى اتضاع قلب، نطلب من الله أن يقبل صلواتنا، وأن يسمعنا.. لأنه ليست كل الصلوات مقبولة. كصلاة الفريسى التى كانت بكبرياء قلب، وكصلوات أولئك الذين قال لهم الرب فى سفر أشعياء النبى "حين تبسطون أيديكم، أستر وجهى عنكم. وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً" (أش١: ١٥).

عدم الاستحقاق :

والإنسان المتواضع، يذكر فى صلاته أنه غير مستحق، معترفاً بخطاياه. كما فى صلاة الاستعداد التى يصليها الأب الكاهن قبل القداس:

ويقول فيها : أيها الرب العارف قلب كل أحد، القدوس المستريح فى قديسيه. الذى بلا خطية وحده، القادر على مغفرة الخطايا.. أنت يارب تعلم أنى غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب. وليس لى وجه أن أقترب وافتح فاى أمام مجدك الأقدس".

ثم يقول "بل ككثرة رأفاتك اغفر لى أنا الخاطئ. وامنحنى أن أجد نعمة فى هذه الساعة. وارسل لى قوة من العلاء، لكى ابتدئ وأهيئ وأكمل خدمتك المقدسة كما يرضيك". ثم يقول أيضاً "أنت دعوتنا نحن عبيدك الأذلاء غير المستحقين لنكون خداماً لمذبحك المقدس.. أعطِ يارب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطاياى وجهالات شعبك..".

إنها صلاة كلها اتضاع. ليتنا نتأمل معها تواضع القديسين فى صلواتهم.

وهذا موضوع طويل، لست أرى هذا المقال يتسع له. بل ليتنا أيضاً نتأمل التواضع في باقي صلوات القداس الإلهي، وفي صلوات الأجبية... لنرى ليس فقط العلاقة بين التواضع والصلاة، بل بالحرى التواضع في الصلاة...

التواضع في الطلب :

إذا وصل الإنسان إلى التواضع في عمقه، لا يجد شيئاً يطلبه...

يقول للرب: ماذا أطلب، وأنت "لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك". أنت يارب ترعاني، فلا يعوزني شيء.." (مز٢٣: ١). كل ما قد أعطيتني حتى الآن هو كثير عليّ. اعطيتني فوق ما أطلب، وفوق ما استحق، بحيث أشعر بفيض منك، لا ينقصه شئ يزاد عليه.

❋ ❋ ❋

ثم أنني يارب لا أعرف ما هو الصالح لي لأطلبه..

أنت الذي تعرف ما أحتاج أنا إليه. تعرف ما ينفعني إليه،وتعطيني إياه دون أن أطلب. جرأة مني أن أذكّرك بما يحسن في عينيك أن تعمله لأجلي، جسب وفرة حنان أبوتك. كل ما أطلبه هو أن تغفر لي خطاياي، كذلك أطلب ملكوتك في حياتي، كما سبق أن علمتنا "لا تهتموا بما للغد" "أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزاد لكم" (مت٦: ٣٤، ٣٣).

❋ ❋ ❋

كذلك أنا يارب في خجل أن أطلب، على الرغم مما أقترفته من خطايا!

استحي من الطلب، وقد خالفت الكثير من وصاياك، وقصرّت في واجباتي من نحوك. ولم تعد لي دالة أطلب بها شيئاً. الخجل يغطي وجهي، وتذكّر خطاياي يعقد لساني عن الطلب. أنت تعرف يارب كل شئ.

❋ ❋ ❋

وأيضاً كيف أطلب شيئاً جديداً، وأنا لم أشكر على عطاياك السابقة؟!

أقول "باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني ليبارك أسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب، ولا تنسى كل احساناته" (مز١٠٣: ١، ٢). أنت يارب قد أعطيتني الكثير والكثير، ولم أشكر بعد على كل ما غرقتني به من كرمك. فليتني أحيا حياة الشكر لا الطلب. أقول مع المرتل في المزمور: "بماذا أكافئ الرب عن كل ما أعطانيه؟! كأس الخلاص آخذ،

وباسم الرب أدعو.. قدام كل شعبه" (مز ١١٦).

❋ ❋ ❋

إن وضعنا أمامنا كل هذا، يستحيل على المتواضع أن يطلب العظائم!

إن كان ما معه كثيراً عليه، فكيف يُعقل أن يطلب عظائم الأمور؟! لهذا فإن المتواضع لا يطلب المواهب العالية. لا يطلب أن يصنع القوات والعجائب، ولا أن يتكلم بألسنة (اكو ١٢). يقول لنفسه: إن كنت لم أسلك فى المستوى الطبيعى العادى الذى يليق بأولاد الله، فكيف أطلب من الله ما هو فوق الطبيعة؟! وهل أنا أستطيع أن أحتمل تلك المواهب، أم تقودنى إلى الكبرياء والمجد الباطل، إن حدث ونلت شيئاً منها..!

لذلك فالمتواضع "لا يرتئى فوق ما ينبغى أن يرتئى" (رو١٢: ٣). ولا يطلب نصيباً من الإيمان غير ما قسمه الرب له... لاشك أن الشخص الذى فى صلاته يطلب العظائم والمواهب الفائقة، هذا يوجد فى قلبه شئ من حب العظمة، شعر بذلك أو لم يشعر!

يطلب الصلاة لأجله:

والمتواضع أيضاً - إذ يشعر بضعف صلواته، وقلة دالته عند الله - فهو لا يكف عن طلب صلوات الناس من أجله، وشفاعة القديسين..

إن القديس بولس العظيم، كان يقول "صلوا لأجلنا" (اتس٥: ٢٥) (عب١٣: ١٨). بل حتى فى خدمته ومن جهة عظاته، نراه يقول فى رسالته إلى أهل أفسس "مصلين بكل صلاة وطلبة، كل وقت فى الروح.. لأجل جميع القديسين ولأجلى، لكى يُعطى لى كلام عند افتتاح فمى، لأعلم جهراً بسرّ الإنجيل" (أف٦: ١٨، ١٩). فإن كان القديس بولس الذى اختطف إلى السماء الثالثة (٢كو١٢: ٤).. يطلب فى تواضعه الصلاة من أجله، فماذا نفعل نحن الضعفاء؟! ألسنا نسند ضعفنا بطلب الصلاة لأجلنا، من أخوتنا الأحياء معنا على الأرض، ومن الذين انتقلوا.. بغير غرور أن صلواتنا فيها الكفاية!

❋ ❋ ❋

نقطة أخيرة أقولها فى خجل: إن المتكبر قد يدّعى أنه ليس لديه وقت للصلاة!

كما لو كان غير محتاج إلى الصلاة! أو أنه فى صلاته يعطى وقتاً لله!! أما المتواضع فيصلى لأنه محتاج إلى الله فى كل شئ، وفى كل وقت. ويرى الصلاة عوناً له، وأيضاً بركة له، إذ يتكلم مع الله، ويقف فى حضرته...

التواضع واحترام الآخرين

الإنسان المتواضع يحترم غيره، كبيراً كان أم صغيراً. أما المتكبر فإنه يتعالى على من هو أصغر منه، ولا يحترم الكبار سواء فى الكلام أو التصرف.

مثال المسيح :

إن ربنا يسوع المسيح، رب المجد، فى كل عظمته وفى لاهوته غير المحدود، يقدم لنا مثالاً فى ذهابه ليعتمد من يوحنا. ولما قال له يوحنا "أنا المحتاج أن أعتمد منك"، نراه يجيبه بعبارة كلها اتضاع "اسمح الآن" (مت٣: ١٤، ١٥).

ما أعجب هذا السيد، يقول لأحد عبيده: اسمح الآن!!

✠ ✠ ✠

وفى احترام الآخرين، نراه خاضعاً للناموس فى كل شئ: عندما شفى الرجل الأبرص، قال له: "إذهب أرِ نفسك للكاهن، وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم" (مت٨: ٤). عجيب أن رئيس الكهنة الأعظم يقول له "اذهب أرِ نفسك للكاهن"!!. إنه يعطى لكل ذى حق حقه.. كذلك عندما دعا شاول الطرسوسى، أرسله إلى حنانيا (أع٩). ولما قبل إليه كرنيليوس الأممى، أرسله إلى بطرس الرسول.

✠ ✠ ✠

بل الأعجب من هذا كله، أنه حينما جاء يهوذا الخائن ليسلّمه بقبلة، قال له "يا صاحب لماذا جئت؟" (مت٢٦: ٥٠).

يقول للخائن "يا صاحب"، لأنه لا يريد أن يخدش شعوره!!

نفس الوضع فى تعامله مع المرأة السامرية: لم يوبخها على خطاياها، ولم يحدثها عن التوبة والندم، بل كلمها إيجابياً عن الماء الحى، وعن السجود لله بالروح والحق. ولما بدأ يمس حياتها الخاصة، قال لها "كان لك خمسة أزواج" (يو٤: ١٨). وفى الواقع لم يكونوا أزواجاً لها، ولكنه تحاشى الوصف الجارح لعلاقتها بهم، حرصاً على شعورها. وحتى هذه العبارة بدأها بقوله لها "حسناً قلتِ" وختمها بقوله "هذا قلتِ بالصدق.." .

بنفس هذا الأسلوب الرقيق، لم يخدش شعور المرأة "المضبوطة فى ذات الفعل" بل أنقذها من الذين يطلبون رجمها ولما مشوا، قال لها "ولا أنا أدينك. اذهبى ولا تخطئى أيضاً" (يو٨: ٢- ١١).

✠ ✠ ✠

وفى احترامه للأمومة، كان خاضعاً لأمه مريم وليوسف (لو٢: ٥١).

ولما طلبت منه إجراء معجزة فى عرس قانا الجليل - مع أن ساعته لم تكن قد أتت بعد - (يو٢: ٤)، استجاب لطلبتها، ونفذ لها ما أرادت.

وفى احترامه لتلاميذه، ولو أنى لا أريد لاهوتياً أن استخدم هنا كلمة احترام، ولكن عذرى أن اللغة عاجزة عن التعبير، نراه يقول لهم:

"لا أعود أسميكم عبيداً.. لكنى قد سميتكم أحباء" (يو١٥: ١٥).

بل أكثر من هذا سمّاهم أخوة لها. وقال للمجدلية بعد القيامة "اذهبى إلى أخوتى وقولى لهم.." (يو٢٠: ١٧). إنه لم يستحِ أن يدعوهم أخوة (عب٢: ١١) بل أكثر من هذا أيضاً، قال عنهم للآب "المجد الذى أعطيتنى، قد أعطيتهم" (يو١٧: ٢٢). وأعطاهم احتراماً فى نظر الناس بالمواهب التى منحهم إياها..

إحترام الكبار:

الإنسان المتواضع يتكلم عن كل شخص باحترام، ويتصف باللطف فى حديثه مع كل أحد، وبخاصة مع كبار السن. كما يقول القديس بولس الرسول لتيموثاوس الأسقف:

لا تنتهر شيخاً، بل عظه كأب، والأحداث كأخوة، والعجائز كأمهات" (١تى٥: ١).

مع أن القديس تيموثاوس كان أسقفاً، وكل هؤلاء يعتبرون أبناء له من جهة كهنوتية، ولكنه يجب أن يعاملهم باحترام معين كآباء وأمهات وأخوة. والقديس بولس الرسول نفسه

اتبع نفس هذا الأسلوب، فقال فى رسالته إلى روميه "سلموا على روفس المختار فى الرب، وعلى أمه أمى" (رو١٦: ١٣).

ليس فقط في احترام كبار السن، كآباء وأمهات، بل حتى فى التعامل مع الصغار "الأحداث كأخوة، والحدثات كأخوات (١تى٥: ١).

✠ ✠ ✠

واحترام الشيوخ والآباء، نجده واضحاً جداً فى "بستان الرهبان" .

وكذلك فى جميع سير القديسين: فالقديس بولس البسيط حينما كان يتكلم عن معلمه الأنبا أنطونيوس، كان يقول "أبى القديس الأنبا أنطونيوس". ولما أحضروا إليه شخصاً عليه شيطان ليخرجه منه، قال للشيطان: "أبى القديس الأنبا أنطونيوس يقول لك أخْرج منه. بصلاة أبى القديس أخرج منه". تعبير جميل..

✠ ✠ ✠

يذكرنا هذا بقصة عن القديس يوحنا القصير حينما أرسله أبوه الروحى القديس الأنبا بموا ليحضر له ضبعة من مكان معين. فذهب إلى هناك ولم يخف. ولما رأى الضبعة، جرى وراءها، وقال لها: أبى القديس الأنبا بموا يقول لكِ تعالى...

وما أكثر ما كان أحد الرهبان يقع فى ضيقة، فيقول للرب "بصلاة أبى، يارب نجنى"..

حقاً إن الاستشفاع بالقديسين فيه لون من الاتضاع..

✠ ✠ ✠

إن أول وصية فى العلاقات البشرية هى: أكرم أباك وأمك (خر٢٠: ١٢).

سواء الروحيين منهم أو الجسديين. ومن مظاهر هذا الإكرام، الاحترام.

قال القديس الأنبا بيجيمى السائح: فى بدء رهبنتى، قضيت سنوات مع آباء شيوخ أبرار، لم أرفع عينىّ لأرى وجه واحد منهم.

كان الرهبان عندهم هذا اللون من الحياء، الذى يدل على أدب فى التعامل فما كان أحدهم يملأ عينيه من وجه إنسان، كما ينصح الشيخ الروحانى.

✠ ✠ ✠

ومن احترام الكبار، ذلك المبدأ الرهبانى الذى يقول:

إذا جلست وسط الشيوخ فكن صامتاً. وإن سألوك عن شئ، فقل لا أعرف.

يقصد: لا أعرف المعرفة التى استطيع أن أتكلم بها أمام الكبار. فإن جلسنا مع الكبار،

فإنما لكى نتعلم، وليس أن نتكلم.

ونرى أمثولة لهذا الأمر: اليهو فى قصة أيوب الصديق:

أصحاب أيوب الصديق تبادلوا الكلام معه فى ٢٨ إصحاحاً من سفر أيوب. وكان معهم رابع هو أليهو، ظل صامتاً طول ذلك الوقت كله. ولما حانت الفرصة له أن يتكلم، قال:

"أنا صغير فى الأيام، وأنتم شيوخ. لأجل ذلك خفت وخشيت أن أبدى لكم رأيى. قلت الأيام تتكلم، وكثرة السنين تظهر حكمة" (أى٣٢: ٦، ٧).

حقاً، كان الصغير لا يتكلم فى حضرة الكبار، إنما ينصت ويتعلم. يأخذ من الكبار خبرة الأيام، وحكمة التجارب التى مرت عليهم.. ويحترم سنهم..

✠ ✠ ✠

وكان هذا الأمر فى الرتب الكهنوتية: فى وجود أحد الآباء الأساقفة، لا يستطيع كاهن أو شماس أن يلبس التونية لخدمة المذبح، إن لم يقدمها للأب الأسقف ليرشمها له.. وإن احتاج أسقف إلى تحليل، وقال لأحد الآباء القسوس "حاللنى"، يرد عليه قائلاً "من فمك الحِلّ يا سيدنا"..

من احترام الكهنوت الذى تعلمه لنا الكنيسة، أن نقول للأب الكاهن يا أبانا، ونقول للأب الأسقف يا سيدنا. ونقبّل يد كل منهما. وقديماً، وفى الريف، كان الشخص يقبّل يد أبيه، ويد أمه، ويد جده، ويطلب بركتهم. إنه لون من احترام الكبار.

✠ ✠ ✠

فى الاتضاع، يوجد احترام الأبوة، واحترام الكبار، واحترام الكهنوت .

يقول الكتاب "الخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام، (رو١٣: ٧). إن داود النبى كان يحترم شاول الملك احتراماً فائقاً، على الرغم من أن شاول قد فارقه روح الرب، وبغته روح ردئ من قبل الرب" (١صم١٦: ٤). وكان داود يقول "حاشا لى أن أمد يدى إلى مسيح الرب. إنه مسيح الرب هو" (١صم٢٤: ٦). وكان يخاطبه بعبارة أبى، وسيدى (١صم٢٤: ١٠، ١١).

والقوانين الكنسية تقول: إن كان من يقول لأخيه يا أحمق يستحق نار جهنم (مت٥: ٢٢) فكم بالأكثر من يقول كلمة سوء على أسقفه، الذى يوضع يده ينال الروح القدس.

ويعطينا الكتاب المقدس مثالاً عن احترام (مسيح الرب):

★وفى احترام الكبار نذكر احترام الممسوحين من الرب كما فعلت أبيجايل .

كان داود قد قرر قتل زوجها نابال الكرملى بسبب بخله وتعييره لداود. فأخذت أبيجايل هدية من الأطعمة التى كان يحتاجها داود ورجاله وحملتها إليه "ولما رأت ابيجايل داود، أسرعت ونزلت عن الحمار، وسقطت أمام داود على وجهها، وسجدت إلى الأرض. وخاطبت داود بعبارة سيدى، وعن نفسها بكلمة أمتك. وقدمت له الهدية قائلة له "والآن هذه البركة التى أتت بها جاريتك إلى سيدى، فلتعطَ للغلمان السائرين وراء سيدى" (اصم٢٥: ٢٣- ٢٧).

ولما كانت فى موقف تشعره فيه بخطأ إتيانه للدماء وانتقام يده لنفسه، مزجت ذلك بالمديح والاحترام اللائقين، وقالت له: "إن سيدى يحارب حروب الرب، ولم يوجد فيك شرّ كل أيامك.. ويكون عندما يصنع الرب لسيدى حسب كل ما تكلم به من الخير من أجلك، ويقيمك رئيساً على إسرائيل، أنه لا تكون لك هذه مصدمة ومعثرة قلب لسيدى، أنك قد سفكت دماً عفواً، أو أن سيدى قد انتقم لنفسه. وإذا أحسن الرب إلى سيدى، فاذكر أمتك" (اصم٢٥: ٢٨- ٣١).

وأحدث هذا الحديث المتضع أثره فى نفس داود، وأزال غضبه، فقال لها "مبارك عقلك ومباركة أنتِ، ولأنك منعتنى اليوم عن إتيان الدماء، وانتقام يدى لنفسى" وصرفها بسلام.

✠ ✠ ✠

ويظهر احترامنا للكبار أيضاً فى حديثنا عن الرسل والقديسين .

فلا نقول: كما يقول بولس أو بطرس أو أثناسيوس. إنما نقول القديس بولس الرسول، والقديس بطرس الرسول، والقديس أثناسيوس الرسولى.

بل قد يتطاول البعض، ويتحدث عن الرب "يسوع" باسمه المجرد!! بينما نحن فى قراءة الانجيل نقول "ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا، ربنا يسوع المسيح الذى له المجد الدائم إلى الأبد آمين.

ونقول القديسين مارجرجس، ومارمينا. وكلمة (مار) معناها سيد. ونقول سيدى الملك جوارجيوس. وسيدتنا وملكتنا كلنا العذراء الطاهرة مريم...

✠ ✠ ✠

ليتنا نتعود الاحترام فى حديثنا عن الآباء القديسين، متذكرين قول الرب "من يكرمكم يكرمنى". ولا نتعود نطق اسمائهم مجردة، كما يفعل علماء الغرب فى حديثهم عن الآباء،

فيقولون جهاد أثناسيوس، وتأملات أوغسطينوس، ورسائل أنطونيوس، وحرومات كيرلس.. كل ذلك بدون ألقاب!!

❋ ❋ ❋

★ومن جهة احترام الكبار، احترام الأنبياء:

★إن أليشع النبى كان يحترم معلمه إيليا النبى. ولما رآه صاعداً فى مركبة نارية إلى السماء، قال "يا أبى، يا أبى، يا مركبة إسرائيل وفرسانها" (٢مل٢: ١٢).

★نذكر حديث قائد الخمسين الثالث مع إيليا النبى، بعد أن أمر إيليا، فنزلت نار من السماء وأكلت قائد الخمسين الأول وقائد الخمسين الثانى، لأنهما تكلما مع النبى العظيم بكبرياء، بعبارة: يا رجل الله، الملك يقول لك انزل (٢مل١: ٩، ١١).

★أما رئيس الخمسين الثالث، فإنه - فى تواضع - صعد إلى حيث كان إيليا، "وجثا على ركبتيه أمام إيليا، وتضرع إليه وقال له: يا رجل الله، لتكرم نفسى وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين فى عينيك. هوذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيسى الخمسين الأولين وخمسينيهما. والآن لتكرم نفسى فى عينيك" (٢مل٥: ١٣، ١٤).

وأمر ملاك الرب إيليا أن ينزل معه. ولم يمت رئيس الخمسين الثالث لإتضاعه.

والشخص المتواضع كما يحترم الله وقديسيه، يحترم كل ما يتعلق بالله.

يحترم بيت الله، وهيكل الله، ومذبح الله. فيدخل بيت الله فى مخافة. ويقول للرب كما فى المزمور "أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك، واسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك" (مز٥). ويحترم الكتاب المقدس ويقبله، ولا يضع شيئاً فوقه فى مكتبه. ويحترم اسم الله ولا ينطق به باطلاً (خر٢٠: ٧). ويحترم رجال الله وخدامه.

❋ ❋ ❋

إننا نحترم الرهبان وندعوهم آباء، حتى ولو لم يكونوا كهنة.

ونحترم الراهبات وندعوهن أمهات. ونلتمس بركة هؤلاء وأولئك. ونحترم مواضعهم المقدسة وأديرتهم. ونحترم رفاتهم ونضمخها بالأطياب.

ومن احترامنا لهم، نذكرهم فى الذكصولوجيات والألحان، ونطلب صلواتهم وشفاعتهم فينا. ونقيم لهم التذكارات والأعياد.

❋ ❋ ❋

والمتواضع يتطور من احترام الآباء والقديسين إلى احترام كل الكبار.

فيحترم التلميذ مدرسه واستاذه، ويحترم الموظف رئيسه، ويحترم الجميع قوانين الدولة وانظمتها. ويذكرون قول الكتاب "اخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب" (١بط٢: ١٣). "اكرموا الجميع.. اكرموا الملك" (١بط٢: ١٧). "أيها الأحداث اخضعوا للشيوخ" (١بط٥: ٥).

❋ ❋ ❋

★ومن جهة احترام السادة :

نذكر قول الملاك لهاجر وهى هاربة من سيدتها "يا هاجر جارية ساراى، ارجعى إلى مولاتك، واخضعى تحت يديها" (تك١٦: ٨، ٩).

إحترام الأبوة والأمومة

★أول احترام نقدمه هو احترام الأبوة والأمومة بكل تفاصيلها ...

★والأبوة تشمل أبوة الله لنا، وأيضاً أبوة البشر لنا بما فى تلك الأبوة الجسدية والروحية، ومن هم فى مركز الأب. وكذلك أبوة السن.

إحترام أبوة الله :

الله – تبارك اسمه – ندعوه "أبانا الذى فى السموات" فى كل صلواتنا اليومية (مت٦: ٩). وفى العهد القديم قال له اشعياء النبى "أنت يا رب أبونا.." (أش٦٤: ٨). واحترامنا له هو لون من الخشوع أمام عزته الإلهية. وهو – بالنسبة إلينا – لا يدخل فى باب التواضع، بل فى مجال العبادة. ويعتبر التواضع هو من جانب الله الذى يقبل صلواتنا، والذى من تواضعه شرّفنا بأن ندعى أبناء له (١يو٣: ١).

❋ ❋ ❋

★واحترامنا لله يدعونا إلى احترام كتابه المقدس .

هذا الذى قبل قراءته فى الكنيسة، يقول الأب الكاهن للرب "أجعلنا مستحقين أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة بطلبات قديسيك". ويصيح الشماس "قفوا بخوف من الله لسماع الإنجيل المقدس"...

★واحترامنا للكتاب المقدس يدعونا إلى الإيمان به كله، مع العمل به.

لا نكون مثل الذين يقبلون أسفاراً من الكتاب ويرفضون أسفاراً أخرى ... أو الذين يقيمون أنفسهم رقباء على الكتاب لا يطيعون منه إلا ما يوافق هواهم! ولا يقابلون كلمات الرسل بنفس الاحترام اللائق بمن ينطق الروح على ألسنتهم!

فى أحدى المرات زارنى فى الدير أحد رؤساء الكنائس الكبرى. وفى حوارنا معاً حول مشكلة قبول كهنوت المرأة، سردت عليه آيات من رسائل القديس بولس الرسول. فقال لى "ولكن هذا ما يقوله بولس".. فقلت له وهل ما يقوله القديس بولس موحى به من الله أم لا؟ فصمت لحظة ثم قال "نعم موحى به". فقلت إذن لماذا لا نقبله؟ لأن "كل الكتاب موحى به من الله ونافع للتعليم.." (٢تى٣: ١٦).

واحترام الكتاب المقدس يعنى أيضاً عدم ترجمته ترجمة محرفة .

كما يفعل شهود يهوه لكى يثبتوا ما ينادون به من عقائد لا تقبلها الغالبية العظمى من المسيحيين..! أو تفسير الكتاب حسب الهوى الخاص وضد الحق الإلهى.

فى كل هذه الأمثلة يختفى الكتاب ويختفى الوحى، وتظهر الذات البشرية .

✠ ✠ ✠

★واحترامنا لله يدعونا أن نطيع وصاياه، وأن نعيش فى مخافة الله.

نهابه هذا الذى يقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة فى هيبة ووقار.

نهاب أيضاً هيكله المقدس، فلا ندخله بأحذيتنا حسب وصية الله لعبده موسى (خر٣: ٥). بل نسجد أمام هذا الهيكل، ونقبل المذبح المقدس فى خشوع وتوقير. كذلك نصلى إلى الله فى مهابة، ولا نفعل كالذين يصلون على موائدهم وهم جلوس!

إحترام الأبوة الجسدية

★احترام الأبوة الجسدية (والأمومة أيضاً) تشمل وصية الرب القائلة "أكرم أباك وأمك" (خر٢٠: ١٢)، وتشمل الخضوع لتعليم الآباء وتأديبهم (عب١٢: ٧، ٨). أنظروا كيف كان أبونا اسحق خاضعاً لأبيه، وقد وضعه على المذبح وربطه ووضعه على المذبح لكى يقدمه محرقة للرب (تك٢٢).. واحترام الأبوة الجسدية يشمل أيضاً كل الأقارب الذين هم فى مركز الأب أيضاً، كالعم والخال والجد...

وتشمل أيضاً احترام الكبار في السن الذين هم فـى مستوى الأب كقول الكتـاب: "أمـام الأشيب تقوم، وتحترم وجه الشيخ" (لا١٩: ٣٣).

إحترام الأبوة الروحية :

★أما الأبوة الروحية فتشمل احترام رجال الكهنوت والمرشدين الروحيين .

نحترم الكهنة في الكنيسة والآباء الأساقفة والمطارنة لأنهم آبـاء فـى الكنيسـة، ولأجـل كهنوتهم. ولأنهم وكلاء لله (تى١: ٧) ووكلاء سرائر الله (١كو١: ٤) ولأجل مركزهـم، كما ورد فـى سفر ملاخـى أن الكـاهن رسـول رب الجنـود، ومـن فمـه يطلبـون الشـريعة، ونحترمهم أيضاً لأجل سنهم، وخدمتهم للأسـرار الإلهيـة، وأئتمـان الـرب لهـم علـى خدمـة التعليم (١تى:٥ ١٧). وكما يقول الكتـاب "أطيعوا مرشـديكم واخضعـوا، لأنهم يسـهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً.." (عب١٣: ١٧).

إن احترام رجال الكهنوت يدخل ضمن احـترام الـرب نفسـه، لأنهـم رجـال اللـه، وهـم سفراؤه ووكلاؤه. وعنهم قال "من يكرمكم يكرمنى".

✠ ✠ ✠

أما عدم احترام الكهنوت والتطاول على كل رتبة، فيدل على كبرياء في القلب، وعلـى أن من ينتقد هؤلاء، إنما "يرتئى فوق ما ينبغى أن يرتئى" (رو١٢: ٣). فقد يحدث أن فتـى صغيراً، أو خادماً مبتدئاً، قد قرأ كتاباً أو كتابين، وربما لم يستطع أن يضمن مفهومها كمـا ينبغى، يبدأ فى انتقاد بعض الآباء الكهنـة، أو الآبـاء الأسـاقفة، كأنـه يفهـم مـا لا يفهمـون. ويقول هذا خطأ وهذا لا يجوز!! وليس فى فكره فقط يسرى هـذا المفهـوم، بـل يشـهر بهـم علناً أمام الناس!!

✠ ✠ ✠

★يظهر احترام الكهنوت أيضاً بعضهم لبعض .

كل رتبة تحترم الرتب التـى تعلوهـا، أو التـى هـى أكبر منهـا سـناً، أو أقـدم منهـا فـى السيامة. وسنضرب مثلاً لاحترام أحد الآباء الأساقفة للبابا البطريرك.

حدث فى أيام محمد علـى الكبير حـاكم مصـر، أنـه كـان علـى ابنتـه (زهـرة) شـيطان يصرعها ويتعبها. ونصحه البعض أن يحولها على البابا البطريـرك (وكـان وقتذاك الأنبـا بطرس الجاولى) لكى يصلى عليها ويشفيها. فلما أوصلوها إليه، قال فى اتضاع ليست لـى

هذه الموهبة. وطلب من الأنبا صرابامون أبو طرحة أسقف المنوفية أن يصلى لها إذ له هذه الموهبة. وحاول القديس الأنبا صرابامون أن يعتفى من هذا الأمر فلم يستطع. فقال لقداسة البطريرك "اعطنى صليبك يا سيدنا لكى أرشمها به وأنا أصلى، لكى تشفى".. فعل ذلك حتى فى شفائها ينسب ذلك إلى صليب البابا، وليس إلى صلاته هو.. ما أعجب ذلك الاتضاع!

✠ ✠ ✠

★واحترام الكهنوت يعنى أيضاً احترام المجامع المقدسة، وما أصدرته من قرارات.

تلك المجامع - المسكونية والأقليمية والمكانية التى كان يجتمع فيها مجموعة من الآباء الأساقفة، ويصدرون قوانين تلتزم بها الكنيسة الجامعة. وبتلك القوانين أمكن تنظيم الكنيسة من الداخل. بل أمكن أيضاً وضع قواعد الإيمان السليم، وإرساء التقاليد الثابتة التى سارت عليها الكنيسة من جيل إلى جيل..

إحترام الأمومة :

★أما عن احترام الأمومة فتشمل الأم بالجسد، والقديسة العذراء، والكنيسة.

يحترم الإنسان أمه التى ولدته وأرضعته وربته، وكانت أشبينته فى المعمودية.

★ويحترم القديسة العذراء مريم، فهى أمنا وملكتنا كلنا .

هذه التى استقبلتها القديسة اليصابات (الأكبر سنا)، بكل اتضاع وتوقير، قائلة "من أين لى هذا أن تأتى أم ربى إلىّ" (لو١: ٤٣). وهى التى كانت أماً روحية للرسل. وعنها قال الرب وهو على الصليب لتلميذه القديس يوحنا الرسول "هذه أمك" (يو١٩: ٢٧). هذه التى جميع الأجيال تطوبها (لو١: ٤٨). وهى التى تطوبها الكنيسة قائلة لها فى تسابيحها "علوت يا مريم فوق الشاروبيم، وسموت يا مريم فوق السارافيم".

✠ ✠ ✠

★وفى احترام الأمومة، نحترم الكنيسة التى ولدتنا فى جرن المعمودية .

ولدتنا فى الإيمان وفى التعليم والتوبة، وفى الأسرار المقدسة. التى لولاها ما كنا مسيحيين. وإنما صرنا هكذا بكرازتها وجهادها.

إننا نحترم الكنيسة ونحترم عقيدتها وإيمانها، ونحترم مجامعها وآباءها، وقديسيها وتعاليمهم، ونحترم تاريخها وطقوسها. ونقف بكل اتضاع أمام تقاليدها، وندافع عنها،

ونفخر بالانتساب إليها. ونذكر جهاد الكنيسة حتى حفظت لنا الإيمان سليماً، وقدمت في سبيل ذلك آلافاً من الشهداء..

✠ ✠ ✠

ونقف بكل اتضاع أمام تعليم آبائنا .

نعتبرهم مراجع لنا في الإيمان وفي التفسير، وفي التأملات الروحية. ولا نعتبر كتاباتهم مجرد آراء كما تفعل بعض الطوائف.

وفي احترامنا لآباء الكنيسة نحترم أبطال الإيمان معلمي البيعة، ونحترم الشهداء الذين سفكوا دماءهم لأجل الإيمان، ونحترم الرعاة وآباء البرية. ونتشفع بكل هؤلاء في قداساتنا وصلواتنا، ونقيم لهم الأعياد، ونضع الشموع أمام أيقوناتهم، ونقدس رفاتهم.

إنه ميزة في اتضاع الكنيسة الأرثوذكسية في توقيرها لآبائها .

★**وفي احترام الزوج**، نذكر أن سارة كانت تدعو زوجها ابراهيم: سيدي (تك١٨: ١٢). كذلك قول الكتاب "أيها النساء أخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة" (أف٥: ٢٢، ٢٣).

إحترام الصغار :

إن احترام الكبار واجب، تدرب الكثيرون عليه .

أما احترام الكبير للصغير، فهو تواضع من الكبير، ونبل منه .

إن الله – تبارك اسمه – هو المثل الأعلى في التواضع، وقدوتنا في كل تصرف. وفي هذه النقطة بالذات، لا نقول إنه يحترم عبيده، مخلوقاته.. فربما هذا التعبير غير مقبول لاهوتياً. وإنما نقول: إنه في معاملته لهم، يحتفظ لهم بكرامتهم، ويرفع من قدرهم، ويعطيهم احتراماً في نظر الآخرين. ولا "يدعوهم عبيداً بل أصدقاء" (يو١٥: ١٥).

ولا يتخطى وكلاءه، كما قال للأبرص بعد أن شفاه "اذهب أرِ نفسك للكاهن" (مت٨: ٤).

✠ ✠ ✠

وعجيب أن الله – في بعض الأحيان – يعرض قراراته على بعض عبيده أو وكلائه، قبل تنفيذها. ويأخذ رأيهم وينفذه!

★مثال ذلك قبل أن يحرق سادوم، قال "هل أخفي عن عبدي ابراهيم ما أنا فاعله؟!"

(تك١٨: ١٧). وعرض الأمر عليه. ورضى أن يقول له ابراهيم: أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟! أتهلك البار مع الأثيم؟ فيكون البار كالأثيم! حاشا" (تك١٨: ٢٥). وفى اتضاع شديد، يدخل الرب فى حوار مع ابراهيم، ويقبل فكره نقطة نقطة، إلى أن يصل إلى المستوى الذى إن وُجد فيه عشرة أبرار فى المدينة، لا يهلك المدينة من أجل العشرة (تك١٨: ٣٢).

★مثال آخر إنه لما عبد بنو اسرائيل العجل الذهبى، وأراد الرب افناءهم، نراه يكلّم موسى أولاً، ويقول له "أتركنى لأفنى هذا الشعب.." (خر٣٢: ١٠). كما لو كان موسى ممسكاً به. فلا يفعل، إن لم يتركه موسى يفعل!!

ورفض موسى أن يترك الرب يفنى الشعب، وشرح وجهة نظره. وقال له فى جرأة أو فى دالة "إرجع يارب عن حمو غضبك، واندم على الشر" (خر٣٢: ١٢). والعجيب هنا فى تواضع الرب أنه استجاب لموسى فيما طلبه. وهكذا يقول الكتاب "فرجع الرب عن حمو غضبه، "وندم على الشر" (خر٣٢: ١٤).

★الله أيضاً فى إكرامه لداود النبى - حتى بعد موته - لما أخطأ إليه سليمان بن داود خطية كبيرة، وأوقع عليه عقوبة، لم يشأ أن تكون تلك العقوبة فى أيام سليمان، وإنما بعده، قائلاً "من أجل داود عبدى.." (امل١١: ١٢، ١٣).

✠ ✠ ✠

★ونجد فى قصة الابن الضال (لوقا ١٥) مثالاً آخر من تواضع الآب السماوى:

أتاه الابن نادماً ومنسحقاً، يقول له "أخطأت إلى السموات وقدامك، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً.." ولكن الآب فى حنوه، وحرصه على أن يحفظ كرامة ابنه، منعه فى حنوه أن يكمل انسحاقه بعبارة "اجعلنى كأحد أجرائك" التى كان قد عزم أن يقولها (لو١٥: ١٩، ٢١). بل بالأكثر أكرمه ورفع شأنه جداً فى توبته، وأمر أن يذبحوا له العجل المسمن، وأن يضعوا خاتماً فى يده..

وأيضاً الابن الكبير لما رفض أن يحضر الوليمة التى صنعت لأخيه، لم يهمله الآب، بل خرج إليه ليصالحه. ولما اشتط هذا الابن فى الكلام وتطاول على أبيه قائلاً "ها أنا أخدمك سنين هذا عددها، ولم تعطنى قط جدياً لأفرح مع أصدقائى. ولما جاء ابنك هذا الذى صرف معيشتك على الزوانى، ذبحت له العجل المسمن!".. لم يرد الأب على تطاول ابنه وغضبه، بل قال له فى اتضاع: "يا ابنى، أنت معى، وكل مالى فهو لك. ولكن كان

ينبغى أن نفرح ونسر لأن أخاك هذا كان ضالاً فوُجد، وكان ميتاً فعاش" (لو١٥: ٢٨-٣٢).

✠ ✠ ✠

★نلمح اتضاع الكبار أيضاً فى سير الآباء وأقوالهم :

نرى ذلك فى اتضاع القديس أوغسطينوس فى صلاته لأجل شعبه.

إذ يقول "أطلب إليك يارب من أجل سادتى عبيدك". فيعتبرهم سادته!

ويقول: "أنا بالنسبة إليهم راعٍ لهم. ولكننى أمامك - معهم - خروف فى قطيعك: ترعانى وترعاهم".. وهكذا - على هذا النمط - فإن بعض الآباء الأساقفة فى اتضاعهم، يقول كل منهم عن نفسه "خادم إيبارشية (كذا)..".

★ويقول الآباء فى بستان الرهبان: "ليكن كل إنسان كبيراً فى عينيك" "أطلب بركة كل أحد" "اجعل كل أحد يباركك".

✠ ✠ ✠

★ومن أمثلة الكبار الذين يرفعون من قدر أبنائهم: القديس بولس الرسول :

★ويظهر هذا فى رسالته إلى فليمون من أجل عبده أنسيموس .

فعلى الرغم من أن فليمون كان أحد تلاميذه، إلا أنه كان يكلمه برجاء وباحترام. ومع أن انسيموس كان عبداً، إلا أن بولس الرسول يذكره بتوقير شديد، فيقول لفليمون:

"أطلب إليك لأجل ابنى أنسيموس الذى ولدته فى قيودى.. الذى هو أحشائى. الذى كنت أشاء أن أمسكه عندى لكى يخدمنى عوضاً عنك فى قيود الانجيل. ولكن بدون رأيك لم أرد أن أفعل شيئاً" "لا كعبد فى ما بعد، بل أفضل من عبد: أخاً محبوباً، ولاسيما إلىّ". ثم يقول لفليمون أيضاً "إن كنت تحسبنى شريكاً، فاقبله نظيرى. ثم إن كان ظلمك بشئ، أو لك عليه دين، فاحسب ذلك علىّ.. أنا أوفى.. أرح أحشائى فى الرب" (فل١٠-٢٠).

إنه أدب عجيب فى التخاطب يصدر من رسول قديس ومعلم كبير لتلميذه: يقول له "إن كنت تحسبنى شريكاً" ويرجوه قائلاً "لم أرد أن أفعل شيئاً بدون رأيك". ويقول عن العبد "أقبله نظيرى" "لا كعبد بل أخاً محبوباً" ويقول عنه "ابنى" "أحشائى". أليس هذا درساً لنا فى احترام الصغار؟!

✠ ✠ ✠

★وبنفس الأسلوب فى توقير تلاميذه، يكتب فى آخر رسالته إلى رومية:

فيقول عن أكيلا وبريسكلا "اللذين لست أنا وحدى أشكرهما، بل أيضاً جميع كنائس الأمم". ويقول "سلموا على أندرونيكوس ويونياس "اللذين هما مشهوران بين الرسل، وقد كانا فى المسيح قبلى" (رو١٦: ٧). بينما كثيرون جداً من المسيحيين لا يعرفون عنهما شيئاً! ويقول أيضاً "سلموا على روفس المختار فى الرب، وعلى أمه أمى" (رو١٦: ١٣). وفى إرسال سلامه يسجل تعب العاملين معه فى الخدمة. ومن أولئك يذكر "تريفينا وتريفوسا التاعبتين فى الرب" و"برسيس المحبوبة التى تعبت كثيراً فى الرب" (رو١٦: ١٢). بل فى المقدمة وقبل الكل يذكر فيبى خادمة الكنيسة التى فى كنخريا "كي تقبلوها فى الرب كما يحق للقديسين" (رو١٦: ١). إنه يمتدح تلاميذه ويرفع ذكرهم. ويقول مثلاً "سلموا على أبلّس المزكى فى المسيح" (رو١٦: ١٠). و"أبينتوس حبيبى الذى هو باكورة أخائية للمسيح" (رو١٦: ٥).

بعد كل ما ذكرناه من التواضع فى معاملة الصغار ، نسأل :

هل يُمكن للمتضع أن ينتهر ويوبخ ويُعاقب؟

★نعم ، يمكن هذا ، فإن القديس بولس هذا، قد وبخ وعاقب .

وبخ أهل غلاطية مثلاً وقال لهم "أهكذا أنتم أغبياء. ابعد ما ابتدأتم بالروح، تكملون بالجسد؟!" (غل٣: ٣). وقال لتلميذه تيموثاوس الأسقف: "وبخ. انتهر. عظ، بكل أناة وتعليم" (٢تى٤: ٢). وقد عاقب خاطئ كورنثوس وأمر "أن يسلّم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد، لكى تخلص الروح فى يوم الرب" (١كو٥: ٥). وأمر أهل كورنثوس قائلاً "اعزلوا الخبيث من بينكم" (١كو٥: ١٣).

والقديس بولس وبخ القديس بطرس أيضاً قائلاً له "إن كنت وأنت يهودى تعيش أممياً، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا" (غل٢: ١٤).

ومع كل ذلك، كان القديس بولس متواضعاً. ويكفى قوله عن ظهورات السيد المسيح

بعد القيامة "وآخر الكل، كأنه للسقط ظهر لى أنا، لأنى أصغر الرسل، أنا الذى لست أهلاً لأن أدعى رسولاً، لأنى أضطهدت كنيسة الله" (اكو١٥: ٨، ٩).

✠ ✠ ✠

والقديس يوحنا المعمدان وبخ الفريسيين والصدوقيين الآتين إلى معموديته.

وقال لهم "يا أولاد الأفاعى، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أباً.." (مت١٣: ٧، ٨). ولا ينكر أحد تواضع القديس يوحنا المعمدان.

★وإيليا النبى وبخ آخاب الملك لسيره وراء البعليم (امل١٨: ١٨).

وعاقب أنبياء البعل والسوارى (امل١٨: ٤٠)، كما عاقب قائدى الخمسين الأول والخمسين الثانى (٢مل١: ١٠، ١٢).

★ويعقوب أبو الآباء وبخ ابنيه قائلاً "شمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى.." (تك٤٨: ٥، ٦).

وكثير من الأنبياء وبخوا أفراداً وجماعات، بل أرسلهم الله ليوبخوا.

✠ ✠ ✠

★بل السيد المسيح نفسه انتهر ووبخ، وهو الوديع المتواضع القلب (مت١١: ٢٩).

وبخ المدن التى صنعت فيها أكثر قواته لأنها لم تتب (مت١١: ٢٠). وقال "ويل لك يا كورزين. ويل لك يا بيت صيدا.. وأنتِ يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء، ستهبطين إلى الهاوية.." (مت١١: ٢١-٢٣). ووبخ الكتبة والفريسيين المرائين (مت٢٣).. ووبخ تلميذه بطرس الرسول قائلاً له "اذهب عنى يا شيطان، أنت معثرة لى. لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس" (مت١٦: ٢٣).

وانتهر تلميذيه يعقوب ويوحنا لما طلبا منه أن تنزل نار وتحرق إحدى مدن السامرة. وقال لهما "لستما تعلمان من أى روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلص" (لو٩: ٥٥).

✠ ✠ ✠

★والأمثلة كثيرة، ولكن فلنناقش موضوع التوبيخ ومدى تمشيه مع التواضع.

أولاً : ممن يصدر ؟ وهل الذى يوبخ وينتهر له سلطان أن يوبخ؟

هل كل إنسان له سلطان الرب في التوبيخ؟! أو له سلطان القديس يوحنا المعمدان، أو القديس بولس الرسول، أو القديس تيموثاوس الأسقف.

وهل هذا التوبيخ أو الانتهار هو في حدود مسئوليتهم. مثلما في مسئولية الأب أن يوبخ ابنه ويؤدبه، كما قال الكتاب "أي ابن لا يؤدبه أبوه؟!" (عب١٢: ٧). أو هل له مسئولية المعلم في تأديب تلاميذه؟ أو مسئولية كل صاحب منصب في تأديب مرؤوسيه أو توبيخهم، حتى لا يدفعهم التهاون إلى الاستهتار.

وما أعمق قول الآباء في البستان "أدبوا الأحداث قبل أن يؤدبوكم".

✠ ✠ ✠

ثانياً : ما هو الأسلوب الذي يتبعه المتواضع في التوبيخ وفي التأديب؟

البعض يوبخ في شدة وفي قسوة، وفي غير احترام للناس، ويظن أن في ذلك فضيلة، ناسياً كيف كان القديس بولس الرسول يوبخ، هذا الذي قال لتلميذه تيموثاوس "وعظ وبخ انتهر". إنه يقول لشيوخ أفسس "ثلاث سنين.. لم افتر عن أنذر بدموع كل أحد" (أع٢٠: ٣١). كان ينذر بدموع – في تواضع وحب – وليس في تسلط.

يقول أيضاً "أطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه، أنا نفسي بولس، الذي هو في الحضرة ذليل، وأما في الغيبة فمتجاسر عليكم" (٢كو١٠: ١). لاحظوا أنه يقول عن نفسه "في الحضرة ذليل". لذلك يتشجع بالكتابة، ويحسب نفسه أنه متجاسر عليهم!! هذا هو أسلوب الشخص المتواضع حينما يوبخ، لا بروح التعالي، ولا بقسوة الأسلوب، ولا بالصوت العالي المتسلط.. وإنما بأسلوب الذي يحسّ بالخشبة في عينيه، حينما يخرج القذى من عين أخيه...

✠ ✠ ✠

إنه أسلوب من يطلب حق الله من نفسه أولاً، قبل أن يطلب حق الله من الآخرين. فيوبخ في وداعة المسيح وحلمه.

إني أعجب لهؤلاء الذين لا يرون السيد المسيح إلا ممسكاً بالسوط! ولا يسمعونه إلا في عبارة "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون". كما لوكانت حياة المسيح هي هذه فقط!!

إن السيد المسيح عامل الكتبة والفريسيين بكل لطف وبكل احتمال، دون أن يرد عليهم،

بل كان يزورهم. وبكل وداعة وحلم يحاورهم محاولاً اقناعهم. أما صبة الويلات عليهم، فكان فى الأسبوع الأخير بالذات، حينما أراد أن يمهد الطريق لإلغاء تلك القيادات قبل صلبه، حتى لا تسيطر على الكنيسة الجديدة التى سيؤسسها بدمه. لذلك كشف رياءهم فى الأسبوع الأخير، بعد طول صبر.. وليس هم فقط بل أيضاً الصدوقيين والناموسيين (مت٢٢) والكهنة (مت٢١).

فهل أنت فى نفس موقف المسيح؟ وهل لك سلطانه؟! وهل لك وداعته وحلمه؟! أم أنك توبخ فى غير اتضاع؟!...

الباب السابع :

الوداعة

- ○ أهمية الوداعة .
- ○ وداعة الله .
- ○ صفات الإنسان الوديع .
- ○ كيف تقتنى أو تفقد ؟
- ○ الوداعة لا تتعارض مع الشجاعة
- * أمثلة كثيرة
- * الغضب المقدس .
- * قوة الشخصية .
- * الدفاع عن الحق .
- * الإنقاذ .
- * هل يمكن أن يدين ؟

الوداعة

أهمية الوداعة :

فضيلة الوداعة من أهم الفضائل المسيحية. يكفى قول السيد الرب:

"تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب. فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت١١: ٢٩).

كان يقدر أن يقول تعلموا منى سائر الكمالات المسيحية. لكنه ركّز على الوداعة والتواضع بالذات، وذكر نتيجتها أنكم "تجدون راحة لنفوسكم". فالإنسان الوديع يعيش فى هدوء وراحة، بينما من يفقد الوداعة يعيش فى صراعات وتعب...

والسيد المسيح فى عظته على الجبل، وضع التواضع والوداعة فى مقدمة التطويبات. فقال "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات.. طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض" (مت٥: ٣، ٥). فهم يرثون هذه الأرض التى نعيش عليها، إذ يكونون محبوبين من جميع الناس. كما أنهم فى العالم الاخر، يرثون "أرض الأحياء" التى ذكرها داود النبى فى المزمور (مز٢٧: ١٣) حينما قال "أؤمن أنى أعاين خيرات الرب فى أرض الأحياء"

وقال أيضاً "الرب يرفع الودعاء"، ويذل الخطاة إلى الأرض" (مز١٤٧: ٦).

✠ ✠ ✠

والقديس بولس الرسول يضع الوداعة ضمن ثمار الروح (غل٥: ٢٣).

فالإنسان الذى يسلك بالروح، من الطبيعى أن يكون وديعاً..

والذى يكون مسكناً للروح القدس، لابد أن يكون وديعاً وهادئاً. وهكذا يقول القديس بطرس الرسول "..زينة الروح الوديع الهادئ، الذى هو عند الله كثير الثمن" (١بط٣: ٤).

وقال "يسمع الودعاء فيفرحون" (مز٣٤: ٢).

✠ ✠ ✠

ومن اهتمام الكنيسة بالوداعة، أنها تنصحنا بها فى كل صباح:

فتضع لنا فى مقدمة صلاة باكر جزءاً من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس يقول فيه "اسألكم أنا الأسير فى الرب أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التى دعيتم إليها **بكل تواضع القلب والوداعة وطول الأناة**، محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة.." (أف٤: ١، ٢).

ولاشك أن طول الأناة والاحتمال هما من صفات الوداعة أيضاً. التى تنصحنا بها الكنيسة فى كل صباح، لنسير بها طول النهار.

✠ ✠ ✠

وفى شرح أهمية الوداعة فى الحياة الروحية، يقول القديس يعقوب الرسول :

"من هو حكيم وعالم بينكم، فلير أعماله بالتصرف الحسن فى وداعة وحكمة" (يع٣: ١٣). وشرح كيف أن "الحكمة النازلة من فوق، هى طاهرة ثم مسالمة مترفقة مذعنة، مملوءة رحمة وأثماراً صالحة" (يع٣: ١٧). وهذه من صفات الوداعة. الوداعة إذن مرتبطة بالحكمة، والحكمة مرتبطة بالوداعة. وهذه هى "وداعة الحكمة".

✠ ✠ ✠

حتى فى إصلاح الآخرين، يكون ذلك فى وداعة .

وفى هذا يقول القديس بولس الرسول "أيها الأخوة إن انسبق إنسان فأُخذ فى زلة، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة. ناظراً إلى نفسك لئلا تُجرب أنت أيضاً. إحملوا بعضكم أثقال بعض" (غل٦: ١، ٢).

إذن فى إصلاح شخص أخطأ، لا يكون ذلك بالعنف ولا بالشتيمة والتشهير، إنما بروح الوداعة. فهذا هو أسلوب الروحانيين.

✠ ✠ ✠

وقد كانت الوداعة هى صورة المسيحيين منذ البدء.

حتى إنه قيل عن روحيات المسيحيين فىالعصر الرسولى: إنه حينما كان أحد الوثنيين يقابل زميلاً له، ويجده بشوشاً هادئاً.. يقول له "لعلك قابلت مسيحياً فى الطريق"!.. ويقصد بذلك أن لقاءه مع أحد المسيحيين فى وداعته، يكون قد طبع الوداعة على وجهه بالتأثير.

ويقول القديس بطرس الرسول فى الحديث عن الإيمان:

"مستعدين فى كل حين، لإجابة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذى فيكم بوداعة وخوف" (١بط٣: ١٥). وأما وقد تكلمنا عن أهمية الوداعة، فنقول إن الله هو مثالها الأول.

وداعة الله :

إن الله وديع فى تعامله. يعطى الفرصة للعاملين معه، أن يكلموه بكل حرية، ويعبروا عن رأيهم – مهما كان يبدو مخالفاً – بكل جرأة وبغير خوف!

من تواضع الرب كلّم أبانا ابراهيم من جهة سادوم قبل أن يهلكها. وإذا بابراهيم يتكلم مع الله بجرأة عجيبة، ويقول له "أفتهلك البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم. حاشا لك. أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً؟!" (تك١٨: ٢٣-٢٥).

✠ ✠ ✠

لولا وداعة الله الذى يقبل مثل هذا الكلام دون أن يغضب، ما كان ابراهيم يتكلم مع الله بمثل هذا الأسلوب!!

أحياناً لا يجرؤ موظف أن يكلم رئيسه هكذا، ولو كان هذا الرئيس مديراً لإدارة صغيرة..! أن يقول له: حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أو أن يلّح له فى كلامه أنه بذلك "لا يصنع عدلاً"..!

إن الله فى وداعته طويل البال فى الحوار .

كثيرون من رجال السلطة لا يقبلون أن يناقشهم أحد فى قراراتهم. وإن قبلوا، لا يستطيعون أن يطول النقاش، وأن يستمروا فى التنازلات. بل أنهم يضعون للحوار حدوداً. أما الله فوداعته بغير حدّ.

✠ ✠ ✠

★مثال آخر لوداعة الله، حديثه مع عبده موسى، بعد عبادة الشعب للعجل الذهبى. حيث أراد الله أن يفنى ذلك الشعب الخائن .

يقول الرب – فى وداعته – لعبده موسى "أتركنى" لأفنى هذا الشعب (خر٣٢: ١٠). ولكن موسى يقول للرب فى جرأة "ارجع يارب عن حمو غضبك، واندم على الشر.. اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل..". وذكره بأنه قد يقول المصريون "أخرجهم بخبث، ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض" (تك٣٢: ١٢، ١٣).

العجيب أن الرب فى وداعته قبل كلام موسى، وندم على الشر (خر٣٢: ١٤).

✠ ✠ ✠

فى وداعة الرب مع ابراهيم قبل أن يناقشه فى قراره. أما فى وداعته مع موسى، فقد فعل ما هو أكثر: أن يلغى قراره!!

قد يوجد إنسان، بشر من تراب: إن طلبت منه أن يلغى قراره، يثور ويعتبر هذا الطلب ضد كرامته، ولا يقبل الرجوع عن قرار أصدره أو ينوى إصداره. أما الرب فواسع الصدر، ويقبل النقاش ويقبل الرجوع. وأكثر من هذا، يقبل الكلمات الشديدة فى كلام عبيده معه. مثل عبارات حاشا، ولا يصنع عدلاً، وأخرجهم بخبث ليهلكهم..

لولا أن الله وديع وطيب، ما كان يقبل كل هذا...

✠ ✠ ✠

★أمثلة أخرى يقبل فيها الرب عبارة (لماذا) عن أحكامه وأعماله:

يقول له ارميا النبى "أبرّ أنت يارب من أن أخاصمك. لكن أكلمك من جهة أحكامك: لماذا تنجح طريق الأشرار. إطمأن كل الغادرين غدراً" (أر١٢: ١). ما أكثر الرؤساء والحكام، الذين لا يجرؤ أحد أن يكلمهم من جهة أحكامهم، وأن يقول لهم لماذا؟ ولكن الله الوديع ليس كذلك...

ويقبل أيضاً أن يقول له عبده داود معاتباً "يارب لماذا تقف بعيداً؟ لماذاتختفى فى أزمنة الضيق؟!" (مز١٠: ١). يقول هذا للراعى الصالح، الذى لم يعوزه شئ" (مز٢٣: ١).

✠ ✠ ✠

★بل لولا وداعة الله ، ما كان يسمح للشيطان أن يناقشه وأن يطلب منه، فى قصة أيوب الصديق.

وداعة من الله أنه بينما بنو الله يمثلون أمامه، يسمح أن يجئ الشيطان فى وسطهم (اى١: ٦). ووداعة منه أيضاً أنه بينما يقول الله عن أيوب إنه رجل كامل ومستقيم.. يتدخل الشيطان محتجاً على ذلك فيقول "هل مجاناً يتقى أيوب الله؟! أليس أنك سيجت حوله وحول بيته.. وباركت أعمال يديه.. ولكن أبسط يدك الآن، ومسّ كل ما له، فإنه فى وجهك يجدف عليك" (أى١: ٩- ١١).

والعجيب أنه – فى وداعة الله – يقبل هذا الكلام من الشيطان، ويسمح له بأن يجرب أيوب قائلاً له "هوذا كل ماله فى يدك" (أى١: ١٢).

وبعد أن ينجح أيوب فى التجربة، يسمح الله مرة أخرى للشيطان أن يقف أمامه مع بنى الله. ويبدى الرب إعجابه بأيوب قائلاً "وإلى الآن هو متمسك بكماله".. وإذا بالشيطان يتطاول ويقول لله "ابسط الآن يدك، ومسّ عظمه ولحمه، فإنه فى وجهك يجدف عليك!" (أى٢: ٥). والعجيب أنه فى وداعة الله يقبل من الشيطان ما قاله فى غير خجل! بل ويقول له أيضاً "ها هو فى يدك، ولكن احفظ نفسه" (أى٢: ٦).

✠ ✠ ✠

مثل آخر فى الوداعة أن السيد المسيح يقبل أن يجربه الشيطان .

واستغل الشيطان هذه الوداعة ، فقال للسيد عن كل ممالك الأرض ومجدها "أعطيك هذه جميعها، إن خررت وسجدت لى" (مت٤: ٩).

إن الوديع يسمح أن يكلمه البعض بما يريد بكل جرأة. ولكن لا يجوز أن تُستغل وداعة الوديع، لكى يتطاول البعض عليه بغير حياء.

صفات الإنسان الوديع

١ - من صفات الإنسان الوديع إنه طيب وهادئ ومسالم :

إنه هادئ فى صوته، لا يصيح ولا يحدث شغباً.. وهادئ أيضاً فى معاملاته: لا يخاصم، ولا يقطع صلته بإنسان، ولا يحتد على أحد.

قيل عن السيد المسيح فى العهدين القديم والحديث إنه "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ" (مت١٢: ١٩، ٢٠) (أش٤٢: ٢، ٣).

إنه لا يقطع رجاء إنسان: فلا يطفئ الفتيلة المدخنة، ربما تمرّ عليها ريح بعد حين، فتشعلها.

✠ ✠ ✠

قيل فى لقائه مع إيليا النبى لما كان هارباً من الملكة إيزابل، إنه "إذا بريح عظيمة قد شقّت الجبال وكسرت الصخور.. ولم يكن الرب فى الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن

الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف.." (1مل19: 11، 12). وكان الرب يتكلم..

✠ ✠ ✠

٢ – هكذا هو صوت الله في وداعته، الصوت المنخفض الخفيف .

والإنسان الوديع إنسان هادئ، لا يرفع صوته أزيد مما يجب، ولا يعلو صوته أكثر مما تحتمل الحالة في الكلام. صوته هادئ غير صاخب. بعكس العنفاء الذين في كلامهم صخب. يتكلمون بصوتٍ عالٍ وبحدة، وعنف.. أحياناً صوتهم يرعب..

✠ ✠ ✠

٣ – والوديع : كما أن صوته منخفض، كذلك نظره منخفض أيضاً .

لا يحدق في أحد، ولا يحملق في أحد. تنطبق عليه عبارة "لا يملأ عينيه من وجه إنسان". ومادام لا يملأ عينيه من وجه إنسان، فهو يحتفظ بمعاملات طيبة مع الكل، لأنه لا يفحص مشاعر الناس بنظراته، ولا يحاول أن يعرف ما بداخلهم. لأن محاولة معرفة الدواخل تعكر المعاملات.

أما غير الوديع فإنه يكلم غيره، وينظر إلى عينيه أثناء كلامه ليرى هل هو صادق أم لا؟ وهل نظراته عكس كلامه؟ وهل ملامحه عكس كلامه؟ وهل هو يبطن غير ما يظهر؟ وهل.. وهل..؟ مما يجعله يشك فيه...

٤ – أما الوديع فيكون في سلام مع الناس، لأنه لا يفحص ملامحهم وتصرفاتهم.

إن تعامل مع أحد لا يتناوله بالفحص والتحقيق. ولا يتناول كل ما يعمله هذا الشخص بتحليل وتدقيق، ويصدر أحكاماً عليه!

وإن جلس مع أناس يأكلون، لا ينظر إليهم ماذا يأكلون وكيف؟ وأي صنف يأكلونه؟ وما الذي يحبونه أكثر من غيره؟ وهل يأكلون بسرعة أو بشهوة أو بنهم؟ ولا يرقبهم أثناء الأكل، كما لو كان يحصي كم لقمة يأكلونها.

✠ ✠ ✠

٥ – إنه هادئ لا يفحص أعمال الناس ولا يراقبهم. ولذلك فهو لا يقع كثيراً في إدانة الآخرين. يقول في داخله "ما شأني بذلك؟!".

فإدانة الآخرين تأتي غالباً من فحص الآخرين ومراقبتهم. أما الوديع فيقول في نفسه "وأنا مالي؟ خليني في حالي". نعم ما شأني بكل هؤلاء؟! وما دخلي بتصرفاتهم؟! إن كان

السيد المسيح قد قال في إحدى المرات "من أقامني قاضياً أو مقسماً؟" (لو١٢: ١٤)... فماذا أقول أنا عن نفسي؟! ولماذا أتدخل في أمور لست مسؤولاً عنها؟! ولماذا أقحم نفسي في أمور ليست من شأني؟! وهكذا يحتفظ بسلامه الداخلي.

✠ ✠ ✠

٦ - والإنسان الوديع يكون دائماً بشوشاً مبتسماً، لا يعبس في وجه أحد.

لا يقطب جبينه ولا نظراته، ولا يتجهم. ولا يستقر عليه أبداً روح الغضب أو الضيق. له ابتسامة حلوة محببة إلى الناس، وملامح مريحة لكل من يتأملها. ولا تسمح له طبيعته الهادئة أن يزجر ويوبخ، وأن يشتد ويحتد. بل هو بطبيعته إنسان هادئ. وكلامه لين ولطيف، وبخاصة إن كان من الخدام أو من رجال الدين.

إن قوانين الكنيسة وتعاليم الآباء تطلب من رجال الدين أن يكونوا بشوشين، يتصفون بالحلم والسماحة غير مخاصمين (اتي٣: ٣). وكذلك سير الآباء تقدم لنا أمثلة كثيرة للوجه السمح المحب والمحبوب. فرجل الدين الذي في ملامحه سلام، يمكنه أن يمنح الناس سلاماً. أما المتجهم دائماً فإنه يخيفهم من الدين نفسه.

✠ ✠ ✠

٧ - الإنسان الوديع يتمتع بسلام داخلي. فهو لا ينزعج ولا يضطرب، ولا يتسجس، مهما كانت الأسباب الخارجية.

قد يكون البحر هائجاً والأمواج مرتفعة، والسفينة تضطرب في البحر ذات اليمين وذات اليسار. أما الصخرة الثابتة في البحر فإنها لا تضطرب. والجنادل التي في البحر لا تهتز، مهما كان عنف الأمواج..

كذلك الوديع: هو كالصخرة أو الجندل، لا يتزعزع مهما كانت الظروف. بل في هدوء يسلم الأمر لله ولا يضطرب. يقول مع داود النبي في المزمور: "إن يحاربني جيش، فلن يخاف قلبي. وإن قام عليّ قتال، ففي هذا أنا مطمئن" (مز٢٧: ٣).

يقول ماراسحق "من السهل عليك أن تحرك أحد الجبال من موضعه. وليس سهلاً أن تحرك الإنسان الوديع عن هدوئه".

✠ ✠ ✠

٨ - ومهما عومل الوديع، لا يتذمر ولا يتضجر، ولا يشكو.

بل غالباً ما يلتمس العذر لغيره، ويبرر في ذهنه مسلكه، ولا يظن فيه سوءاً، وكأن

شيئاً لم يحدث! ولا يتحدث عن إساءة الناس إليه، ولا يحزن بسبب ذلك في قلبه. فإن تأثر لذلك أو غضب، سرعان ما يزول تأثره ويصفو. ولا يمكن أن يتحول حزنه إلى حقد..

❋ ❋ ❋

٩ - وقد يثور البعض عليه، ويوجه إليه اتهامات أو إهانات. فلا يحتد. ولا ينتقم لنفسه، ولا يقاوم الشر (مت٥: ٣٩).

بل قد يصمت في هدوء، ويبتسم في وجه من يثور عليه ابتسامة بريئة، وكأنه ليس هنا! مما يجعل الثائر عليه يخجل من إهاناته له!

هذا الإنسان الوديع، له أحياناً طبع الطفل الهادئ المبتسم.

❋ ❋ ❋

١٠ - الإنسان الوديع بعيد عن الغضب، حليم واسع الصدر.

إنه لا يغضب بسرعة، ولا ببطء. ولا ينفعل الانفعالات الشديدة. ولا تراه أبداً ثائراً ولا عصبياً. بل ملامحه هادئة. وكما أنه لا يغضب، فإنه لا يتسبب في غضب أحد. وإن غضب منه أحد، فإن له "الجواب اللين الذي يصرف الغضب" (أم١٥: ١).

لذلك فهو إنسان طويل البال، وكثير الإحتمال .

وإذ "له صورة الله" (تك١: ٢٦، ٢٧)، فهو مثله يحتمل الخطاة الذين يخطئون إليه، ويطيل أناته عليهم، ويعيش في سلام.

❋ ❋ ❋

الوديع يتميز بأنه إنسان بطئ الغضب .

كما قال معلمنا القديس يعقوب الرسول "ليكن كل إنسان مسرعاً إلى الاستماع، مبطئاً في التكلم مبطئاً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع بر الله" (يع١: ٩). وما أكثر ما قيل عن إلهنا الوديع: إنه "بطئ الغضب" (يون٤: ٢)، وإنه "طويل الروح كثير الرحمة" (مز١٠٣: ٨).

❋ ❋ ❋

١١ - كذلك فإن الوديع لا يغضب لأي سبب .

إذا غضب الوديع، فاعرف أنه لابد من أمر خطير دعاه إلى ذلك. وغالباً ما يكون غضبه لأجل الرب، وليس لأجل نفسه، وليس بسبب كرامته أو حقوقه كما يفعل غير الودعاء.

وإذا غضب لا يثور ولا يفقد أعصابه. إنما يعبر عن غضبه بعدم موافقته وعدم

رضاه. فالوديع أعصابه هادئة، لا ينفعل بسرعة. وإذا انفعل لا يشتعل.

✠ ✠ ✠

١٢ – وإذا غضب ، لا يحقد. إنما سرعان ما يصفو ويغفر .

وهكذا قيل عن إلهنا الوديع إنه "لا يحاكم إلى الأبد، ولا يحقد إلى الدهر. لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا.. لأنه يعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن" (مز١٠٣: ٩- ١٤).

✠ ✠ ✠

١٣ – الإنسان الوديع مسالم لا ينتقم لنفسه .

لا يقاوم الشر (مت٥: ٣٩). أى لا يقابله بمثله. وإنما هو كثير الإحتمال. لا يدافع عن نفسه، بل غالباً ما يدافع الغير عنه، موبخين من يسئ إليه بقولهم "ألم تجد سوى هذا الإنسان الطيب لتعتدى عليه؟!".

الإنسان الوديع لا يؤذى أحداً، بل يحتمل الأذى من المخطئين .

ما أجمل ما قيل عن موسى النبى "وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد١٢: ٣).

حتى أنه حينما تقولت عليه أخته مريم، ووبخها الله على ذلك وعاقبها فضربها بالبرص.. تشفع فيها موسى، وهو فى موقف المُساء إليه. وصرخ قائلاً "اللهم إشفها" (عد١٢: ١٣).

ومن الأمثلة الجميلة ، ما قيل عن وداعة سليمان الملك وسعة صدره، إن الله منحه "حكمةً وفهماً كثيراً جداً، ورحبة قلبه كالرمل الذى على شاطئ البحر" (١مل٤: ٢٩).

✠ ✠ ✠

١٤ – والإنسان الوديع طيب ، سهل التعامل مع الناس .

إذا تناقش مع أحد، لا يجعل المناقشة تحتد وتتعقد، بل يبدى رأيه ببساطة، ويدافع عنه بهدوء، بطريقة وديعة، كما يقول الكتاب "فى وداعة الحكمة" (يع٣: ١٣)، حتى إن كان ينبه محاوره إلى خطأ!

إنه بسيط فى التعامل، لا عنده دهاء ولا مكر ولا خبث .

ولا يظهر غير ما يبطن . ولا نعنى بكلمة (بسيط) أنه إنسان ساذج! كلا، بل قد يكون فى منتهى الحكمة. ولكنه فى بساطته لا يعقد الأمور. وهو لا يلف ولا يدور فى حديثه،

ولا يدبر خططاً ضد أحد.

❀ ❀ ❀

١٥ - بل هو صريح ومريح يمكنك أن تثق به وتطمئن إليه .

ورقيق فى معاملته ، لا يخدش شعور من يتحاور معه، إذا أخطأ. بل هو حلو الطبع، دمث الخلق، حسن المعاملة. لذلك تجده محبوباً من الكل، كإنسان طيب ...

❀ ❀ ❀

١٦ - الإنسان الوديع مملوء من الحنان والعطف، حتى على أشر الخطاة .

فإن رأيت إنساناً قاسياً فى تعامله، إعلم أنه غير وديع .

أنظروا إلى وداعة السيد المسيح مع المرأة السامرية، وكيف أنه لم يجرح شعورها ولم يخدش حياءها ولا بكلمة واحدة. بل أجتذبها إلى الاعتراف بوداعة ولطف. ووجد فيها شيئاً يمتدحه، فقال لها "حسناً قلتِ إنه ليس لك زوج.. هذا قلتِ بالصدق" (يو٤: ١٧، ١٨).. وبهذه الوداعة أمكنه أن يقتادها إلى التوبة، وإلى الإيمان بأنه المسيح وبشرت أهل المدينة بذلك (يو٤: ٢٩).

وبنفس الوداعة أيضاً تصرف مع المرأة الخاطئة المضبوطة فى ذات الفعل.. لم يبكتها. بل أنقذها من الذين أرادوا رجمها. فلما أنصرفوا قال لها "أين هم أولئك المشتكون عليكِ؟ أما دانك أحد؟ ولا أنا أدينك. أذهبى ولا تخطئى أيضاً" (يو٨: ١٠، ١١).

❀ ❀ ❀

وفى وداعة من نوع آخر، عاتب بعد القيامة تلميذه بطرس :

ذلك الذى أنكره ثلاث مرات، وحلف ولعن وقال: لا أعرف الرجل (مت٢٦: ٧٤). فقال له الرب ثلاث مرات "يا سمعان بن يونا، أتحبنى أكثر من هؤلاء؟!".. ومعها ثلاث مرات ثبته فى عمل الرعاية بقوله "أرع غنمى.. أرع خرافى" (يو٢١: ١٥- ١٧).

وهكذا أيضاً فى وداعة، قابل نيقوديموس ليلاً (يو٣: ٢).

ولم يوبخه على خوفه من اليهود.. إذ جاء إليه ليلاً، حتى لا ينكشف أمره لهم.. وإذا بالسيد المسيح - فى وداعته - يلصقه بمحبته، التى جاهر بها بعد صلبه، إذ اشترك فى تكفينه مع يوسف الرامى (يو١٩: ٣٩).

❀ ❀ ❀

وداعة الله تعامل الخطاة بطول أناة. وطول أناته تنتظر توبتهم.

وهو يود توبتهم، دون أن يعرضهم إلى عدالته ونقمته.

وهكذا الإنسان الوديع لا ينتقم من المخطئين إليه، قائلاً فى نفسه: "لا أنتقم من أحد، لئلا الله ينتقم أيضاً منى بسبب أخطائى" . ولا يفرح مطلقاً ببلية المسيئين إليه. لأن الفرحان ببلية لا يتبرأ" (أم١٧: ٥).

✠ ✠ ✠

١٧ - والإنسان الوديع يضع أمامه أربع درجات فى التعامل مع المخطئين :

منها احتمال المخطئ إليه، فلا يغضب منه، ولا يثور عليه .

ثم المغفرة للمخطئ، فلا يمسك عليه خطيئته، ولا يحقد عليه .

ثم الصلح مع المخطئ. ولتكن المبادرة منه هو، كما قال الرسول: "مسرعين إلى حفظ وحدانية الروح برباط الصلح الكامل" (أف٤: ٣).

وأكثر من هذا كله: محبة هذا المخطئ، كأخ. والصلاة من أجله حسب وصية الرب "وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطرونكم" (مت٥: ٤٤).

وهو لا يفعل ذلك كله، إلا إذا كان قلبه واسعاً، وطبعه هادئاً. ويتشبه بإلهنا الوديع الذى قال عنه المرتل فى المزمور إنه "لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا" (مز١٠٣: ١٠).

✠ ✠ ✠

١٨ - وأكثر من هذا، فإن السيد المسيح الوديع يقيم عذراً للمخطئين .

فلما ذهب إلى بستان جثيمانى مع ثلاثة من أقرب تلاميذه إليه، وذلك فى أحرج الأوقات، فى الليلة التى سيُقبض فيها عليه. وكان يجاهد ونفسه حزينة حتى الموت (مت٢٦: ٣٨). ولم يسهر تلاميذه معه فى تلك الليلة، بل ناموا" لأن أعينهم كانت ثقيلة". وعلى الرغم من أنه عاتبهم قائلاً "أما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة؟!"، إلا أنهم ناموا أيضاً...

فقال لهم "ناموا الآن واستريحوا". والتمس لهم عذراً فى نومهم وتخليهم عنه، قائلاً "أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف" (مت٢٦: ٤١)... ما أعمق وداعتك يارب! حتى هؤلاء النائمين فى أحرج ساعات جهادك، تلتمس لهم عذراً، بل تذكر أيضاً لهم شيئاً حسناً، قائلاً عنهم "أما الروح فنشيط"!

✠ ✠ ✠

١٩ - الإنسان الوديع ، لا يتشبث برأيه، ولا يكون عنيداً.

وإن دخل فى مناقشة، يكون هدفه أن يكسب من يناقشه، لا أن يكسب المناقشة ذاتها. لا يظهر للمناقش أخطاءه، ولا يكشف له ضعف حجته. بل فى إيجابية وديعة، يشرح وجهة نظره بأسلوب رقيق مقنع.. وهو فى كسبه لمن يناقشه بكل لياقة وأدب، يمكنه أن يكسب المناقشة...

أما غير الوديع، فيتمسك بأية نقطة - مهما كانت صغيرة - ويقيم عليها مشكلة ومناقشة، ويكبّرها ويضخمها، ويصيّر الحبة قبة كما يقول المثل! حتى ليعلّق البعض قائلاً "أوقعت فى يد فلان؟! فلينقذك الله منه إنه يمكن أن يستنتج لك أخطاء فى كلامك، لم تفكر فيها قط!!"

❀ ❀ ❀

٢٠ - الإنسان الوديع لا يحلّ إشكالاً بإشكال آخر ...

إنه بطبيعته الوديعة يحب أن يبعد عن المشاكل، ويتفاداها بقدر طاقته. وإن وُجد أمام مشكلة، إما أن يحتملها فى هدوء، أو أنه يعطيها مدى زمنياً تُحلّ فيه، أو يجد لها حلاً فى هدوء، أو أن يمررّها دون أن تجعلها تمرره أو تمرر غيره.. المشكلة بالنسبة إليه كقطعة طين ألقيت فى بحر واسع، فلم تعكر البحر، بل ذابت فى أعماقه..!

❀ ❀ ❀

٢١ - الإنسان الوديع هو شخص (مهاود)، يميل إلى الطاعة:

طبعاً يطيع فى ما لايخالف ضميره، وما لا يخالف وصية الله. أما باقى الأمور، فيكون فيها سهل الاستجابة، ولا يجعلها موضعاً للجدل والنقاش.

أما غير الوديع، فقد يكون صلباً وشديداً فى كل ما يُطلب منه. ويظل يضع أسئلة وعراقيل: لماذا تريد؟ وكيف يمكن التنفيذ، وهناك صعاب؟ ولماذا تطلب منى أنا بالذات؟ وعلامَ الإسراع؟ لماذا لا تنتظر؟ ومن قال لك إن وقتى يسمح وإن ظروفى تسمح؟! ويستمر فى المعارضة.. وقد ينتهى به الأمر أن يرفض، أو قد يوافق أخيراً، بشروط، وبعد تعب فى الأخذ والرد.

❀ ❀ ❀

٢٢ - أما الوديع، فإنه يريد باستمرار أن يريح غيره.

والخير الذى يستطيع أن يعمله لأجل غيره، فإنه يعمله بكل محبة وكل هدوء، وبدون

جدل، وبدون إبطاء. وكما قال الكتاب "لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون فـي طاقـة يـدك أن تفعله.." (أم٣: ٢٧).

٢٣ – لذلك فالإنسان الوديع يكون مستعداً لأداء أية خدمة .

سواء كان ذلك فى نطاق عمله الرسمى أو تطوعاً منه: لأن هناك نوعاً من الموظفين الرسميين ليست لهم روح الخدمة ولا روح الوداعة فى الاستجابة لطلبات الجماهير. ولذلك قلتُ مرةً: إن الموظف الوديع المريح يجد حلاً لكل مشكلة. أما الموظـف المتعب المعقد، فإنه يجد مشكلة لكل حل!!

ولكن الوديع يعمل باستمرار علـى إراحـة غيره، حتـى لـو لـم يكـن مسئولاً عـن ذلـك رسمياً. إنه يستجيب بكل بشاشة لكل طلب يُطلب منـه. وحتـى دون أن يُطلب منـه، يعمـل تطوعاً لخير غيره وراحته...

٢٤ – وإن نال الوديع مركزاً أو سلطة يستخدم ذلك لمنفعة الناس.

لا يرتفع قلبه بالمركز أو السلطة، بل يظل خادماً للجميع، محققاً للنـاس مـا يسـتطيع أن يحققه لهم عن طريق سلطته وإمكانياته. كما قال السيد الرب "إن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدِم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت٢٠: ٢٨).

✠ ✠ ✠

٢٥ – من أجل هذا كله، يكون الوديع باستمرار شخصاً محبوباً.

الناس يحبون فيه طيبة قلبه، وبشاشة ملامحه، وحسن تعامله، وطاعتـه وخدمتـه للكـل، ورقة أسلوبه. وبسبب ذلك يدافعون عنه إن أصابته أية أذية. الكل يدافع عنه، وإن كان هـو لا يدافع عن نفسه.

والشخص الذى يستغل طيبته ويظلمه، يتعبه ضميره ويخاف، لأنه قد أذى إنسـاناً طيبـاً لا يؤذى أحداً!

✠ ✠ ✠

٢٦ – والإنسان الوديع له سلام فى قلبه، لا يتعب من أحد .

وإن ضغطت عليه الظروف وتعب، لا يظهر تعبه فى الخارج بهيئة ضيق أو نرفزة، أو برد الإهانة بمثلها.. كلا، فهو كما أن له سلاماً داخل قلبه، كذلك له سلام مع الناس.

✠ ✠ ✠

٢٧ – ومن صفات الوديع : الهدوء والبعد عن العنف .

إن العنف هو عكس الوداعة تماماً. فحتى لو كان الوديع فى موضـع المسئولية، وكـان من واجبه أن يوبخ وينتهر، فإنه يفعل ذلك أيضاً فى غير عنف. وإن أضطرتـه مسئولياته أن يحكم على أحد، فإنه يحكـم فـى غير قسوة وفـى غـير ظلـم. وإن لجـأ إلـى العتـاب أو النصح، فإنه يكون رقيقاً فى نصحه، وهادئاً ومحباً فى عتابه.

ينطبق عليه ما قلناه مرة فى رثاء الأرشيدياكون حبيب جرجس:

يا قوياً ليس فى طبعه عنفُ	ووديعاً ليس فى ذاته ضعـفُ
يـا حكيـماً أدّب النـاس وفى	زجره حبٌ وفى صوته عطفُ
لـك أسلـوب نزيـه طاهـرٌ	ولسـانٌ أبيض الألفاظ عـفُّ
لم تنل بالـذم إنسـاناً ولـم	تذكر السوء إذا ما حلّ وصـفُ
إنمـا بالحـب والتشجيـع قد	تصلح الأعوجَ، والأكدرُ يصفو

✠ ✠ ✠

٢٨ – الإنسان الوديع هو إنسان بسيط .

ونقصد بالبساطة عدم التعقيد . فقد يكون بسيطاً وحكيماً فى نفس الوقت. كما قال السيد الرب "كونوا بسطاء كالحمام، وحكماء كالحيات.." (مت١٠: ١٦)... فهو يكون فـى عقلـه حكيماً، وفى تصرفاته بسيطاً...

بقى أن أحدثك عن كيف تُقتنى الوداعة؟ وكيف يفقدها البعض؟

كيف تقتنى الوداعة؟ ولماذا تفقد؟

إقتناء الوداعة:

هناك من وُلدوا من بطون أمهاتهم ودعاء، بطبع هادئ لم يتعبوا فى أقتنائه، إنما نالوه عن طريق الوراثة، أو هبة من الله وهبهم إياها، بعكس البعض الذين يُولدون بطبع نارى يميل إلى العصبية أو إلى العنف...

ولسنا عن الودعاء بالطبع أو الميلاد أو الهبة، نتكلم هنا...

إنما نتحدث بصفة عامة عن كيفية إقتناء الوداعة أو تعوّدها...

☩ ☩ ☩

والإنسان الذى يصل إلى الوداعة بجهاد وضبط النفس ومحاولات للسيطرة على أعصابه وعلى إرادته، هذا يكون أجره عند الله أكبر.

إنه يجاهد -ربما بتداريب كثيرة- لكى يضبط ذاته، ويضبط أفكاره، وألفاظه، وحركاته، ويقتنى كل أنواع الهدوء.. ويتخلص من الغضب والنرفزة بكل أنواعها وكل نتائجها.

إنها وداعة ليست طبيعية وإنما مكتسبة. مثالها القديس موسى الأسود، الذى كان غضوباً وقتالاً وحاد الطبع، بل كان مخيفاً أيضاً. ولكنه بضبط النفس، وبالتدريب والصبر، وبحكمة المرشد ومعونة الله، صار وديعاً جداً. وقد اختبروا وداعته يوم سيامته قساً، ونجح فى الاختبار.

ومادام الله يطلب منا أن نكون ودعاء، فلابد أنه قد وضع فى إمكانية طبيعتنا الوصول إلى هذه الفضيلة، وتنفيذ وصيته فيها (مت١١: ٢٩).

☩ ☩ ☩

★تدرّب يا أخى إذن على الهدوء، وابدأ مثلاً بهدوء الصوت:

فى حديثك العادى، ابعد عن الصوت العالى. وحاول أن يكون صوتك منخفضاً خفيفاً. ولاشك أن هذا أمر سهل. تدرج منه إلى الصوت الهادئ غير الحاد. فلا تتكلم بعنف ولا بشدة، محتفظاً بأعصابك حينما تتكلم، متحكماً فى نبرات صوتك..

فإن تدربت على هدوء الصوت، تدرّب أيضاً على هدوء الملامح .

لأن الشخص الغضوب، يظهر غضبه فى ملامحه،وفى نظرات عينيه، وفى تجهمه وتقطيب جبينه. فإن وجدت أنك قد وصلت إلى هذا كله، أو إلى بعض منه، قل لنفسك: إن شكلى الآن أصبح لا يليق، بل ربما أصبح منفراً.. وحينئذ حاول أن تهدئ ملامحك. وستجد أنك مضطر فى نفس الوقت أن تهدئ إنفعالاتك الداخلية...

★نقطة ثالثة : وهى هدوء الحركات .

الشخص الغضوب قد يظهر غضبه فى عدم هدوء حركاته، وبخاصة فى حركات يديه. فى العسكرية لا يستطيع جندى أن يحدث أحد رؤسائه وهو يحرك إحدى يديه، بل يُقال له "إثبت".. كذلك أنت، حاول أن تضبط ليس فقط حركات يديك، بل حركاتك. وكن هادئاً فى جلستك، وفى مشيتك، لا تتململ، ولا تظهر العصبية عليك، ولا تبدو أمام الناس منفعلاً..

☩ ☩ ☩

★وفى كل ذلك تدرّب على هدوء ألفاظك .

غير الودعاء تصدر عنهم ألفاظ قاسية عنيفة، أو ألفاظ متهكمة تثير محدثيهم، أو ألفاظ تدخل فى نطاق الشتيمة والإهانة. أو أنهم فى غضبهم: إذا تكلموا لا يراعون دقة الألفاظ فتمسك عليهم أخطاء. وقد يكونون فىكلامهم غير مهذبين، يستخدمون ألفاظاً جارحة، أو غير لائقة، أو ألفاظاً تخرج عن حدود الأدب والوقار والحشمة. وكل هذا ضد الوداعة..

أما أنت فحاول أن تضبط ألفاظك. وإن لم تستطع ذلك فى غضبك، إذن حاول أن تضبط غضبك. أو على الأقل: إن غضبت، اصمت. وقل "ضع يارب حافظاً لفمى، وباباً حصيناً لشفتى" (مز ١٤١: ٣).

☩ ☩ ☩

★على أن أهم من هذا كله، هدوء القلب ووداعته .

فالوداعة فى أصلها هى وداعة القلب. والقلب الوديع يكون وديعاً فى كل شئ: فى صوته، فى ملامحه، فى ألفاظه، فى أعصابه، فى حركاته. لأن كل هذه مظاهر خارجية تعبر عن حالة القلب من الداخل. ومع ذلك فالتدرب عليها يوصل إلى وداعة القلب، أو ينبه القلب إلى الالتزام بالوداعة.

★على أن وداعة القلب ترتبط بفضائل أخرى كثيرة .

لعل فى مقدمتها التواضع. فالإنسان المتواضع يتصرف فى وداعة. والسيد المسيح جمع الفضيلتين معاً فى آية واحدة، حينما قال "تعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب" (مت١١: ٢٩). كذلك المحبة أيضاً إن عاش الإنسان فيها، يحيا بالضرورة فى حياة الوداعة. فالمحبة كما قال الرسول: تتأنى، وتترفق، ولا تقبّح، ولا تحتد، ولا تظن السوء.. وتحتمل كل شئ، وتصبر على كل شئ (١كو١٣: ٤-٧). وكل هذه من صفات وعناصر الوداعة أيضاً.

كذلك الوداعة ترتبط بفضائل اللطف، والهدوء، وطول الروح، وسعة الصدر، والتسامح، وربح النفوس، والحكمة. فمن يقتنى هذه الفضائل وأمثالها، يقتنى الوداعة أيضاً.

والوداعة تُقتنى أيضاً بعمل النعمة فى القلب .

ويحتاج الإنسان أن يطلب ذلك فى صلاته، وأن يتجاوب عملياً مع عمل النعمة فيه، ويشترك مع الروح القدس الذى يقوده إلى الوداعة.

فإن إقتنينا الوداعة، نحرص ألا نفقدها. فما أسباب فقدها .

أسباب فقد الوداعة :

هناك أسباب إذا سلك فيها الإنسان بطريق خاطئ، فإنها تفقده وداعته، أو لا تساعده على اقتنائها من بادئ الأمر. نذكر من بينها:

السلطة والمركز والغنى وسائر نواحى العظمة :

أحياناً يتولى إنسان منصباً رفيعاً، فيظن أنه من مستلزمات المنصب أن يأمر وينهى، ويزجر وينتهر، ويتعالى وينظر إلى الآخرين من فوق. وهكذا يفقد وداعته وتواضعه أيضاً، ويدخله روح التسلط...

ولكن ليست المناصب العليا أمراً مانعاً للوداعة. فهناك عظماء ودعاء، جمعوا بين الرئاسة والوداعة. مثل داود النبى وهو قائد للجيش فى عهد شاول الملك (١صم١٨: ٥)، كان وديعاً ويختلط بالناس فى محبة "وكان جميع إسرائيل ويهوذا يحبون داود لأنه كان يخرج ويدخل أمامهم" (١صم١٨: ١٦).

والسيدة العذراء وصلت إلى أعلى مركز تصل إليه امرأة، إذ أن جميع الأجيال تطوبها"

(لو ١: ٤٨) ومع ذلك لم تفقد وداعتها. والسيد المسيح نفسه فى كل مجده، كان وديعاً.

لكن الذى يستغل المنصب والعظمة استغلالاً خاطئاً، فهذا الذى يفقد الوداعة، مثل الكتبة والفريسيين (مت٢٣). وهامان فى سفر أستير .

✠ ✠ ✠

★ويدخل فى نطاق العظمة أيضاً : الغنى والمال :

وعلى الرغم من ذلك نقرأ فى التاريخ عن أغنياء كانوا ودعاء، وكانوا يختلطون بالفقراء والمحتاجين يحلّون لهم مشاكلهم مثل المعلم ابراهيم الجوهرى وأخيه المعلم جرجس الجوهرى.

✠ ✠ ✠

★وقد يفقد البعض وداعتهم ، إذا ما دخلوا فى مجال إصلاح الآخرين، بطريقة خاطئة.

ويظن هؤلاء أن وسيلة الإصلاح لا تأتى إلا بالعنف والشدة. أو أن الدفاع عن الحق لا يتم إلا بالتشهير، وإدانة المخطئين أو من يظنونهم مخطئين، بسبهم علناً وتحريض الناس ضدهم. ويحسبون أنهم بذلك يخلعون الزوان من الأرض، بينما يخلعون الحنطة معه (مت١٣: ٢٩). ولا يضعون أمامهم قول السيد الرب "أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك" (مت٧: ٥).

مشكلة أولئك وأمثالهم أنهم يفقدون وداعتهم، ويرتكبون العديد من الخطايا، دون أن يدركوا ذلك، بل على العكس يفتخرون بما يفعلون!.. وأكثر من ذلك يحسبون أنفسهم أبطالاً ومصلحين..!

✠ ✠ ✠

★يذكرنى هذا بأشخاص يُعهد إليهم بتنظيم أحد الاجتماعات .

وباسم العمل على حفظ النظام، ينتهرون، ويصيحون. بل ويمنعون ويطردون. ويستخدمون كل القسوة فى عملهم. وأحياناً لا نسمع ضوضاء فى الاجتماع، إلا ما يصدر من أصوات المنظمين!!

لماذا لا يعمل أولئك على حفظ النظام فى هدوء، وفى غير عنف. مثل عصا الراعى التى ينظم بها مسيرة غنمه، بالإشارة واللمس دون أن يضرب. لذلك يقول المرتل فى مزمور الراعى "عصاك وعكازك هما يعزياننى" (مز٢٣: ٤).

✠ ✠ ✠

★البعض يفقد وداعته باسم الصراحة وقول الحق:

وباسم الصراحة يجرح شعور الآخرين بطريقة منفرة مؤذية. والعجيب أنه يقول فى افتخار "أنا إنسان صريح. أقول للأعور أنت أعور، فى عينه"! ولماذا يا أخى تجرحه وتؤلمه بصراحتك هذه، الخالية من المحبة، ومن اللياقة؟! أما كان ممكناً أن تستخدم أسلوباً آخر؟!

إن السيد المسيح كان صريحاً مع المرأة السامرية، فى رفق، بأسلوب لم يجرح فيه مشاعرها، بل امتدحها فيما تستحق فيه المديح (يو٤: ١٧، ١٨). وبهذا الأسلوب الرقيق الرفيع، اجتذبها إلى الإيمان.

☩ ☩ ☩

★وقد يدخل فى موضوع الصراحة هذه، العتاب .

فقد يوجد إنسان– بالعتاب – يربح أخاه. بينما آخر، بفقده للوداعة فى عتابه يفقد صديقه أيضاً. وقد قال الشاعر فى هذا:

ودَعْ العتاب فربَّ شرٍّ كان أوله العتابا

★إنسان آخر يفقد وداعته بسبب الحزم .

والحزم ليس معناه بالضرورة العنف. فما أسهل أن يكون الإنسان حازماً ووديعاً. يأخذ موقفاً حازماً، وفى نفس الوقت يشرح سبب هذا الحزم بطريقة مقنعة لا تفقده محبة من يستخدم الحزم معهم. وهكذا يفعل الأب مع أبنائه، يتصرف بحزم ممزوج بالمحبة والإقناع. وبمثل هذا الحزم أيضاً يتصرف رئيس مع مرؤوسيه، ولكن بحزم بعيد عن الغضب والنرفزة، بل بحكمة رصينة هادئة.

بهذا الحزم منع الرب داود النبى من بناء الهيكل، شارحاً السبب فى ذلك (١أى٢٨: ٣، ٦). وفى نفس الوقت لم يجرح شعور داود، ولم يتعارض ذلك مع محبته له.

☩ ☩ ☩

★البعض يفقد وداعته بسبب الحرص على كرامته الشخصية .

وهذا أمر ردئ. فالكرامة الحقيقية هى أن يحتفظ الإنسان بالصورة الإلهية التى خُلق بها (تك١: ٢٦). ولكى نكون على صورة الله وشبهه، ينبغى أن نكون ودعاء مثله.

★والبعض يفقد الوداعة فى مجال الشجاعة .

وهذا ما سنتحدث عنه الآن ...

الوداعة لا تتعارض مع الشجاعة والشهامة

الوداعة هى الطيبة، واللطف والهدوء. ولكن لا يصح أن تُفهم فهماً خاطئاً. وكأن الوديع يبقى بلا شخصية ولا فاعلية، ويصبح كجثة هامدة لا تتحرك!! بل قد يصير هزأة يلهو بها الناس!!

وبالفهم الخاطئ يتحول هذا (الوديع) إلى إنسان خامل لا يتدخل فى شئ!

كلا. هذا كلام غير مقبول لا يتفق مع تعليم الكتاب، ويُفقد الوداعة صفتها كفضيلة. ولا يتفق مع سير الآباء والأنبياء.

✠ ✠ ✠

حقاً إن الإنسان الوديع هو شخص طيب وهادئ. ولكن هذا هو نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فهو أن الوداعة ليست منفصلة أو متعارضة مع باقى الفضائل كالشهامة مثلاً أو الشجاعة.

وإنما "لكل شئ تحت السموات وقت" كما يقول الكتاب (جا٣: ١).

نعم، هكذا يعلمنا الكتاب: "للغرس وقت، ولقلع المغروس وقت.. للسكوت وقت، وللتكلم وقت" (جا٣: ٢، ٧). هكذا أيضاً بالنسبة إلى الوديع: يعرف متى يهدأ، ومتى ينفعل؟ متى يصمت، ومتى يتدخل؟

ولقد سئل القديس الأنبا أنطونيوس الكبير مرة عن أعظم الفضائل: هل الصلاة أم الصوم أو الصمت..؟ فأجاب إن أهم فضيلة هى الإفراز: أى الحكمة فى التصرف، أو تمييز ما ينبغى أن يُعمل.

✠ ✠ ✠

الطيبة هى الطبع السائد عند الوديع. ولكن عندما يدعوه الموقف إلى الشهامة أو الشجاعة أو الشهادة للحق، فلا يجوز له أن يمتنع عن ذلك بحجة التمسك بالوداعة..!

لأنه لو فعل ذلك، وامتنع عن التحرك نحو الموقف الشجاع، لا تكون وداعته حقيقية. إنما تصير رخاوة فى الطبع، وعدم فهم للوداعة، بل عدم فهمٍ للروحانية بصفة عامة. فالروحانية ليست تمسكاً بفضيلة واحدة، تُلغى معها باقى الفضائل. إنما الروحانية هى كل الفضائل معاً، متجانسة، ومتعاونة فى جو من التكامل.

وأمامنا أمثلة كثيرة من الكتاب فى مقدمتها السيد المسيح له المجد.

السيد المسيح :

إنه وديع ومتواضع القلب (مت١١: ٢٩) "قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ" (مت١٢: ٢٠).. ومع ذلك فإنه لما رأى اليهود قد دنسوا الهيكل. وهم يبيعون فيه ويشترون، "أخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام. وقال لهم: مكتوب بيتى بيت الصلاة يُدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (مت٢١: ١٢، ١٣) (يو٢: ١٤-١٦).

أكان ممكناً للمسيح – باسم الوداعة – أن يتركهم يجعلون بيت الآب بيتاً للتجارة؟! أم أنه مزج الوداعة بالغيرة المقدسة كما فعل. "فتذكر تلاميذه أنه مكتوب: غيرة بيتك أكلتنى" (يو٢: ١٦، ١٧).

❋ ❋ ❋

وكما قام السيد المسيح بتطهير الهيكل، هكذا وبخ الكتبة والفريسيين .

حقاً "لكل أمر تحت السموات وقت". للهدوء وقت، وللغيرة المقدسة وقت. للسكوت وقت، وللتعليم وقت. وقد كان الكتبة والفريسيون يضلون الناس بتعليمهم الخاطئ. فكان على المعلم الأعظم أن يكشفهم، ولا يبقيهم جالسين على كرسى موسى فى المجتمع المسيحى الجديد. فقال لهم "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيونه المراؤون. لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس. فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الداخلين يدخلون" (مت٢٣: ١٣).

هل كان ممكناً – باسم الوداعة – أن يتركهم يغلقون أبواب الملكوت؟!

❋ ❋ ❋

الوداعة فضيلة عظيمة. ولكنها لا تمنع من الغيرة المقدسة. وكذلك لا تمنع من الشـهادة للحق، كما فعل السيد المسيح له المجد.

والشهادة للحق أمر هام يريده الله. ولعل أهميته تظهر من قول اللـه علـى لسان ارميا النبى فى العهد القديم "طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا، وفتشوا فى سـاحاتها. هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بـالعدل طـالب الحـق، فـاصفح عنهـا؟" (أر٥: ١). وقـال الرب لتلاميذه: "..وتكونون لى شهوداً" (أع١: ٨).

فهل الوداعة تمنع الشهادة للحق. أمامنا بولس الرسول كمثال.

بولـس الـرسـول :

نضع أمامنا موقفه من القديس بطرس الرسول، لما سلك مـع الأمـم مسلكاً رآه بولـس الرسول مسلكاً ريائياً. فقال القديس بولس فى ذلك "قاومته مواجهة لأنه كان ملومـاً. وقلت لبطرس قدام الجميع: إن كنت وأنت يهودى تعيش أممياً لا يهوديـاً، فلمـاذا تلزم الأمـم أن يتهودوا؟!" (غل٢: ١١، ١٤).

ومعروف عن القديس بولس أنه إنسان وديع. أليس هو القـائل فـى رسالته الثانيـة إلـى أهل كورنثوس "أطلب إليكم بوداعة المسيح وحلمه، أنا نفسى بولس، الذى هو فـى الحضـرة ذليل بينكم. وأما فـى الغيبة فمتجاسر عليكم.." (٢كو١٠: ١).

بولس الوديع هذا – حينما أضطرته الضرورة – وبخ القديـس بطـرس الرسـول، الـذى كان أقدم منه فى الرسولية، وأكبر منه سناً، وكان أحـد أعمـدة الكنيسـة (غل٢: ٩). ولكـن وداعة القديس بولس لم تمنعه من توبيخ ذلك الشيخ الكبير، ومواجهته قدام الناس.

إن فضيلة الوداعة لا يجوز لها أن تعطل باقى الفضائل .

وأمامنا مثل فى مزج الوداعة بالشهامة هو ابراهيم أبو الآباء :

أبـونـا إبـراهيـم :

لاشك أن ابراهيم أبا الآباء كان وديعاً. هذا الذى سجد لبنـى حـث، حينمـا طلـب مكانـاً يدفن فيه سارة زوجته. بينما كان بنو حث يبجلونه قائلين "أنـت يـا سـيدى رئيس مـن اللـه بيننا. فى أفضل قبورنا أدفن ميتك" (تك٢٣: ٦-٧). ومع ذلك سجد لهم..!

ابراهيم الوديع هذا، لما أخبروه بسبى لوط ضمن سبى سادوم فى حرب أربعة ملوك ضد خمسة، يقول الكتاب "فلما سمع ابرآم أن أخاه لوطاً قد سبى، جرّ غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان وكسرهم، وتبعهم إلى حوبة.. واسترجع كل الأملاك، واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب" (تك١٤: ١٤-١٦).

أكانت شهامة ابراهيم ونخوته ضد وداعته وطيبته؟! حاشا.

مثال آخر فى امتزاج الوداعة بالشهامة والشجاعة والقوة، هو الصبى داود فى محاربته لجليات الجبار.

داود النبى :

لاشك أن داود كان وديعاً. يقول عنه المزمور "اذكر يارب داود وكل دعته" (مز١٣٢: ١). داود راعى الغنم الهادئ، صاحب المزمار، الذى يحسن الضرب على العود (١صم١٦: ٢١). داود الحسن المنظر مع حلاوة فى العينين (١صم١٦: ١٢).

داود هذا، لما ذهب إلى ميدان الحرب يفتقد سلامة أخوته، وسمع جليات الجبار يعيّر الجيش كله ويتحداه، والكل ساكت وخائف.. تملكته الغيرة المقدسة. وبكل شجاعة وقوة وإيمان قال "لا يسقط قلب أحد بسببه" وعرض أن يذهب ليحاربه (١صم١٧: ٣٢). وتقدم فى شجاعة نحو ذلك الجبار الذى أخاف الكل وقال له "اليوم يحبسك الرب فى يدى..! (١صم١٧: ٤٦). وأعانه الله فانتصر عليه وخلّص الجيش منه.

وعلى الرغم من قوة داود وشجاعته، لم تفارقه وداعته ولا اتضاعه. بل قال لشاول الملك فيما بعد لما طارده "وراء من خرج ملك إسرائيل؟ وراء من أنت مطارد؟ وراء كلب ميت! وراء برغوث واحد!" (١صم٢٤: ١٤).

مواقف لشجاعة الوديع

نتابع كلامنا فى هذا الموضوع ، فنذكر النقاط الآتية :

الغضب المقدس :

ومثال لذلك موسى النبى الوديع، الذى قيل فى وداعته "وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد١٢: ٣).

ماذا فعل هذا الوديع، حينما نزل من على الجبل، ووجد الشعب فى رقص وغناء حول العجل الذهبى الذى صنعوه وعبدوه؟ يقول الكتاب "فحمى غضب موسى، وطرح اللوحين (لوحى الشريعة) من يديه، وكسّرهما فى أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار، وطحنه حتى صار ناعماً، وذرّاه على وجه الماء" (خر٣٢: ١٩، ٢٠). ووبخ موسى أخاه هارون رئيس الكهنة، حتى ارتبك أمامه هارون وخاف. وقال له "لا يُحم غضب سيدى. أنت تعلم الشعب أنه فى شر". وقال فى خوفه وارتباكه عن الذهب الذى جمعه من الناس "طرحته فى النار، فخرج هذا العجل"! (خر٣٢: ٢٢، ٢٤). وعاقب موسى الشعب. فمات فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف.

موسى الوديع غضب غضبة مقدسة للرب، ووبخ وعاقب. وما كان يستطيع فى وداعته أن يسكت على الذى حدث . إن الوداعة لا تمنع الغضب المقدس.

الوداعة أيضاً لا تمنع قوة الشخصية ولا قوة التأثير .

قـوة الشخصية :

كان السيد المسيح وديعاً، وفى نفس الوقت كان قوى الشخصية، وكان قويـاً فـى تـأثيره على غيره. ولكننى أريد هنا أن أقدم مثالاً فى مستوى البشر الذى شرحنا من قبل شيئاً عن وداعته، وهو بولس الرسول.

يقول سفر الأعمال عن القديس بولس وهو أسير "وبينما كان يتكلـم عـن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون، أرتعب فيلكس (الوالى) وأجاب: أما الآن فاذهب. ومتى حصلت على وقت استدعيك" (أع٢٤: ٢٤، ٢٥).

ولما وقف بولس – وهو أسير أيضـاً – أمـام أغريبـاس الملـك. قـال لـه بعـد أن ترافـع أمامه "أتؤمن أيها الملك أغريبـاس بالأنبيـاء؟ أنـا أعلـم أنـك تؤمـن". فقـال أغريبـاس الملـك لبولس "بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً" (أع٢٦: ٢٧، ٢٨).. وحينئذ فى قوة وعزة، أجابـه القديس بولس: "كنت أصلى إلى الله، أنه بقليل وكثير، ليس أنت فقط، بل أيضاً جميع الذين يسمعوننى، يصيرون هكذا كمـا أنـا، مـا خـلا هـذه القيـود" (أع٢٦: ٢٩). أترى تتعـارض الوداعة مع هذه القوة؟! كلا بلا شك.

الدفـاع عن الحق :

ووقت الضرورة، لا تتنافى الوداعة مع الدفاع عن الحق .

★ويتضح هذا الأمر من قصة بولس الرسول مع الأمير كلوديوس ليسياس، لما أمر أن يفحصوه بضربات، ليعلم لأى سبب كان اليهود يصرخون عليه. يقول الكتـاب "فلمـا مـدوه للسياط، قال بولس لقائد المائة الواقف "أيجوز لكم أن تجلـدوا رجـلاً رومانيـاً غيـر مقضـىّ عليه؟! وإذ سمع القائد هذا، أخبر الأمير الذى جاء واستخبر من بولس عن الأمر. "وحينئـذ تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه. واختشى الأمير لما علـم أنـه رومـانى، ولأنـه قيده" (أع٢٢: ٢٥-٢٩).

ما كان القديس بولس يهرب من الجلد، فهو الذى قال "مـن اليهـود خمـس مـرات قبلـت أربعين جلدة إلا واحدة" (٢كو١١: ٢٤). لكنه هنا دافع عن حق معين، وأظهر للأمير خطأ كان مزمعاً أن يقع فيه. وما كان هذا يتنافى مع وداعة القديس بولس.

✠ ✠ ✠

★وبنفس الوضع لما أراد فستوس الوالى أن يسلّمه إلى اليهود ليُحاكم أمامهم. وبهذا يقدم لهم منة (أى جميلاً). فقال له القديس بولس فى حزم - مدافعاً عن حقه - "أنا واقف لدى كرسى ولاية قيصر، حيث ينبغى أن أحاكم. إلى قيصر أنا رافع دعواى". فأجابه الوالى "إلى قيصر رفعت دعواك. إلى قيصر تذهب" (أع٢٥: ١٠-١٢).

لم يكن القديس بولس خائفاً من اليهود. لكنه - فى حكمة - طلب هذا، ليذهب إلى رومه - حيث يوجد قيصر - ويبشر هناك. لأن الرب كان قد تراءى له قبل ذلك وقال له "ثق يا بولس. لأنك كما شهدت بما لى فى أورشليم، هكذا ينبغى أن تشهد فى روميه أيضاً" (أع٢٣: ١١). وهكذا دافع عن حقه فى وداعة وحكمة دون أن يخطئ. بل تكلم كلاماً قانونياً .

الوداعة أيضاً لا تمنع من تنبيه خاطئ، لإنقاذه من خطأ أو خطر .

تحذير لأحد الخطاة :

كما قال القديس يهوذا الرسول غير الأسخريوطى "خلصوا البعض بالخوف، مختطفين من النار" (يه٢٣).

فهل إذا رأيت صديقاً أو قريباً على وشك أن يتزوج زواجاً غير قانونى، من قرابة ممنوعة، أو بعد طلاق غير شرعى بتغيير المذهب أو الملّة. أو أنه مزمع أن يتزوج زواجاً مدنياً أو عرفياً. أو ما شاكل ذلك.. هل تمتنع باسم الوداعة عن تنبيهه إلى أن ما ينوى عمله هو وضع خاطئ؟! كلا، بل من واجبك أن تنصحه. وليكن ذلك بأسلوب هادئ فى غير كبرياء ولا تجريح. أما إن سكّت، فإن سكوتك سيكون هو الوضع الخاطئ.

✠ ✠ ✠

ليست الوداعة أن تعيش كجثة هامدة فى المجتمع. بل تتحرك، وتكون لك شخصيتك. وبأسلوب وديع. قل ولو بكلمة واحدة - كقول المعمدان - "لا يحلّ لك" (مت١٤: ٤).

بشرط أن ما تقوله يكون هو الحق، وليس مجرد اندفاع متهور بغير معرفة...

يقول القديس بولس "اسهروا متذكرين أنى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً، لم أفتر عن أن انذر بدموع كل واحد" (أع٢٠: ٣١). وداعته لم تمنعه عن أن ينذر كل واحد. ولكن بأسلوب وديع، كان ينذر بدموع. حتى لو قال كلمة شديدة، سيقبلونها منه.

هل تظنون أن الوديع قد أُعفى من قول الرب لتلاميذه "وتكونون لى شهوداً" (أع١: ٨).

كلا، بلا شك. فحيثما تلزم الشهادة للحق، لابد أن نفعل ذلك.

الإنقاذ :

هل إذا اتيحت فرصة للوديع أن ينقذ أحداً معتدى عليه مثلاً أو فى خطورة..، أتراه يمتنع عن ذلك باسم الوداعة؟

هل من المعقول أن يقول "وما شأنى بذلك؟!" أو يقول "وأنا مالى؟ خلينى فى حالى"!! أم فى شهامة ينقذه، وبأسلوب وديع. كما أنقذ السيد المسيح المرأة المضبوطة فى ذات الفعل من أيدى راجميها. فى هدوء. وقال للراغبين فى رجمها "من كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر" (يو٨: ٧). وفعل ذلك بوداعة دون أن يعلن خطاياهم "بل كان يكتب على الأرض".

الإدانة :

هل يمكن للوديع أن يدين أحداً. متى؟ وكيف؟

أمامنا أمثلة من الكتاب المقدس، فى مقدمتها السيد المسيح له المجد:

هذا الذى قال "لم يرسل الآب ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص" (يو٣: ٧)، والذى قال لليهود "أنتم حسب الجسد تدينون. أما أنا فلست أدين أحداً" (يو١٨: ١٥).. هو فى مناسبات عديدة أدان كثيرين: مثلما أدان الكتبة والفريسيين (مت٢٣). وأدان كهنة اليهود قائلاً لهم "إن ملكوت الله يُنزع منكم، ويُعطى لأمة تصنع أثماره" (مت٢١: ٤٣). وأدان الصدوقيين قائلاً لهم "تضلون إذ لا تعرفون الكتب" (مت٢٢: ٢٩). وأدان تلميذه بطرس لما قال له حاشاك يارب (مت١٦: ٢٣).

السيد المسيح - مع وداعته - أدان، ولكن بسلطان، وبهدف روحى .

✠ ✠ ✠

كذلك فإن القديس بولس الرسول قال لتلميذه تيموثاوس "الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع، لكى يكون عند الباقين خوف" (١تى٥: ٢٠). هنا الإدانة بسلطان، ومن أجل سلامة الكنيسة.

هناك أشخاص من حقهم - بل من واجبهم - أن يدينوا .

ولا تتعارض إدانتهم مع الوداعة. مثل الوالدين، والأب الروحى، والمدرس بالنسبة إلى

تلاميذه، والرئيس بالنسبة إلى مرؤوسيه.. بل إن عالى الكاهن قد عاقبه الله، لأنه لم يحسن تربية أولاده ويدينهم (١صم٣).

✠ ✠ ✠

هوذا الكتاب يقول "لا تخالطوا الزناة" (١كو٦: ٩). فهل تقول: أنا لا أدين هؤلاء! حتى إن لم تقل عليهم أية كلمة إدانة، فإن عدم مخالطتهم وعدم مخالطة مجموعات أخرى من الخطاة (١كو٦: ١١) تحمل ضمناً إدانتهم. وكذلك بالنسبة إلى المنحرفين فى التعليم الدينى، يقول الرسول "إن كان أحد يأتيكم، ولا يجئ بهذا التعليم، فلا تقبلوه فى البيت، ولا تقولوا له سلام. لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة" (٢يو١٠، ١١). فهل باسم الوداعة نقبل هؤلاء؟! كلا. بلاشك.

المسألة ليست حكماً وإدانة. بل يقول الرسول "خطايا بعض الناس واضحة، تتقدم إلى القضاء" (١تى٥: ٢٤). أنت لست تدينهم، بل أعمالهم تدينهم. وأنت بكل وداعة تبتعد عنهم، كما ينصح المزمور قائلاً "فى طريق الخطاة لا تقف، وفى مجلس المستهزئين لا تجلس" (مز١).

هناك مواقف يجد فيه الوديع نفسه مضطراً أن يتكلم، ولا يستطيع أن يصمت. مثلما فعل اليهو فى قصة أيوب الصديق وأصحابه:

كان أليهو وديعاً. ظل صامتاً مدة طويلة. ولكنه أخيراً لم يستطع أن يصمت. وكان الله هو المتكلم على فمه. وهو الوحيد الذى لم يجادله أيوب (أى٣٢-٣٧).

فهرست

صفحة



بسم الآب والإبن والروح القدس

الإله الواحد آمين

يحدثك هذا الكتاب عن:

أهمية التواضع والوداعة.

تواضع الله ، ووداعة الله

اقوال الآباء عن التواضع .

احذر من التواضع الزائف.

وسائل التواضع وعلاماته

صفات الإنسان الوديع

كيفية إقتناء الوداعة

خطورة الكبرياء والعظمة

المجد الباطل والبر الذاتى

محبة المديح والكرامة

كيف تهرب من محبة المديح

الهروب من محبة الرئاسة

الذات سبب الكبرياء

كيف تتخلص من الذات

علاقة التواضع بالفضائل

التواضع واحترام الآخرين

هل المتواضع يوبخ وينتهر

ما هى الوداعة وأهميتها

هل تتعارض الوداعة مع الشجاعة والشهامة

إنها دراسة مع تداريب

حاول أن تقرأها وتحياها.

البابا شنوده الثالث



قرشاً